مقالات في كلمات

علي الطنطاوي

مكتبة دار الفتح

مقالات في كلمات

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع
مكتبة دار الفتح بدمشق
شارع سعد الله الجابري
بناية المولوية

الطبعة الاولى

١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م

مطابع دار المنار بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له

اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص في القول

والثبات عليه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه

المقدمة

كنت في سنة ١٩٤٩ أكتب في جريدة (النصر) أولا ، ثم في (الايام) آخراً ، : كلمات بعنوان (كل يوم كلمة صغيرة) . ولبثت على ذلك سنوات، اجتمع لديّ فيها ركام منها ، منـــه ما لا يقرأ الا في يومــه وقــد اهملته واطّرحته ، ومنه ما يقرأ في كل الاوقات ، وقد اخترت منه هذه الكلمات.

وانبه القارىء الى أن هذه الكلمات كتبت من نحو عشر سنين ، ومـــا فيها من مشاهد وصور ، انما كان في تلك الايام .

دمشق : ٢٠ جمادى الاولى ١٣٧٩
٢١ تشرين الثاني ١٩٥٩

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض

الى الاغنيـــاء

يا مضطجعين على فرش النعيم ، يا آمنين في حمى المدافيء ، يا ناعمين في ردهات القصور ، يا راتعين في لذائذ العيش ، يا من لا يعرفون كيف يحفظون أموالهم : هل يجمدونها ذهبـا ، أم يحولونهـا دولارات ، أم يستثمرونها أسهما ، ولا يدرون أين ينفقون فضلاتها وزوائدها ، فلا يفتأون يسألون ، عن دار أجمل من الدار التي يسكنون ، وسيـارة أفخم من السيارة التي يملكون ، وأثاث أحدث من الاثاث الذي يقتنون .

يا أيها الاغنياء المترفون ، اذكروا ان في الارض من اخوانكم ، من أبناء أبيكم آدم ، وامكم حواء ، من لا يجد في هذا البرد الذي يجمـد الانفاس دثارا من الصوف يتدثر به ، وغرفة محكمة يأوي اليها ، ونارا موقدة يتدفأ بها ، ومن لا يعرف من أين يأتي بالمـال الذي يشتري به الخبز يسد به جوعه ، والدواء يدفع به مرضه ...

وان في البلد فقراء مدقعين ، وان في البلد لاجئين ...

وانكم لا تكونون من أبناء آدم ، اذا أهملتم اخوانكم هؤلاء ، ولم تخطروهم على بالكم ، ولم تجعلوهم من همكم !

فابحثوا عن الفقراء من جيرانكم ، واللاجئين في حيكم ، وسـلوا أولادكم في المدارس عن أولاد الفقراء ما حالهم ؟ ماذا يلبسون ؟ فلعل ثوبا عتيقا من ثياب أولادكم يكون هدية العيد عندهم ، وفيم يكتبون فلعل دفترا قديما من دفاتر أولادكم يكون فرحة العمر لهـم ، ولعـل الـ (خمس ورقات) التي تنفقونها فلا تحسون بها ، تكون ثروة لهم ، اذا دفعتموها اليهم !

ولا تغتروا بالغنى فطالما افتقر أغنياء ، ولا بالصحـــة فطالما مرض أصحاء ، ومادامت الدنيا لأحد حتى تدوم لكم ، والحساب بعد ذلك أمامكم ، وستعرضون على ربكم ، فاجعلوا هذه (الصدقات) شكركم لله ما أنعم به عليكم ، واجعلوها تكفيرا عن خطاياكم ، وأسروا الصدقة حتى لا تعلم يمينكم بما صنعت شمالكم ، يضاعف لكم الاجر عندربكم أو أعلنوها حتى يقتدي الناس بكم ، ويسيروا في الخير علىسننكم...

يا أيها الاغنياء : اسمعوا ما أقول لكم ، فلقد والله نصحتكم !



الايمـان

في فلم جان دارك ، الذي مثلته أنجريد برجمان ، مشهد عظيم هو مشهد الفتاة لما وصلت الى مقر قيادة جيش شارل السابع فوجدت القوم مقبلين على اللهو واللعب ، فوعظتهم فسخروا منها ، فنصحتهم فأعرضوا عنها ، فجمعت الجنود وقامت تخطبهم ، تذكرهم أن جيش الانكليز أقوى عدة ، وأكثر عدداً ، وأنهم لا يستطيعون أن يغلبوه ، ويظفروا به ، ويخرجوه من أرض الوطن الا بشيء واحد ، هو أن يكونوا مع الله ، ويقاتلوا في سبيله ، وينبذوا المعاصي ، ويتوبوا من الذنوب ، واستجاب لها الجند ، فنقلتهم من الهزيمة الى الظفر ، ومن الضعف الى القوة ، ومن الانقسام الى الاتحاد .

وما قالته جان دارك يكاد يكون ترجمة حرفية لرسالة عمر المشهورة ، وما قالته جان دارك هو الحق الابلج ، الذي يؤيده العقل والدين والتاريخ العسكري .

ونحن ما فتحنا الدنيا في صدر الاسلام ، ولا أزحنا امبراطورية فارس ، وقهرنا مملكة الروم ، وعملنا هذه العجائب الا بالايمان .

بالايمان استطعنا أن نحارب بسيوف ملفوفة بالخرق ، وجنود مهلهلة ثيابهم ، خاوية بطونهم ، أقوى جيوش الارض ، واكملها هيئة وعتاداً ، وان ننتزع منهم النصر .

بهذه العقيدة الاسلامية انتصرنا : عقيدة أن المؤمن يقاتل في سبيل الله ، ولاعلاء كلمة الله ، فهو بين الحسنيين : النصر أو الشهادة ، فكان جنودنا يحرصون على الموت ، أكثر من حرص أعدائهم على الحياة ، ويسعون اليه سعي الناس الى اللذاذات والمتع ، وكان الشاب منا ان رده النبي صلى الله عليه وسلم لصغره ، يتطاول على رؤوس اصابعه حتى يبدو كبيرا فيأخذه الى القتال ، وكان الجندي منا تقطع ذراعه وتبقى

معلقة بكتفه ، فتعوقه ، فيضع أصابع الذراع المقطوعة تحت قدمه ويتمطى حتى يقطعها فيلقيها ، ويعود الى قراع العدو ، وكان الجندي منا تكون في يده تمرات يأكلهن فيسمع رسول الله يقول أن من يقتل يدخل الجنة ، فيقول : بخ بخ ، ما بيني وبين الجنة الا أن ألقى هؤلاء ؟ ويرمي التمرات ويهجم على العدو ، وكانت المرأة منا يقتل أبوها وزوجها وأخوها في سبيل الله فلا تفكر فيهم وتسأل : ما فعل رسول الله؟ فاذا قيل لها : هو حي ، قالت : كل مصيبة بعده هينة . وأخرى يقتل أولادها الخمسة فتقول : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ...

بالايمان حاربنا لا بسلاحنا ، وبالايمان انتصرنا ، وبالايمان وقف سعد ، وهو بدوي من الجزيرة ، لم يدرس فنون الحرب ، ولا دخل مدرسة عسكرية ، في وجه رستم القائد الفارسي ، وانتصر عليه ، وبالايمان فتح عقبة المغرب كله بلغ البحر الاطلنطي ، فاقتحمه بفرسه وقال : اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا في سبيلك حتى أموت ، أو أفتح الارض .

وانها لا تصلح أواخر هذه الامة الا بما صلحت به أوائلها وان فينا لبقية من هذه البطولات ، من هذه المعارك المظفرة التي خضناها ، دفاعاً عن الحق والفضيلة واعلاء لكلمة الله ، في قلوبنا ذكرياتها ، وفي دمائنا حماستها ، فابعثوا هذه الذكريات واثيروا هذه الحماسة ، وأيقظوا الايمان في النفوس ، وسوقوا الوعاظ الصادقين ، والعلماء العاملين الى الجبهة يتلون على الجند تاريخ الفتوحات الاولى ، وأخبار البطولات العربية ، ويلقنونهم معاني الايمان ثم انظروا ما يصنع هؤلاء الجند !

انهم والله يصنعون المعجزة التي تدهش العالم وتتركه مشدوهاً مفتوحاً فمه يقول ألا ترون ما صنع هذا الجيش الصغير !

يا أيها السادة ، انكم تملكون سلاحاً هو أقوى والله من المدافع والطائرات ، فلا تهملوه ولا تنسوه ، ان هذا السلاح هو الايمان .

* * *

أجير الخبـــاز

هذه صورة وصفية صادقة لحادث حدث من يومين ، وكان النهار مصحياً دافئاً ، وآلاف الشباب يتبخترون على طرفي شارع فؤاد ، مرجلة شعورهم ، مصقولة وجوههم ، محبوكة ثيابهم يختالون زهواً واعجابا ، كسرب من الطواويس ، أو كجماعة من ديكة الحبشة ، منفوشاً ريشها ، ومئات البنات ، من كل جميلة صنعتها يد الله ، وذات جمال من عمـل الحلاق والخياط ، وبائع الاصباغ وصانـع العطور ، يخطرن ، ينثرن حولهن الفتنة وينشرن الاغراء .

وشمس الاصيل تطل من خلال منافذ الشارع الغربية ، كما يطـل الامل من فرج اليأس ، فتنقل هؤلاء الناس من أرض الحقيقة ، الى سماء الاحلام ، فيذهبون جميعا الى اعماق حلم ذهبي تضيع فيه هذه الرؤوس المتعانقة ، التي غرقت في نشوة الحب ، وغابت في هذا الهمس الناعم ، الذي تنسى معه الدنيا وما فيها وهـذه الرؤوس المفردة التي تتعلـل بذكريات لذة ماضية ، وخيالات لذة لم تأت ، أو تغوص في رؤى شيطانية فاجرة من عمل الحرمان .

ورأيت في وسط هذا العالم البهيج ، السابح في غمرة النعيم صورة من صور البؤس ، ومظهرا من مظاهر هذا الظلم الاجتماعي ، رأيت صبياً لا أظنه قد أكمل العاشرة ، ضامر الوجنات من الهزال ، بادي العظام ، يمشي حافياً ، بخطى واهنة متقاربة على ساقين كأنهما قصبتان من القنب ، يلبس معطفاً واسعاً ممزق الظهر يتعثر فيه تعثـراً ، فوق قميص رقيق

مخرق ، يحمل على عنق دقيق مثل عنق الدجاجة (فرشاً) كبيراً عليه ركام من الخبز ، يكاد الغلام ينسحق تحته .

وكان هؤلاء المنعمون الذين أثقلتهم التخمة ، وأبطرهم الترف يتحامونه ويبتعدون عنه ، ويضمون أثوابهم أن تلامس ثيابه كأنما هو مجذوم أو مجرم ، أو كأنه وحش كاسر .. ولم يلتفت اليه واحد منهم، ولم يرحم هذه الطفولة المعذبة ، ولم يقع عليه نظر ، وانما كانت الانظار كلها منصبة على تلك العيون ، التي يتدفق منها الفتون ، وتلك القدود ، التي تميس برقة ، وتخطر بدلال ...

وكانت السيارات تتسابق تحمل المدلّلين من أبناء الامة : الموظفين الكبار الذي تهبط عليهم الخيرات بلا حساب والمجدودين من الوارثين وأغنياء الحرب ، واللصوص المختبئين في ثياب الاشراف .

... ومرت سيارة أنيقة فخمة من سيارات الدولة ، فيها سيدة ملفوفة بالفرو . تكاد تنفزر [1] مما نفخها البطر ، وولد واقف على شباك السيارة ، قد مدّ رأسه ينظر ويتلهى ، وكأنه يسخر من هذا الشعب ، الذي دفع ثمن السيارة من عرق عامله ، ودم فقيره ليركب فيها هو وأمه، الى الاستقبالات ، والمخازن والسينمات .

ووقفت السيارة فجأة الى جنب الغلام الذي يحمل (الفرش) ودفعه أحد السادة حتى لا يدنسه فمال على السيارة ، فمس طرف رغيف مما في الفرش ، وجه الولد مساً رفيقاً ، وقامت القيامة ووقف القسم الظالم من هذا الشعب ، أمام القسم المظلوم ، يمثل الاول ولد السيارة بقسوته وكبريائه ، وأخذه ما ليس له واستطالته على من دونه ، ويمثل الثاني غلام الخباز ، بضعفه وبؤسه ، وكدحه وذلته ، وصرخ الولد وأعول ، وهاجت الام ، ونزل السائق بقوته وبطشه على هذا الغلام ، فضربه حتى

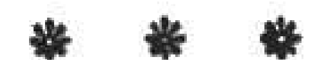
---

(١) انفزر من العامي الفصيح .

كاد يحطمه ، ورمى خبزه ودعسه بقدميه ، وتم ذلك في لحظات ، فما وصلت حتى كان كل شيء قد انتهى ، والسيارة قد مرت كالعاصفة ، لم تخلف وراءها الا الغلام يبكي صامتاً ، لا يرفع صوته ولا يستنصر أحداً، لأنه يئس من أن يجد في هؤلاء المترفين انساناً يصغي اليه .

وأسدل الستار على المأساة ، وعاد الموكب الحالم يتابع طريقه يستمرىء حلمه الذهبي المترع بالنشوة والشهوة والفتون ..

وكأن شيئاً لم يقع ، لم نقتل العدل ، ولم نظلم الطفل ، ولم نملأ هذا القلب الصغير حقداً على الحياة ، حتى اذا كبر استحال هذا الحقد اجراماً فاتكاً مدمراً ...



مجرم الغد

هل نسيتم الغلام الذي كان يحمل فرش الخبز ؟ أما أنا فما نسيته ، ولم تبرح صورته خيالي ، وهو ينظر الى خبزه مرمياً على الارض ملطخاً بالوحل ويبكي في صمت .

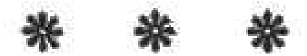
ولقد رأيتها تلك الليلة في أحلامي ، رأيت طول ليلي دموعاً تنقط حارة مضطرمة ، ودموعاً تجري جياشة مضطربة ، وحيثما تلفت في منامي رأيت دموعاً ، دموع الاطفال المظلومين ، في البيوت والمدارس ، والدكاكين والشوارع ، وتألف من الدموع سيل عات طاغ ، أبصرته يجرف البلد ، وينسف هذه الاوضاع الاجتماعية القائمة بما فيها من شر ، وما فيها من خير ..

وصحوت مرتجفاً .. واذا الامر حقيقة من صنع الواقع لا رؤى من عمل الخيال ، واذا هذا السائق الظالم ، قد وضع في قلب الغلام نواة الحقد على الهيئة الاجتماعية ، والعزم على الانتقام منها ، وحول هذا القلب الصغير ، من أداة للخير والصلاح ، الى قنبلة مدمرة ، ستنفجر يوماً ، فتهلك صاحبها ، وتهلك معه الناس واذا المجرمون من أمثال السائق كثيرون ، منهم الاب الجبار والمعلم القاسي ، والموظف المتكبر ، وهذه النظم التي تقضي بالحرمان ، على أطفال برءاء ما جنوا ذنباً ، وتعطى أطفالا آخرين أفانين النعيم ... واذا هذا الغلام الذي تركته الهيئة الاجتماعية عارياً حافياً ، لتركب طفلا مثله السيارة التي شريت بأموال الامة ، وحملته على رأسه هذه الاثقال ، وسيّرته ببؤسه وشقائه في طريق كل من فيه سعيد ، والذي لم يستطع أن يدافع عن نفسه اليوم

الا بالدموع الصامتة ، ان هذا الغلام سيقوى ويشتد ويصير رجلا ، وسيرد الظلم ظلماً أشد ، والعدوان عدواناً أفظع وسيدمر الهيئة الاجتماعية التي دمرته ، وسيحرمها الاطمئنان كما حرمته التهذيب ، وسيأخذ ما ليس له لأنه منع أن يأخذ ما هو له وسيعدو على المال والعرض ، وسيغدو مجرما يركب هواه ، فلا يرد رأسه القانون ، الذي لم يعودوه احترامه ، ولا الدين الذي لم يعلموه أحكامه ، ولا السجن ولا التعذيب .

فاذا أردتم أن تعرفوا مجرمي الغد الخطرين السفاكين فابحثوا عنهم في ثياب أطفال اليوم البائسين المظلومين ، وارفعوا الظلم يرتفع الاجرام ، وأذهبوا البؤس يذهب الخطر ، واعلموا أن هؤلاء المجرمين الذين تمتلىء بهم السجون كانوا يوماً أطفالاً أطهاراً ، وان هؤلاء الاطفال المهملين المظلومين سيصيرون يوماً مجرمين أشراراً .

وان رأس الاجرام ، ومنبع الشر هو الذي ظلم هؤلاء الاطفال ، رأس الاجرام (السائق الجاني) والاب الجبار ، والمعلم القاسي ، واللصوص الذين يسرقون أموال الفقراء ولا يجد القانون اليهم سبيلا ، فلا تستهينوا بدموع الطفل المظلوم ، فانها ستجتمع الدموع يوماً فتكون سيلاً عاتياً جارفاً لا يقف أمامه شيء .



مشكلة وجيه

سيدي الوجيه الكبير :

قرأت كتابك الذي أرسلته الى (النصر) باسمي ، وفهمت قصتك الطويلة ، أما رأيي الذي تقسم عليّ بأن أعلنه بصراحة ، وأن أنشره في (النصر) فاني أخاف أن تغضب اذا أبديته لك أو أن يلومني على ابدائه القــراء.

لأن رأيي فيك يا سيدي المحترم أنك...أحمق كبير ــ ولا مؤاخذة ــ وانك لا تصلح أباً لهذه البنت العاقلة ، وانك مع الاسف صورة لاكثر الآباء ، لا تختلف عنهم الا كاختلاف نسخ القصة المطبوعة بعضها عن بعض . فهمت من كتابك أن الخاطب الذي رغبت فيه ابنتك محام فقير ، لا يملك الا شرفه وخلقه وعزة نفسه ، والمال الذي يأخذه بكد يمينــه ، وعرق جبينه .

وان الخاطب الشاب الجميل الغني المدلل وحيد أبويه ــ اسم الله عليه ــ الذي يملك وزنه ذهباً ، لم تقبل به البنت لأنه ليس بصاحب علم ، ولا بذي مهنة ، وانها أبتْ مَن تريد ، وأبيت مَن أرادت ، فبقيت بلا زواج .

وانك حائر في هذه المشكلة لا تدري ماذا تصنع .

ومشكلتك هذه يا سيدي مشكلة البلد كله .

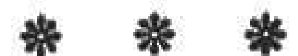
مشكلة سببها أنتم أيها الآباء ، الذين يحسبون البنت سلعة فهــم يريدون أن يبيعوها ، لمن يدفع فيها الثمن الاكبر ، ويظنون الزواج صفقة تجارية ، فهم يتمنون أن يخرجوا منها بالربح الأوفى .

أنتم سلبتم الزواج معناه الانساني العاطفي ، وجعلتموه معاملة مالية، يبحث فيها عن المهر والجهاز ، والحفلات والولائم ، قبل أن يبحث عن التوافق والحب ، والسعادة الزوجية •

أنتم وضعتم الاشواك في طريق الشباب ، الذين يريدون بناء البيت، وانشاء الاسرة ، وارضاء الله والخلق ، وأقفلتم في وجوههم أبوابكم ، ففتحتم لهم بذلك باب الفجور والفساد ، وعبدتم لهم طريق البغاء والمرض والافلاس •

أنتم الذين يضحون بصحة بناتهم ، وبأخلاقهن وبسعادتهن في سبيل التفاخر والتكاثر ، والعظمة الفارغة ، ويضحون بعد ذلك بمصلحة هذا الوطن ! أنتم المسؤولون عن مشكلة البغاء السري ••• ؟ أنت وأمثالك من الآباء ! وتسألني بعد ذلك رأيي ؟

رأيي أنك مجرم كبير ••• يا سيدي الوجيه الكبير !



اكرموا الفلاحين

حدثني صديق ، قال :

لما وصلت بنا سيارة القصاع الى (برج الرؤوس) ركب معنا فلاح من احدى القرى النائية ومعه امرأته ، صعد هو من أول السيارة ، وطلعت هي من آخرها ، وقعد كل في أقرب مقعد من الباب ، وأخذا يتحدثان حديث البقرة والدجاج والكشك والبرغلات ، بصوت كان يعلو على هدير السيارة ، ويمر من بين الركاب ويرتفع حتى يبلغ آذان من في الطريق ...

واحتمل الركاب الاذى هنيهة ، ظانين أنهما سيسكتان فلم يسكتا ولم يباليا بأحد فصاح بهما جابي السيارة :

ـ ما هذا ؟ هل تحسبان انكما في الضيعة بين الفلاحين ؟

فغضب الفلاح وقال :

ـ لايش شوبو الفلوح ؟ محسبينا ما نفهوم ؟ شوفنا كتاير وركبنا طرومبايات كتاير !!

وحسبت الركاب سيكبرون هذه الغضبة واذا هم ينفجرون ضاحكين ، ثم لا يتركون كلمة هزء وسخرية الا رموا بها الفلاحين ، حتى أحنى رأسه خجلا وتصبب من خجله عرقاً ، وجعل ينظر حوله حائراً مشدوهاً كالشاة التي تساق الى الذبح اذ تنظر تفتش عن نصير !

فقلت لمن حولي : مه يا اخوان . حرام عليكم ، صحيح انه أزعج الركاب بحديثه وانه كان جلفاً جافياً بعيداً عن الآداب الاجتماعية ، ولكن من جعله كذلك ؟ من الذي بعد بالقرى عن الحضارة ؟

ان القرية أنقى هواء ، وأصفى ماء ، وأهلوها أصح أجساداً ، وأقل فساداً ، ولو انكم أوليتموها شيئاً من رعايتكم ومن عنايتكم لكانت القرى جنات على الارض . ولم لا ؟ أما في لبنان قرى أرقى من المدن ؟ أليس في انكلترا ضياع ؟ فلماذا تكون الضيعة الانكليزية مثابة لكل عاشق مدنف ، وكل غني مترف ، يلقى فيها صحة الجسم ، وأنس الروح ، وراحة البال ، ومتع العيش ، وتكون قرانا مثابة الفقر والجهل والمرض والقذارة والظلم والظلام ؟ لماذا لا يكون في كل قرية مدرسة ، وفي كل قرية طبيب ؟ من المسؤول عن ذلك الا انتم يا اهل المدن ؟ أنتم يا من منهم الحاكمون ومنهم العالمون ومنهم رجال القلم ؟

لماذا لا يجرد الصحفيون والكتاب أقلامهم في نصرة القرية والدفاع عنها ؟ لماذا يأخذ مدرسو الافتاء ومدرسو الاوقاف الرواتب ولا يدرسون؟ لماذا يا علماء الاسلام ، لا تأمرونهم بالنظافة ، و (النظافة من الايمان) ؟ ولا تأخذونهم بالتداوي و(ما أنزل الله داء الا أنزل له دواء) ؟ لماذا يبقون جاهلين و (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ؟ لماذا لا تقومون أخلاقهم وما بعث نبيكم محمد (الا ليتم مكارم الاخلاق) ؟

ان الضمان الاجتماعي الذي تحاول مصر أن تمشي اليه ، والذي تعده انكلترا من مفاخرها انما جاء به الاسلام . وسأعود فأثبت لكم هذا (يا أيها القراء) بالشواهد والنصوص ، فحاربوا وباء الشيوعية في القرى بتحقيق عدالة الاسلام ، لا بالكلام ، وادفعوا جفاء الفلاحين بالعلم ، لا بالشتم .

انه من العار علينا أن ندع نصف سكان البلاد محرومين من نعمة الحضارة ونور العلم ، ينامون مع الدواب ويعيشون مثل الدواب ، يسخرهم لمآربه كل متسلط أو دركي أو مختار ، ثم نزيد على ذلك الضحك عليهم والسخرية بهم !

❋ ❋ ❋

وأنت يا أيها الفلاح !

لا تخجل من كلامهم ولا تذل أمامهم ولا تحن رأسك من ثقل أنظارهم ، فانك ان فعلت أغريتهم بك ، وجرأتهم عليك ، ولكن انصب ظهرك ، واقبض يدك ، وارشق بعينك واصرخ في وجوههم طالباً منهم حقك الذي سرقوه : حقك في العلم وفي الصحة وفي نعم الحضارة ، حقك في أموال الدولة ، حقك الذي أعطاكه الاسلام ، والعقل ، ودستور البلاد !

* * *

نظـــام

ركبت (الترام) أمس من المهاجرين ، وكان مزدحماً ، قد قعدالناس فيه على المقاعد ، ووقفوا في الممرات ، واندسوا في كل زاوية ، وملأوا كل فراغ ، حتى تماست الوجوه ، وتداخلت الارجل ، ولم يكن فـي الراكبين من يستطيع أن يلتفت أو يتحرك أو يسعل أو يعطس٠٠٠وكنت في غرفة الدرجة الاولى في آخر (الترام) ، وكان معنا راكب ضخـم الجثة ، كأنه ثلاثة رجال حزموا وربطوا معا ثم جعلوا شخصا واحدا ، وكان مع هذا الطول والعرض والعمق مسنا هرما برجل واحـدة ٠٠٠ فلما وقف الترام عند البرلمان ، قام صاحبنا لينزل ، فكان يشق الناس بيد ، ويعتمد على العصا بيد ، ويقفز على رجلهالواحدة ، ويلهثويخور كأنه قاطرة قديمة من قاطرات بيروت التي لا تزال تستعملها الشركـة وحقها أن تكون في المتحف الاثري ٠٠٠ ولم يصل الى الباب حتى مرت خمس دقائق ضجّ فيها الراكبون المستعجلون ، وطنطن السائقبجرسه وبدأ يسب ويشتم ، وازدحمت وراء الترام العرباتوالسيارات ، وماكاد يضع رجله الوحيدة على سلم الترام حتى نبع من أمامه المفتش كأنما قد انشقت الارض عنه وقال له :

ـ ممنوع النزول من الوراء ، ارجع ٠

فقال الرجل : من أين أمر ؟

قال : لا اعرف ٠٠٠ ما هي وظيفتي !

وانبرى للمفتش رجل يبدو عليه أنه موظف معتز بوظيفته ، أو وجيه مطمئن الى وجاهته وقال له :

دعه ينزل ... أما ترى الترام مزدحماً ! فمن أين يصل الى الامام؟

قال : لا أعرف ـ ما هي وظيفتي .

فاحتد الرجل ، وكاد الدم ينبثق من وجنتيه من الغضب ، وكادت عيناه تخرجان وقال : ـ ما هي وظيفتك ؟ أليس من وظيفتك أن تمنع ركوب مائة راكب في ترام خصص لثلاثين ، وليس الا باب ضيق من الامام وباب ضيق من الخلف ، لماذا حفظت ان النزول من الامام ولم تحفظ أن عدد الركاب محدود ؟ ما هذا يا ناس ؟ هل تتعلم واحدة وتترك الاخرى ، فنصير مثل البدوي الذي قلد المتمدنين ، فلبس كرافات بعشر ليرات ، ومشى حافيا بلا لباس ؟..

وأصر المفتش على رأيه ، وقامت القيامة ، وتداخل في المعركة السائق والركاب والمارون واصحاب السيارات والعربات ، ولم يجدوا حلا للمشكلة الا بأن يبقوا الرجل راكبا الى المرجة ليعود ماشيا يقفزعلى رجله الواحدة ... الى البرلمان ...

وهكذا انتهت المسألة ، وانتصر النظام الذي يمثله مفتش الترام !

وأنا أروي القصة بلا تعليق ... ليعلق عليها كل واحد من القراء بما يشاء !



ابطـال صغـار

أنا أعمل كل يوم من الساعة الثامنة الى الرابعة ، في المحكمة وفي المدرسة ، عشر ساعات دأبا بلا وقوف ولا راحة ، فلا أصل الى آخرها، حتى تصل روحي الى التراقي وتهي قواي ، ويهن جسدي ولا ابتغي من لذائذ الدنيا كلها الا غرفة ساكنة ، وفراشا لينا ، ونومة لا تنتهي !

كانت تلك حالي امس ، حين اجتزت شارع فاروق ، الذي أتمنى أن يسمى شارع القاهرة فيكون جناحي دمشق ، شارعا القاهرة وبغداد ، ونستريح من اسم فاروق كما استراحت مصر من شرور فاروق. وتؤكد الصلة بالقطرين الأخوين ــ وان كانت لا تحتـاج (بحمد الله) الـى تأكيد ــ اجتزت الشارع ، فرأيت الناس مجتمعين ، قد تعلقت أبصارهم بشيء في الشارع لم أره من بعيد ، ولكني رأيت في كل وجـه سمات الاعجاب ، وقرأت على كل جبين سطور الفخر ، ولمحت بريق الحب والعطف في كل عين ، بل لقد أبصرت في أكثـر العيون قطرات من دموع الفرح والاعجاب ، فأسرعت لأرى ما يرون فلما رأيته أحسست ــ وشـرف القراء ــ أن ذلك التعب كله قد ذهب في لمحة واحدة ، واني قد نشطت كما ينشط الجمل من العقال . واذا أنا قد انتفضت حتى عدت أقوى مايكون امرؤ همة وعزما وتوثبا . وشعرت بالعاطفة ، عاطفة الحب والفرح والاكبار يخفق بها قلبي . ثم تسيل دمعا من عيني ...

رأيت فرقة صغيرة فيها سبعة وعشرون صفا ، في كل صف ثلاثـة أطفال ، أطفال صغار جدا ، لا يعد أكبرهم الثانية عشرة ، لباسهم واحد ، لباس أسود طويل السراويل كلباس الجند ، وخطواتهم واحدة ، يلوحون

بأيديهم ، ويخبطون [1] بأرجلهم ، لا تختلف يد عن يد ، ولا خطوة عن خطوة ، كأنهم قطعة واحدة ، أبصارهم الى الامام ، وجباههم الى العلاء ، لا تلمح على فم أحد منهم بسمة لعب ، ولا في عينيه لمعة غرور .

والعجيب أنهم يمشون وحدهم ، لا رقيب ولا قائد ولا معلم ، والناس بين داع لهم ، ومثن عليهم ، ومدهوش من جدهم وانتظامهم ، ومأخوذ بطهرهم واخلاصهم وطفولتهم ، ونسيت تعبي ومقصدي ، وتبعتهم لأعرف ما هم ، ومن أي مدرسة من المدارس جاؤوا ، وجعلت أدقق النظر اليهم ، وأتأمل عيونهم وملامحهم وحركاتهم ، فلا أزداد الا تأثرا بهم . حتى وصلت ــ وأنا لا أشعر ــ الى بحرة شارع بغداد ، وخف الزحام ، وخلا الطريق . فرأيت أمامي شابا عريض المنكبين ، مهول الخلقة ، يمشي بحذاء الاطفال وان كان لا ينظر اليهم ، ولا يبدي الاهتمام بهم ، فقدرت أنه المعلم . وتخطيت حدود (اللياقة) وأسرعت اليه فقلت :

ــ عفوا ! أنت استاذ هؤلاء الاطفال ؟

فنظر الي كالمستاء من فضولي .

فقلت :

ــ أنا علي الطنطاوي . أريد ...

فتطلق وجهه وقال :

ــ تشرفنا يا أستاذ ، نعم أنا المدرب محمد الزول .

وصافحني فضاعت يدي في يده القوية الكبيرة وقال :

ــ وهؤلاء هم أطفال مبرة المحافظة الممتازة .

* * *

هؤلاء أطفال المبرة ؟ المبرة التي تقوم وراء الشيخ عبد الرحمن في شارع بغداد ؟ من كان يصدق ذلك ؟ هؤلاء الايتام الذين يستجدي أمثالهم المحسنين ، صاروا بهذه الرجولة المبكرة وهذا النظام وهذا الطهر

---

(١) الخبط من العامي الفصيح .

يغتصبون الحب والاكبار اغتصابا ، لا يستجدونه استجداء ؟

لقد حرمتهم الحياة الآباء . ولكن كل من رآهم في الطريق أحس أنهم أولاده .

أقسم اني لا أجد لأولادي أكثر مما وجدت لهم في قلبي . ولقد تمنيت أن أوزع عليهم هدايا . أو مالا . لكن ...

ولكن اعذروني يا أطفال ، ليس عندي مال . اني قاض ولست محاميا ولا تاجرا ولكن عندي الحب . وعندي عواطف القلب . فاقبلوا هذه الهدية الصغيرة مني : حبي وعواطف قلبي وهذه التحية التي تحملها الجريدة اليكم .

يا أطفال . لو كان عندي مال ، لعبرت لكم بغير الكلام عن مقدار ما تركتم في نفسي من الحب ، وما صببتم في روحي من الحماسة ، وما وضعتم في رأسي من الزهو والكبر الوطني .

اني لأزهو أني من وطن أطفال مبرته ، بهذا النظام ، وهذا السمو ، وهذه الروح . ان وطنا أنتم صغار بنيه ، لن يذل أبدا ، وان عهدا أنتم رجال مستقبله لن يعيد مثل مأساة فلسطين ، وان غابا أنتم أشباله لن تعدو عليه العوادي .

* * *

مشكلة الزواج

أريد أن أدع اليوم أسلوب الأديب ، وأتكلم بلسان التاجر ، وأقول كلاما واضحا عمليا ، أرجو أن يكون له ان شاء الله أثر ظاهر في الاصلاح.

فيا أخي القارىء !

خذ بيدك ورقة وقلما واحسب كم في منزلك ومنزل أخيك وعمك وخالك ومنازل أقربائك واصحابك من الشبان الذين جاوزوا الثامنة عشرة ولم يتزوجوا ؟. اكتب اسماءهم ! وكم فيهم من غني وفقير وتقي وفاجر ، وعالم وجاهل ؟ اكتب بجنب كل اسم صفته ! واحسب كم في هذه المنازل من بنات جاوزن السابعة عشرة ولم يتزوجن ؟ اكتب اسماءهن وصنعات آبائهن !

ألا تجد أن في البنات الغنيات والفقيرات والتقيات والفاجرات والمتعلمات والجاهلات وفي الشبان مثل ذلك ؟

وتصور الآن ! كم في البلد من شبان وبنات في سن الزواج لم يتزوجوا ؟

ان كل شاب له بنت توافقه وتقبل به هي وأهلها ، وكل فتاة لها شاب يوافقها ويقبل هو وأهلوه بها ، ولكنها لا تعرفه ولا يعرفها .

هذه هي مشكلة الزواج على حقيقتها .

ليست المشكلة في غلاء المهور . لأن ثمانين في المئة من المهور (من العقود التي تعقد في المحكمة الشرعية) دون الخمسمئة ليرة وكثير منها دون المائة ليرة ، ولا في تشدد الآباء ، ولا في كثرة النفقات ، لأن كل شاب يستطيع أن يخطب ابنة رجل يكافئه في المال وفي المنزلة ويقاربه في النظر

الى الاشياء والحكم على الامور ، ولكن المشكلة انه لا يعرف أين هو الرجل الذي يناسبه .

أليس هذا هو الواقع ؟

فما العمل ؟ أما أنا فأرى أن هذه المشكلة مثل مشكلةالبيوت ، فقد كان في الشام من زمان ألف دار فارغة ، يفتش أصحابها عن مستأجر ، وألف رجل بلا دار يفتشون عن دار يستأجرونها ، ففتحت المكاتب العقارية في كل حي لتدل المستأجر على الدار الفارغة .

فما هو المانع أن يكون في كل حي جماعة من (الكهول) الافاضل ، المقطوع بأماتتهم وأخلاقهم ، ومن الذين يريدون الخير للخير لا للتجارة ، فيتصلوا بالشاب العزب ويسألوه عن الفتاة التي يريدها ، فاذا وثقوا من حسن نيته ، وصدق عزيمته على الزواج ، قالوا له : ان طلبتك عند فلان .

وهنا ينتهي عمل هذه الجماعة ويذهب الشاب فيتصل بالاب ويخطب البنت .

فهل ترون أن هذه الطريقة موصلة الى الغاية ؟ وهل نجد في البلد يوما من يندب نفسه لهذا العمل الذي أعتقد أنه لا يقل ثوابا عن الصلاة[1] والزكاة والحج ، لأن فيه نصر الفضيلة ، وحرب الرذيلة ، وانشاء جيل جديد ، قوي خير ، نشأ على طهر ونمى على تقوى ، ولأن ترك المعاصي مقدم على اتيان الطاعات ، ودرء المفاسد قبل جلب المنافع ؟

* * *

(١) وان كان لا يغني المسلم شيء عن الصلاة والزكاة والحج ، ولا يقوم مقامها ، ولا يسقط عنه فرضها .

دمشق

« الى أعضاء مؤتمر الهلال الاحمر
الذي عقد في دمشق » .

هذي دمشق قد برزت لاستقبالكم بالزهر والعطر ، تحيي فيكم الخير والحب والاحسان ، وقد تجمع فيها ما تفرق في مدائن الارض من جمال ، فالجنان في غوطتها ، والانهار في رَبْوتها ، والسهل في مِزّتها ، والبساتين تحف بها ، والجبال من حولها ، وكل مجالي الوجود فيها ، لا ينقصها الا البحر ، ومن قاسيونها بحر من الخضرة يبدو لكم ماله من آخر …

فانشقوا عبير الخلود من دمشق ، فما تلقون ان فارقتم دمشق مثل دمشق ، مثل ميزانها وشاذروانها ، وغوطتها وواديها ، والانهار السبعة في الربوة كعقود اللآليء في جيد الحسناء ، والبساتين التي يضل فيها النظر سكران من الفتون ، وهذي المنارات وهذي القباب ، والمسجد الذي تحطمت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم ، وارتدت عنه العصور وهو شامخ ، يروي لأبنـاء الارض تاريخ الارض ، مذ كان معبداً وثنياً ، الى أن صار كنيسة نصرانية ، الى أن غدا جامعاً اسلاميا ، ففيه لكل ذي دين ذكرى ، وعن كل دين حديث ، وهذا الجبل الذي يفتر أبداً عن مثل ابتسامة الأمل ، في وجوه المطالب ، على حين تعبس الجبال . وما تلقون بعدها مدينة مثلها ، ثيابها زهر ، ونسيمها عطر ، وحديثها شعر ، وجمالها سحر ، ومياهها خمر ، وهي جنة المستعجل …

وتأملوا واخشعوا فهذي أقدم مدن الارض العامرات ، ماتت أخواتها

من دهور وبقيت سالمة ، وأدركتها سن الشيخوخة ولبثت شابة ، وكانت عروس الماضي وستبقى أبداً عروساً ، فأموا آثارها وسائلوها تخبركم أخبار الامجاد الخوالد ، وترفقوا في سيركم ، فان تحت كل حجر تاريخ بطولة ، وفي ظلال كل دوحة قصة حب ، وفي خرير كل ساقية قصيدة لا تنفد قوافيها .

وجولوا فيها لا تزورا هذه البني المتراكبة ، ولكن ادخلوا تلك الصحون الرحاب التي تتفجر في بركها المياه ، وترقص في رياضها الازهار ، وتسبّح على أشجارها الاطيار ، وتتعانق في سمائها الدوالي ، على حين تتعانق من تحت ، أساطين القاعات تحمل أروع ما خلف الماضي من ثمرات العبقرية ، وبدائع الصنائع ، ومعجزات الفنون .

وسلوا عن الأسر التي كانت تعيش فيها عيش الصفاء والهناء ، يجمعها الحب ، ويؤلف بينها الخلق ، وعن تلك العشايا المونقات ، ومجالس الأسرة فيها : الجد والجدة ، والاب والام ، والعمة والعم ، والاولاد عشرات ، ولا خلاف ولا نزاع ولا خصام . رحمة الله على تلك الايام .

وزوروا في دمشق معاهد المجد ، وشاهدوا آثار العز ، وجوزوا بمرابع الحب ، واستخبروها تخبركم عن أولئك الاقوام الذين شرعوا للناس شرعة الرحمة في السلم وفي الحرب ، وحاربوا فما ظلموا ، وغلبوا فما طغوا ، وكانوا يداوون الجرحى من عدوهم ، ويرحمون المرأة والطفل ، والشيخ العاجز ، والعابد المتبتل . وغيرهم يحارب فيدمر بالقنبلة الذرية مدينة بأسرها .

يا ضيوف دمشق من دعاة الرحمة والخير والاحسان ...

أهلا بكم .

* * *

منجم ذهب

قرأت امس أنهم كشفوا المنجم الهائل الذي كان يمد بالذهب نبي الله سليمان ، مَن سخر الله له الانس والجن والشياطين مصفدين ..

... فتمنيت لو أنهم كشفوا المنجم الذي كان يمد بالرجال تاريخنا وبالابطال ، من لدن (محمد) و (علي) الى (محمد علي) حتى نجد الرجل الذي يحيي بهذا المال الجزيرة العربية ، كما أحيا محمد علي بعبقريته وعزيمته مصر ، ويكتب لها تاريخها الحديث كما كتبت مصر تاريخها ، ويجعلها بهذا الذهب الاصفر ، وبذلك الذهب الاسود [1] قطرا كله عمران وحياة ، ومعاهد ومدارس ، ومعامل ومصانع ، حتى تكون كل قرية في بوادي نجد ، واودية الحجاز (الظهران) التي شادها الامريكان ..

وسألت الله أن لا يضيع هذا المال كما ضاعت من قبل أضعاف أضعافه ، حين كانت تجبى الى الخليفة ثمرات الارض ، وخيرات السماء ، وحين كان يقول للسحابة : أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ، وحين كان الذهب يحمل الى بغداد سرة الارض ودرة الدنيا ، على ظهور الابل ، وفي بطون السفن ، كأنه من هوانه الحطب ، فكان الخليفة يعجب بشعر الشاعر فيقول : (أعطوه عن كل بيت من القصيدة ألف درهم) . ويطرب لغناء المغني فيقول : (املأوا فاه جوهرا) : وتهزه الاريحية ، ويحركه الكرم ، فيوزع في لحظة ما يجبى من فقراء قطر كامل ومساكينه

---

(١) البترول .

في سنة ، ويصنع مثل ذلك أولاده وحاشيته ، يبـــددون أموال الله في (الصيد) وفي (اللهو) وفيما يغضب الله ويرضي الشيطان .. لا يسأل الخليفة أحد" : ماذا صنعت ؟ ولا يقول له عن مال أنفقه : فيم أنفقت ؟

فكانت النتيجة أن ضاع المال ، ثم باد الملك ، ثم صار سادة الدنيا عبيداً في ديارهم ...

فأين اليوم ذلك الذهب ؟ لقد ذهب ...

ماذا ينفع الذهب ان لم يحسن استغلاله ؟ هذه منارات الجوامع في العراق وقبابها من صفائح الذهب ، الذهب الحقيقي ... فماذا أفادت ؟

ان الذهب ان وضع في البناء صار حجراً مثل الحجر ، وان شري به السم كان سماً ، وان اشتري به الغذاء كان غذاء !

فيارب : اجعل هذا الذهب عدة للعرب وذخراً ، وأعد لهم به أخلاق الصحراء ، ومجد الآباء .

* * *

اطفـال

كنت اطالع امس في غرفتي فسمعت حوارا بين ابنتي الصغرى (بيان) وعمرها اربع سنوات وبين امها :

قالت البنت :

ـ ماما • في غرفة بابا ضبع !

ـ قالت لها : ضبع ! ؟

ـ قالت : اي والله ، تحت كومة المجلات •

ـ قالت : حرام الكذب يا بنت •

ـ قالت : والله والله في غرفة بابا ضبع !

ـ قالت : بس [1] يا بنت لا تكذبي •

فبكت البنت وهرعت الي تستشهدني فضحكت وقلت لأمها :

ـ سليها ما هو حجم الضبع الذي رأته وما لونه ؟

ـ قالت : هو أسود بقدر الاصبع •

فغضبت الام وقالت لي :

ـ كيف تقول ان الاطفال لا يكذبون وهذه البنت تكذب وتصر على الكذب ؟

ـ قلت : انها لم تكذب ولكنها رأت صرصورا فظنت الصرصور ضبعاً ••

ـ قالت: عمرها أربع سنوات ولا تفرق بين الضبع والصرصور ؟!

ـ قلت : اني اعرف كبارا لا يفرقون بينهما ، كبارا محترمين لبثوا سنين يغنون ويصوتون مثل الصراصير وهم يحسبون أنفسهم ضباعاً ، اذا هجموا على فلسطين فتكوا بالصهيونيين ، ويظنون أعداءهم صراصير

---

(١) بس فصيحة معربة من قديم •

وهم ضباع ، ويقاتلون بمحلول الدالين (د.د.ت) حيث يجب القتال بالرصاص . ويضعون الرصاص في موضع الدالين .

وفي مصر ظن (الضباع) الحاكمون أن حزب الوفد[1] صار أمةمن الصراصير ، فلما كانت الانتخابات تبين أن الوفد هم الضباع .

وفي الشام (أحزاب) مافيها الا صراصير يغنون ، والناس يحسبونهم أحزاباً من الضباع .

وفي كل صورة من حياتنا شواهد على اننا لا نفرق بين الضباع والصراصير .

فلا تلومي هذه البنت فانها ليست وحدها الطفلة ، ان كثيرين من زعمائنا لا يزالون مع الاسف أطفالا !

* * *

(1) كلمات هذا الكتاب كتبت قبل عشر سنين .

اربعـــة !

كنت راكباً أمس في سيارة اجرة يقودها شاب متين البناء ، مشدود العضل ، بادي النشاط ، فاعترضه في الطريق الذي يمرمن وراءالسباهية ويفضي الى باب الجابية (كميون) يجره ثلاثة بغال ، والرابع يمشي على رجلين ، وبيده سوط طويل ، أطول منه شاربان معقوفـان يصلان الى رموش عينيه ، وأطول من الاثنين : لسان لا يهدأ لحظة ولا يسكن ، ولا يتحرك الا بسب الدين والعرض ، ولعن الآباء والامهات ، بصوت يعج عجيجاً ، ويضج ضجيجاً ، ويخرج من فمه هداراً خشناً ، كأنه بردى في زيادته ، وهو ينحدر عكراً ، يحمل الوحل والطين و ... الاقذار !

ووقفنا ننتظر أن تمشي البغال (الاربعة ..) وتجر الكميون فلا الكميون تحرك ، ولا اللسان سكن ، ولا الطريق انفتح ، ومرت ربـع ساعة ونحن نرقب على مثل حر النار ، والسائق ساكت فقلت له : كلمه!

فزمر ومد رأسه من شباك السيارة وقال له بلهجة مهذبة :

ـ افتح لنا الطريق .

فانفتل وأقبل علينا ، وصب هذا السيل القذر من فيه على السائق ، ولعن السيارات ومن جاء بها ، وهدده بأنه سيكسر راسه ، ويخمـد أنفاسه ، ويمزق لحمه ، ويسحق عظمـه ، وأمثال هـذه التهديدات الـ (كيشوتية) .

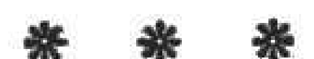
وهجم علينا هجوم أبي حية النميري يتبختر ويهز سوطه !

حتى اذا كاد يصل الى السيارة فتح السائق الباب ونزل اليه وقال له : اذهب فجر الكميون وافتح الطريق .

فلم يذهب ولكنه ازداد غروراً وبذاءة ، ورفع يده ليضرب السائق، فلم يكن من السائق الا أن لكمه تحت ذقنه لكمة من يد رياضي مدرب ألقته على الارض ، وهمّ بأخرى ، فانقلبت ضراوة الرجل ضعفاً ومذلة ، وراح يخضع ويخشع ، ويسأل العفو ، ويطلب الرحمة ...

وقام صاغراً صامتاً فجر (رفقاءه) الثلاثة وفتح الطريق ...

وأنا أنشر هذه الصورة بلا تعليق .



جزاء الوالدين

اني ما رأيت اما وابنها في المحكمة ، تسأله نصف ليرة في اليوم تأكل بها خبزها ، وهو يضن بها عليها ، ويزويها عنها ، ثم ينفق المئات من الليرات على نفسه ، أو على عرسه ، ينعمون وتشقى الأم ، ويسكنون القصور ولا تجد الكوخ ، ويأكلون الاطايب ولاتشبع الخبز ، ويلبسون الحرير ولا تصل الى (الخام) ٠ وما رأيت أباً وولده ، واقفين موقف المتقاضيين ، الا قرأت في وقفتهما أبشع قصة للؤم والنذالةوالجحود٠٠

تحمل الام وليدها تسعة أشهر في بطنها ، تحويه بين أحشائها ، وتغذيه من دمائها ، حتى يكون منها كأحد أعضائها ، ثم تضعه كرهاً عنها ينتزع منها انتزاع روحها من بين جنبيها ، فاذا برز للدنيا ذهب بمرآه ما آلمها وما أشقاها ، وضمته الى صدرها فنسيت به دنياها ، وأعطته ثديها ليمتص حياتها فيقوى بضعفها ، ويسمن بهزالها ، ثم عاشت به وله: ان ابتسم رأت الدنيا قد بسمت لها ، والاماني قد واتتها ، وان بكى سوّد بكاؤه عيشها ، وان مرض هجرت له منامها ، ونسيت طعامها ، ترعاهحتى يصح ، وان صح أهملت طعامها ومنامها ، تحرسه كيلا يمرض ، تحرم نفسها لتعطيه ، وتجوع بطنها لتشبعه ، وتعري جسدها لتكسوه ٠٠٠

ويكد الاب ليريح ولده ، ويشقى ليسعده ، لا يعمل الا له ، ولا يجمع المال الا ليغنيه ، ولا يجد في الدنيا مكافأة أكبر من أن يعود من شغله محطما مهدما ، فيجد طفله يرقبه يناديه : بابا ، ويهرع اليه ، ويلقي

بنفسه عليه ، فيغيب في ذهلة لذة ، تنسيه تعبه ونصبه ، وترجع اليه نشاطه ، كأن يداً سحرية مرت على قلبه ، فصبت فيه القوة والامل والشباب .

ويرقبه هو والام ، فلا يزيد عمره يوماً حتى ينقص عمرهما شهراً ، ولا يدنو من الشباب حتى يبتعدا عن الشباب ، ولا يصيب القوة حتى يصيبهما الضعف ، فان بلغ أشده ، واكتمل وصار شاباً شديداً أيّدا ، كان جزاؤهما منه النكران والهجران وان يؤثر عليهما لذة نفسه ، ومرضاة عرسه ؟

أيربي الرجل كلباً فيفي له ؟ ويحسن الى حمار فلا يرفسه ؟ ويلقي لقمة الى قط فيعرفه من بعد فلا يعضه ؟ ويفني الأبوان نفسيهما ويبذلان للولد روحيهما ، فيعرض عنهما ، أو يعدو عليهما .

لا والله ، ليس على ظهر الارض مجرم أشد لؤماً ، وأخس نفساً ، وأولى بالمهانة وأبعد عن الانسانية ، وأحق بلعنة الله والناس : من ولد يسيء الى امه أو يغضب أباه !



معصرة

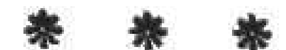
كنت أسير في (دوما) قصبة الغوطة الشرقية ، فرأيت شارعها الاعظم يمضي مستقيماً سوياً ، حتى اذا جاوز ثلثيها انحرف ذات اليمين ، وما ثمة مسجد يخشى عليه الهدم ، حتى ينحرف لأجله الشارع ، ولا أثر قيّم، ولا صخرة قائمة ، فعجبت وسألت صاحبي الذي كان يمشي معي ٠

فقال : كان هنا في سالف الدهر معصرة لوجيه من الوجهاء لم يقدر على هدمها ، فلوى الشارع من أجلها !

فقلت : هذه هي مصيبتنا ! ولو أنها معصرة واحدة لاحتملت ولكنا كلما خططنا في الحياة طريقا مستقيما اعترضنا (معصرة) لوجيه من الوجهاء ٠ فكم من (معصرة) في طريق القوانين والنظم ، وفي طريق العدالة والقضاء ؟

هل خلا طريق لنا من (معصرة) ؟

فمتى تهدم هذه المعاصر ؟



في جامع التـوبة

حدثني صديق فقال :

كان في جوارنا شاب قد جمع الله فيه كل ما فرقه في شرار الناس ، فهو فارغ الرأس من العلم ، خالي القلب من الدين ، بعيد اللسان عـن التهذيب ، له يد تسرق ويد تطعن ، وهو جاهل فاسق بذيء لص مجرم ، وهو بعد ذلك يشرب الخمر ، و (يستعمل) الحشيش ، و (يؤذي) النساء ••• وهو لو كان يعلم أن من شعائر دين ابليس غير هذا ، لمـا تخلى عنه ، ولكنه لجهله وقف هنا •

وكان معرة الحي ، ومصيبة الحارة ، ضرب فلم ينفعه الضرب ، وحبس فلم يفده الحبس ، ونالته أنواع العقوبات فلم تزده العقوبات الا فسادا، فلم يجد جيرانه سبيلا للخلاص منه الا شراء داره بضعف ثمنها وطرده من الحي •

ومرت سنون ضربتني فيها أمواج الحياة ، فانغمست في لجتها حتى نسيت هذا الشاب الشاطر [1] ، ولم يعد يخطر لي على بال • حتى كان أمس، وكنت في جامع (كذا) ، فرأيت شابا متعمما له لحية خفيفة ، يصلي صلاة خشوع وتبتل ، لا صلاة رياء وتصنع ، ولمحت في وجهه سمات أعرفها ، فطفقت أكد ذهني لأتذكر أين رأيت هذا الرجل ، فلا أذكر ، حتى انقضت صلاته ، فانفتل وحف به طائفة من الشباب ، وفتحوا كتبآ وراحوا يقرؤون عليه ، فدنوت فاذا هو يقرأ (القطر) ، ويشرحه ويعرب شواهده ، كأحسن معلم أديب ، فسألت من هذا ، فما بقي في المسجد

---

(١) الشاطر هو الذي أعيا أهله من خبثه .

أحد الا أثنى على دينه وخلقه وأمانته وعفة يده ، وانه لا يتناول هديـة ولا مالاً ، ولا يتاجر بعلمه ودينه ، وسموه لي ، فلما سمعت اسمه كدت أصعق من دهشتي وشككت في سمعي وبصري ، ورجعت أتأمله : لقد كان صاحبي الشاب الشاطر !

وسألت ما حاله ، وما هذه المعجزة التي قلبته وأثرت فيه ما لم تؤثره العقوبات والضرب والحبس ؟

فاذا القصة كلها انه صادف مصادفة الشيخ (فلانا) وراءه جماعة ، فتبعهم حتى دخلوا جامع التوبة ، فدخل معهم ، وسمع كلام الشيخ ، فوقع في قلبه وأحبه ، وتجرأ فدنا منه ونفض اليه قصته ، وحدثه حديثه ، وصار من ذلك اليوم من جماعة الشيخ وصارت حاله كما ترى ..

هذا ما حدثني به الصديق أرويه بلا تعليق .

* * *

دواء الهجـران

« من وحي رمضان »

وقع مرة بيني وبين صديق لي ما قد يقع مثله بين الاصدقاء ، فأعرض عني وأعرضت عنه ، ونأى بجنبه ونأيت بجنبي ، ومشى بيننا أولاد الحلال بالصلح ، فنقلوا مني اليه ومنه الي ، فحولوا الصديقين ـ ببركة سعيهما الى عدوين ، وانقطع ما كان بيني وبينه ، وكان بيننا مودة ثلاثين سنة .

وطالت القطيعة وثقلت علي ، ففكرت يوما في ساعة رحمانية وأزمعت أمرا . ذهبت اليه فطرقت بابه ، فلما رأتني زوجه كذبت بصرها ، ولما دخلت تنبئه كذب سمعه ، وخرج الي مشدوها فما لبثته حتى حييته بأطيب تحية كنت أحييه ايام الوداد بها ، واضطر فحياني بمثلها ، ودعاني فدخلت ولم أدعه في حيرته ، فقلت له ضاحكا :

ـ لقد جئت اصالحك !

وذكرنا ما كان وما صار ، وقال وقلت ، وعاتبني وعاتبته ، ونفضنا بالعتاب الغبار عن مودتنا ، فعادت كما كانت ، وعدنا اليها كما كنا .

وأنا أعتقد أن ثلاثة أرباع المختلفين لو صنع أحدهما مـا صنعت لذهب الخلاف ، ورجع الأئتلاف ، وان زيارة كريمة قد تمحو عداوة بين اخوين كانت تؤدي بهما الى المحاكم والسجون ، وقبلة صادقة على الشفتين ، تعيد الحب بين زوجين ، كانا من الشقاق ، على أبواب الطلاق والفراق ، وكلمة جميلة تنقذ شريكين أشرفت شركتهما من خلافهما على الانحلال والزوال .

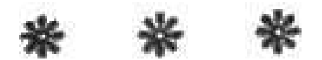
أي والله ، وفي كل نفس شيطان وحيوان وملك ، فالشر من الشيطان ،

والشهوة من الحيوان ، والخير والفضيلة من الملك ، ومن مزايا الصيام الحق ، انه يكبح في النفس الشهوة ويكبت الشر ، ويهيء السبيل الى الخير ، باقلال الموانع منه ، وزيادة الدوافع اليه . فلماذا لا تغتنمون مزايا رمضان ، يا أيها الصائمون ، فتحاربون التباغض بينكم والخلاف والهجران ؟ ولماذا لا يقرأ أحدكم هذه الكلمة فيسرع الى زوجه التي خرج في الصباح مهاجراً لها ساخطاً عليها ـ يحمل اليها هدية في اليد ، وابتسامة على الوجه ، ويتلقاها بعناق الحب ، وتقبيل الاشتياق ؟ ويهرع الى صديقه الذي طالما قاطعه وحاربه ، حتى اتسعت بينهما مسافة الخلف وظنا أن لا لقاء ـ يلقاه بالوجه الطلق وبالسلام ، ويذكره أيام الوداد والصفاء ، حتى يعود الماضي كما كان ؟

ان رمضان أيها الاخوان ، شهر الخير والاحسان ، لا شهر الجوع والحرمان ، وان الامر لا يكلفكم الا عزيمة صادقة ، وخطوة ثابتة فلا ترددوا ، ان تردد لحظة يضيع سعادة دهر ، ولا تدعوا الشيطان أو الحيوان يغلب في نفوسكم الملك .

انها والله خطوة واحدة تصلون بها الى انس الحب ، ومتعة الود ، وتسترجعون بها الزوجة المهاجرة ، والصديق المخالف .

فلا ترددوا !.....



كــواء

مرض الكوّاء الذي يكوي لي ، فسألت عن غيره فدلوني على آخر ، له مكان واسع ، وعلى بابه لوحة ضخمة ، وعلى شفتيه ابتسامة لا تفارقهما ، فهما دائمتا الانفراج ، كأن قد انحلت عضلاتهما فلا ينطبقان ، وفي فيه لسان رطب لين طويل كأنه الثعبان ، فخدعني مظهره ، حتى دفعت اليه حلتي الجديدة التي ألبسها في المواسم ، وأتجمل بها في المجامع ، ووصيته أن يكويها لي كياً فقط ، وألا يغسلها ، وان يبعث بها اليّ في غد ، فقال:

ـ أمرك يا سيدي ، على عيني وراسي (بدنا خدمة) !...

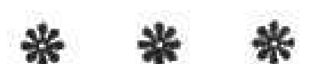
وانصرفت آمنا مطمئناً ، وجاء الغد ولم ترسل ، ومر يوم ثان وثالث ، وسابع وثامن ، وانصرمت عشرة أيام والحلة عنده ، وأنا أستحثه فيقابلني بهذا الفم الباسم أبداً ، وهذا اللسان الدافيء دائماً ، ويبتدع لي كل يوم عذراً جديداً ، وكان آخر أعذاره اشتغاله بموت أبيه الذي علمت فيما بعد أنه مر على وفاته (رحمه الله على هذه الخلفة الطاهرة ..) تسع سنين !

وأرسلت لي الحلة بعد ستة عشر يوماً ، فاذا هو قد غسلها ، فأفسد حشوتها ، وخرق أزياقها ، وجعل لها رائحة مثل رائحة الخنازير البرية ، ذلك لأنه غسلها بصابون رديء استرخصه ، وحك أطرافها بالحجر الذي تنظف به الاقدام في الحمام ...

فحرت ماذا أصنع به ؟ وهل يرد عليّ انتقامي منه حلتي التي خسرتها؟ وكيف السبيل الى اجتناب السقوط في مثل هذه الحفرة مرة اخرى ؟ انها مصيبة لا دفع لها ، ولا خلاص منها . وكيف أعرف ان هــذا الكواء ما هر في صناعته ، وهذا الخياط الذي أدفع اليه قماشي وهــذا

الحلاق الذي اسلمه رأسي ، ما دام كل واحد من النـاس يستطيع أن يشتغل بالصناعة التي يريدها ، ولو لم يكن من أهلها ، ولو لم يكن على علم بهـا ؟

لقد كان في الشام في الايام الماضية لكل صناعة شيخ ، فكان فيهـا شيخ الحدادين وشيخ النجارين وشيخ السـروجية وشيخ البساتنة ، فلا يقدر عامل أن يشتغل بصناعة حتى يأذن له شيخها ، وان أخطأ بعد أو أساء كان الشيخ كفيلَه ـ فصارت الدنيا حرية ••• والسمان الذي تبور تجارته يعمل كواء ، ويكتب على بابه لوحة كبيرة بأنه يكوي على البخار•• والخضري يشتغل نجارا وسائق السيارة يفتح محلا للتنجيد •• وتجيء فتسلمه عملك ، وتأتمنه عليه فيفسده لك •• فما العمل ؟ لست أدري !



على دار الزعيم(١)

لما وصلت بنا (سيارة المهاجرين) صباح اليوم الى دار حسني الزعيم نبهني صـوت عجوز عامي أبيض الرأس واللحية يقول وكأنه يخاطب نفسه ، أو يفكر بلسانه : (لكان هادا بيت الزعيم ! الله !!)

كلمة أطلقها على سجيته ، وأخرجها من قلبه ، فأحسست انها وقعت في حبة قلبي وقدحت زناد ذهني ، ورفعتني الى عالم من عوالم الفكر ، ودنيا غير دنيا الناس ففكرت ...

فكرت في هـذا البيت الذي كان سرة البلد ومطمح النظر ، ورغبة الامل ، ورجـاء الراجي ، تحميه الجند أن يتمكن منه البصر وتعصمه الدبابات عن أن يدنو منه السائر ، وكان ربه الآمر الناهي، يرفع ويضع ، ويقرب ويبعد ، من رضي عنه حكمه في رقاب النـاس واعطاه الاموال والرتب ، ومن غضب عليه استله ليلا من وسط أهله فألقى به في ظلماء مرعبة من مطابق المزة ، لايقول له أحد : ماذا فعلت ؟! القوة معه والمال ، ومعه (الوجهاء ..) الذين هم مع كل حاكم ..

فذهب في ليلة ما فيها ضوء من قمر ، وقتل كما يقتل الاسد الكاسر فلا يعرف له قبر ، ولا يدري له مزار ، وأصبح الصباح واذا الدنيا غير الدنيا ، والناس غير النـاس ، واذا الصحة والمال والسطوة والجبروت أحاديث يتسلى بها في المجالس .

هذه داره صارت فرجة للسالكين وملعبـا للاطفال ، وهاتيك (دار

---

(١) صدرت هذه الكلمة صباح ١٩٤٩/١٢/١٩ بعد الانقلاب الثـالث بدقائق ، وهذا من عجائب المصادفات .

العفيف) كانت (قصر الملك) ثم صارت (منزل المفوض السامي) الذي جعلته باريز آلها في الشام (لا اله الا الله) يعطي ويمنع ، ويحكم ويشرع ، ويحيي ويميت ، فأين هو اليوم ؟ لقد غدا خبرا من الاخبار وعادت داره خالية خاوية لا يقف على بابها أحـد وقد كان بابها من قبل كأنه لعبيد الدنيا باب الكعبة عند عباد الله !

وأين جمال باشا الذي كان يرعبنا والله اسمه ونحن صغار كأنا سمعنا اسم الضبع ، وأين من بعـده كوله واوليفا روجه وكل طاغية متكبر ، ومتسلط متجبر ؟!

مضوا وهاتيك آثارهم ، صارت قصورهم لغيرهم ، بنوا وما سكنوا ليسكن ساكن ما بنى ، وأملوا ولم يصلوا ليصل واصل بلا أمل ، والدهر دولاب يدور والايام دول تدول ما يعلو أحد الا بهبوط ثان ، وما يهبط أحد الا بعلو آخر ، ولو بقيت لمن قبلنا ما وصلت الينا ، ولذة الصعود لا تعدل ألم الهبوط ، وحلاوة الحكم لا تساوي مرارة العزل ، ثم انها لذة يسيرة وراءها حساب عسير !

هـذي هي الدنيـا ولكنا نرى ولا نبصر ، ونسمع ولا نتعظ ، نرى الناس يموتون فننساهم ونقبل على الحياة كأنا لا نموت ، ونمر بالقبور فنعرض عنها كأنا لن ننزل يوما فيها ، نرى الهاوين عن الكراسي وتتزاحم عليها كأنها ستدوم لنا ، تغرنا الصحة ويا طالما مرض صحيح ، ويخدعنا المال وما أكثر ما افتقر غني ، ويطغينا السلطان وننسى ان كل وال ميت أو معزول .

نأمل البقاء ، والدوحة مهما سمت تيبس ، والبناء مهما عظم ينهدم ، والحي مهما عاش يموت وكل شيء الى زوال ، ولا يبقى الا الله .

فيا أيهـا المتزاحمون على الوزارات ، قفوا لحظة عند دار الزعيم وفكروا ..

* * *

اقتصـــاد

نادى وزير الدفاع البريطاني قومه ، وناشـــدهم الله والوطن ، أن يزيدوا في صبرهم ، وتقشفهم ، واحتمالهم شدة الايام ، وشظف العيش ، لأنهم مقبلون على أيام سود شداد .

هذا وبريطانيا لا تزال تعيش الى اليوم على بطاقات التموين ، ولا تزال تحياه حياة الحرب ، وقد انقضى على انتهاء الحرب ست سنين ، وملك بريطانيا لا يستطيع أن يقيم حفلة كبيرة في قصره ، لأن مخصصاته لا تحتمل نفقاتها ، ووزراء بريطانيا يلبسون ما يترفع عن لبسه موظفو المرتبة السابعة في بلادنا ..

... وبريطانيا ذات الحول والطول ، والعدة والعديد ، والبـأس الشديد ، فماذا تقول نحن يا ناس ؟

ماذا نقول : ونحن مهددون بالنار ، تشتعل في ديارنا ، نار الحرب ، ينفخ فيها على الحدود أعداء الله اليهود ؟

ونحن ننفق أموالنا في الكماليات ، فيما لا ينفعنا ولا يفيدنا ، نأخذه ونعطي به ثمرات أرضنا ، وحصـــاد بلادنا ، ونحن ندفع ثروتنـــا ثمنا لسيارات الترف ، ولعب الاولاد ، وأحمر الشفاه ، وهـــذا السم الذي نخرب به أجسادنا وأرواحنـــا : الشمبانيا والوسكي والكونيـــاك ، والبارود ، الذي ندمر به أخلاقنا وبيوتنا : الافلام الداعرة والارتستات.

ماذا نقول ، ونحن نعطيهم مالنا بهذا ، فيأخذونه ويعطونه اليهود ليشتروا به السلاح الذي يحاربوننا به ؟

ونحن غارقون الى آذاننا في السرف والترف والرفاه والنعيم ؟

ومنا من ينفق ثمن معطف لامرأته خمسة آلاف ليرة ، ومن يصرف على حفلة زواج ابنته ألفي ليرة ، ومن يبدد في (ليلته) ثلاثة آلاف ليرة ؟

حدثني الاستاذ جمال المحاسب أنه كان يقيم لما كان في (جنيف) في ضاحية اسمها ـ نسيت اسمها ـ مع رفيق له في الجامعة ، معدود من الاغنياء ، وكان على باب الرفيق سيارة فخمة ، ولكنه يذهب الى المدرسة على دراجة عتيقة ، فسأله ، فقال :

ـ انه ليس في بلادنا (بنزين) واننا نستورده من الخارج ، لذلك أوفر السيارة اقتصاداً في البنزين ، وحفظاً لمكانة الفرنك السويسري .

وأكد لي الاخ جمال ، أن سوريا تصرف من البنزين أضعاف ما تصرفه سويسرة ، التي استطاعت على صغرها ، احلال نقدها المحل الاول بين أصناف النقد في العالم .

فلماذا لا نأخذ عن الغرب هذه الدروس النافعة ، دروس الرجولة ، والاقتصاد ، والعلم ؟ لماذا لا نأخذ الا الاختلاط والفساد وما يشكون هم منه ، ويتمنون زواله ؟

أنا لا أفهم كثيراً في الاقتصاد ، ومع ذلك فأنا أدرك بفهمي القليل ، أن الأمة التي تشتري أكثر مما تبيع ، وتستورد أكثر مما تصدر ، ولا يكون لها برنامج اقتصادي ثابت ، يكون مصيرها الافلاس .

***

بائعة اليانصيب

هذه كلمة أحس أنها تغلي في صدري وتضطرم ، وانني اذا لم أنطق بها انفزرت[1] وانفجرت ، فاعفوا عني هذه المرة اذا أنا خلطت عملي في الجريدة بعملي في المحكمة ، ومسست بقلم الادب صحائف القضاء .

هي يا سادتي قصة تلك الفتاة التي بهرت أنظار النـاس لمـا دخلت وشدهتهم وكادت تفسد علي هيبة المجلس ، وروعة القضاء ، لولا أني أظهرت غلظتي ــ ولا مؤاخــذة ــ في اللحظة المناسبة ، حتى انكمشت المسكينة ولا ذنب لها ، ودخل بعضها في بعض ، واغضى الناس وكفوا ، وقلوبهم معلقة بهذا الجمال النادر .

وتبين من حديث الفتاة ــ بنت السابعة عشرة ــ أن أباها بخل عنها وطمع فيها ، فبعثها تتكسب ، فلم تجد الا بيع أوراق الـ (يا نصيب) . فذهبت الى المتعهد فوضعت بين يديه شبابها وبهاءها وعفافها ليصرفهـا هي وعشرات من أمثالها ، كما كان يصرف المالك جواريه ، كأن هــذه الحضارة ما الغت الرق الذي كان ، الا لتأتي برق شر منه وأخزى ، لأن مالك الجواري كان يتصرف بهن لنفسه ، وهذا (المتعهد) يبعث بامائه وجواريه ، يحملن جمالهن وعفـافهن ، (ولا يختارهن الملعون الا من ذوات الجمال) ، ليدرن بهما على المقاهي والملاهي ، وعلى السكارى في الخمارات ، والفساق في المواخير ، يتحملن منهم النظـرات الدنسة ، والكلمات النجسة ، واللمسات والغمزات ، وما هو أدهى من ذلك ... ليبعن عشر تذاكر ، يذهب أكثر ثمنها الى كيس المتعهد ، وأقله للخير

(١) الكلمة من العامي الفصيح .

والاحسان الذي أنشيء (قالوا •••) اليانصيب من من أجله ، ولا ينال البنات من هذه المائدة الا الفتات ••••••

ودافعت البنت عن عفافها دفاع الحمل عن لحمه أمام الذئاب ، حتى كلت قواها ، وارتخت يداها ، فألقت بثمرتها بين براثن الذئب الاكبر ، الذي اسمه المتعهد ، ثم تعاورتها من ذئاب البارات والسينمات والطرقات، وصارت (كذا •••) ، وهي بنت سبع عشرة ، ولولا اليانصيب : لكانت ربة أكرم بيت !

وغضبت لهذه المسكينة ، ولعنت الاب الذي ألقى بها في هذه النار ، ولعنت المتعهد ولعنت اليانصيب ومن اخترعه •••

على انها ليست قصة هذه البنت وحدها ، وانما هي قصة كل فتاة تبيع الـ (يا نصيب) ؟ انها أثر من آثار كساد الزواج ، ورواج الفساد ؟

ولست أدري من أين آتي أنا بالكلمات لأفهم هؤلاء الآباء ، أي خطر يحيق بهم ، وأي عاصفة عاتية مدمرة : تقبل عليهم ، وستصل اليهم اذا تركوا في بيوتهم ، بنتا واحدة بلا زواج ، ولم يزوجوها ؟

بأي لغة يفهمون ؟ وبأي يمين يصدقون ؟ اننا ان بقينا على ما نحن عليه : أوشك أن يلج الفساد كل دار ، ويصيب كل فتاة ، ويصم بالعار أعلى جبهة في البلد ؟

فأين من يهتم بهذا ؟ أين من يغار على أعراض البنات ؟

أين يا ناس ••• أين ••••؟

***

اغنـــام

رأيت اليوم شيئا جديدا ، ما كنت أظن أن مثله يكون في دمشق : رأيت قرب وزارة العدلية بنتا (صبية) على دراجة ، تسوقها بسرعة ، وكلما حركت رجلها ، انحسر الثوب القصير عن فخذها ، فبدت كلها ، فما سرت الا خطوات ، حتى أبصرت فتاة أخرى وثالثة ، واذا هنالك دكان فيها شاب يؤجر الدراجات للبنات . فوقفت لحظة ، أرقبه من بعيد ، والبنات من حوله ، وقد قام خلاف بينه وبين احداهن على الاجـرة ، وأرادت أن تذهب ، فقـام يشد بيدها ، ويدفع في (صدرها) ، حتى يدخلها الدكان ، ليأخذ منهـا (الفرنكين) اللذين بقيا له عنـدها .. ونظرت اليه ، فاذا هو شـاب في أوائل الشباب ، يكاد يتفجر شهوة ، ويلتهب شبابا ، وصور لي الوهم ، أني لا أرى أمامي الا ذئبا ضاريا ، حوله قطيع من الغنم ، يغريه لحمها الطري بأكلها ، ولا تستطيع أن تدفعه عنها بظفر ولا ناب ، ففكرت متعجبا ......

ــ أما لهذه (الاغنام) من أرباب ؟ أما لهؤلاء البنـات من آباء ؟ أما في البلد من يكف عن النـاس شر الذئاب ، ويحمي الأطفـال من لصوص الأعراض ؟

انها حادثة تافهة ، ولكنها تجر وراءها حوادث عظاما ، انهـا شرارة صغيرة ، ولكنها توقد نارا ، انها بداية خطر جديد على الاخلاق ، فاخنقوه في مهده ، قبل أن يشب ويقوى ، ويصير شيطانا بسبعة قرون .

يا مدير الشرطة الى شهامتك ونخوتك وحزمك وعزمك أوجه هذا المقـال .

* * *

هكذا قال زرادشت !

عجيب أمر هؤلاء « الرجعيين » : كلما رأوا جديداً راحوا ينكرونه ، ويغضبون منه ، ويقيمون الدنيـا عليه ، ويرون المسألة الجنسية ماثلة فيه ...

هذي جرائدهم ، راحت تنكر أمس على اثنين من موظفي معارف لبنان ، أنهما أحبـا أن يتوثقا من صحة البنـات اللائي يطلبن أن يكن معلمات ، وانه ليس في أجسادهن علة خفية تسترها الثياب ، فكلفاهن أن يخلعن ثيابهن كلها حتى .. آخر قطعة منها ، ويظهرن أمامهما كمـا ولدتهن امهاتهن ... وتطلب هذي الجرائد من الوزير طردهما وعقابهما ، ولو انصفت لطلبت شكرهما وترفيعهما ، لأن العصر عصر تقدم ، ولأن الروح الرياضية والنهضة النسـائية ، والفكرة (التقدمية) ، كل ذلك يوجب عليهما أن يصنعا ما صنعا ، ولكن هذه الجرائد ، تريد أن ينشأ فتياتنا ضعيفات خاملات حتى يغلبنا اليهود ......

وان هذين الموظفين المحترمين ، ما قصدا فيما فعلاه الا المصلحـة العامة ، ولم يكن يخطر على بالهما أبداً ... خاطر جنسي ، وهما ينظران الى الفتيـات ينزعن ثيـابهن قطعة قطعة ــ كمـا فعلت ريتا هيوارث (كنة آغا خان) مـرة ــ ويخطرن أمامهما عاريات عـاريات عاريات ! لا ... لا يمكن أبداً أن يخطـر على بال واحـد منهما تلك العـاطفة الجنسية ، ومن يقول أن ذلك ممكن فهو رجعي ، وهو غير تقدمي ...

والذين يشاهدون الفتيات يلعبن بكرة السلة ويقفزن باديات الافخاذ ، راقصات النهود ، لا يمكن أن يخطر على بالهم أبداً تلك العاطفة الجنسية ،

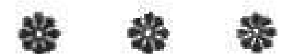
ومن يقول ان ذلك ممكن فهو رجعي ، وهو غير تقدمي ......

والذين شاهدوا (تلك) الحفلة التي اقيمت للمغتربين ، ورقص فيها البنات (المختارات) والشبان رقص السماح ، وغنين الموشحات الاندلسية ، لا يمكن أن يخطر على بالهم أبداً ، تلك العاطفة الجنسية ، ومن يقول ان ذلك ممكن فهو رجعي ، وهو غير تقدمي ...

وكذلك الحال في مظاهر الاختلاط كلها : في السينما ، وفي الرحلات المدرسية ، وفي الاسواق ، وفي كل مكان ، حتى الذين يراقصون السيدات والاوانس ، وتكون الصدور الى الصدور ، والافخاذ على الافخاذ ، لا يمكن أن يخطر على بالهم أبداً تلك العاطفة الجنسية ، ومن يقول ان ذلك ممكن فهو رجعي ، وهو غير تقدمي ...

ان اليهود على الابواب ، وان الطريق الوحيد الى الانتصار على اليهود ، هو أن (تشلح) المعلمات في وزارة المعارف اللبنانية ، وتلعب اللاعبات أمام المشاهدين ، وترقص الطالبات أمام المغتربين والمقيمين ، واننا ان منعنا شيئاً من ذلك فقد عملنا لحساب اليهود ...

ومن شك في هذه الحقيقة ، فهو (أيضاً) : رجعي وغير تقدمي ...
هكذا قال زرادشت !



انتبهوا ...

يا أهل الشام انتبهوا ! انتبهوا يا ناس !

انه بلغ من هوان الاعراض في هـذا البلد ، ومن تحكم الشهوة ، ومن ضعف الدين والاخلاق ، أن صار نساؤنا يتخطفن من الطرقات ...

لا ... لست أروي حديث الجاهلية ، وأخبار بوادي تهامة ، وقفار اليمامة ، أيام كان الصبايا يؤخـذن في الحروب سبـايا ، ولكن أروي ما وقع البارحة ، في شارع بغداد !

أما قرأتم في جريدة (الايام) أمس ؟

فهل تبقون نائمين ، والنار تسري الى بيوتكم ؟ تمتد ألسنتها الحمراء الى أعراضكم ؟ هل تلبثون معرضين ، وهـذه النذر تتوالى عليـكم ؟ والاحـداث تتعاقب من حولكم ؟ ألا تعتبرون بغيركم قبـل أن يعتبر غيركم بكم ؟

لقد كتبت في هذا حتى مللت من نفسي مما ابدىء القول واعيده عليكم ، وقلت كلاما ، لو نزل على قلوب نحتت من جلمد الصخر لأثر فيها هذا الكلام ، ولكن هذا الكلام لم يؤثر فيكم ؛ فماذا أقول لكم ؟

كيف افهمكم أيها الناس ، ان الاخلاق في خطر ؟ وانها ان استمرت هذه الحال لم تبق في البلد بنت شـريفة ؟ نعم ... نعم ... هكذا ، لا تعجبوا من قولي ، ولكن اعجبوا من سـكوتكم ، ولا تلوموني على صراحتي ، ولكن لوموا نفوسكم على غفلتكم ؟ اني أصـور ما كان ، فمن رأى صورته على غير ما يريد ، فلا يعتب على المصور !

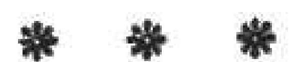
يا أهل الشام ، اعملوا قبـل أن يأتي يوم لا ينفع فيه العمل ، يوم

تعضون فيه الانامل من الندم ، تقولون يا ليت انا عملنا ! يا أهل الشام ! انهـا والله ان لم تؤلف في كل حي لجنة من أهل المروءات لبحث هـذا الداء ، ولجان من الطلاب ومن النساء ، وان لم تهتم الجمعيات والصحف بدرس أسبابه ، وتعرّف مصادره ، واعداد علاجه ، وأن يحمل كل قارىء هذا العدد من (النصر) ، فيقرأه على أهله وأصحابه وجيرانه ، وان لم تعن الحكومة بهذا الامر ، وتبذل فيه الوسع من مالها وسلطانها ...

... ان لم يكن هـذا ، فليأتين عليـكم يوم قريب ، تخطف فيه البنات ، من المنازل والمدارس ومن الترام ومن كل مكان ، وسنعود الى عهود الهمجية الاولى ، وسنرجع كالبهائم ، لا قائد لنـا الا غرائزنا ، ولا دليل الا شهواتنا ، وسينصرف الشباب عن الزواج ، فينقطع النسل ويخلو من آساده الغيل .

ويصير الوطن قاعا مباحا لكل طامع فيه ، ليس له من يذب عنه أو يحميه !

فيا أهل الشام ! الله ، الله ، في أعراضكم ، وفي أخـلاقكم ، وفي كرامة أوطانكم ، يا أهل الشام !



شحـادون

مررت اليوم على (شحادة) قاعـدة في (القنوات) مستندة الى الحائط ، وأمامها ثلاثة أولاد نائمون على بساط قذر ، لا يبدو منهم الا شعر رؤوسهم ، وهي (تسأل) : كل غـاد ورائح تشير الى الاولاد ، وتحلف انهم مرضى وانهم جيـاع ..

.. فلم أكد أبتعد عنهـا ، وأدخل تحت القناطر حتى سمعت من ناحيتها صوتا ، فنظرت اليها من حيث لا تراني ، فرأيتها تلتفت حولها ، حتى اذا رأت الطريق خاليـا ، قامت ، ووثب الاولاد ، فأعطتهم شيئا ، أخذوه وأقبلوا على القناطر عدوا ، وذهبت هي من جهة الشـارع . فعجبت منهم ، وتأملتهم لمـا وصلوا الي ، فاذا هم ، أقوياء ، أصحاء ، حمر الوجوه ، نواضر الاجسام ، ما خالطتهم علة ، ولا داخلهم مرض ، فدعوت أكبرهم ، فأقبل فزعا ، ووقف أمامي ، مظهرا التذلل ، متكلفا الضعف ، ومد يده يسأل (حسنة من مال الله لهذا الفقير الجوعان ..)

فذهبت أسأله عن هذه المرأة وصلته بها ، وهو يدع الجواب ويعكف على (السؤال) ، فقلت له :

ــ بَس بلا قلة أدب ، جاوب على سؤالي تأخذ نصف ليرة ، واذا سكت أو كذبت ضربتك كفين وأخذتك الى المخفر .

فطمع بالمال ، وفزع من الضرب ومن الشرطة وحـدثني ...... فعلمت ان المرأة ليست امه ولا الولدان اخويه ، وانما تستأجره من أبيه الظالم القاسي ، كما تستأجرهما من أبويهما بليرة في اليوم ، وتضطرهم

اضطرارا الى أن يبقوا (نائمين ...) أمامهـا ست ساعات على أرض الشارع ، لا تدعهم يتحركون فيهـا ولا ينهضون ولا يفتحون عيونهم فينظرون ، ووصف ما يلقى من هذه الضجعة ، فاذا هو عذاب أخف منه ما تقرأ من أخبار التعذيب في القرون الوسطى .

وأعطيته ما وعدته ، وسرت أفكر في هـذا العدوان على الطفولة البريئة ، التي لا تستطيع أن تحمي نفسها ، ولا تجد من يحميها ، فمـا وصلت الى أول شارع جمال باشا ، حتى وجدت العبد الاسود ، الذي يرابط هناك أبدا ، فكلما مر أحد ، قفز الى وجهه فجأة ، ورفع كتفا ، وخفض كتفا ، وأحنى رأسه ، حتى يستقر تحت أنف المار يسأله .... وفي رأس سوق الحميدية وجدت هذا السائل الجديد ، الذي لا أدري من أين هبط دمشق ، واقفا على عادته أمام العمود بعمامته البيضاء !... وجبته !... عاقدا يديه على صدره ، مبتسما ابتسامة بلهاء ، لا ينطق بحرف فما دخلت السوق ، حتى أقبل علي هذا (الشحاد) الغليظ صاحب العطر ، وهو رجل قوي صحيح ، يستطيع أن يجر محراثا ، ولكنه لم يؤثر من الاعمال الا أن يفاجئك فيمسح يدك أو ثوبك بعطره الشنيع ... على رغم أنفك ، ليأخذ منك شيئا ......

ولحقني بعده هذا الشحاد العجيب ، الذي يتعلق بالمار ويصيح به : (مشا الله ، مشا الله مشان النبي) يكررها ألف مرة ، وهو يمشي معه ، لا ينصرف بالسب ، ولا بالضرب ولا بالرفس ، ولا بالنطح ، ولا يستطيع شيء في الدنيا أن يصرفه ......

وفي أول المسكية ، وجدت مريضـا ، مفلوجا مسكينا ، يرتجف ، ويسيل لعابه ، وهو يتمسك بكل مجتاز . وعلى باب الاموي ، عشرون شحادا ، لكل واحـد طريقة مبتكرة ، وفي كل حي شحادون آخرون ، لهم طرائق غير هذه ، حتى صارت الكدية (الشحادة) : صناعة فنية ،

لها اصولها وقواعدها ، وتجارة واسعة ، لها أسواقها وأرباحها . ونحن لا نبالي أن تشتمل مدينتنا على هذا الخزي ، وتحمل هذا العار ، بل ان فينا من لا يزال يعطي هؤلاء المكدين (الشحادين) المحترفين ، ويحسب انه يصنع خيرا ، لا يا أيها الناس : ان الصدقة ليست لهؤلاء ، ان الصدقة للفقراء المستورين ، الذين يستحون أن يسألوا الناس ، أمّا هؤلاء فلا تعطوهم ، لئلا تشجعوهم على هذا الخزي الذي لا يرضـــاه الشرع ، ولا يجيزه القانون ، ولا يقره العرف ، ولا تسيغه كرامة الانسان !



صورة من حيـاة موظف

كان مرتبه الشهري أمامه ، قد ألقاه على المكتب القاء : ثلاث قطع من ذوات المئة وقطعة بخمس ليرات ممزقة بالية قد علاها الدهن والوسخ وكسور من الفرنكات ..... وكان في يده ورقة يدون عليها حسابه ، حتى اذا فرغ نظر فيها ، وفرز الورقات الثلاث ، ليوزعها على اللحـام والخباز والخضري والسمان ، ووضع الباقي في جيبه . ولم يحس لقبض الراتب مسـرة ، ولم يشعر للانفاق بألم ، بل كان يعمل ذلك بلا فكر كدأبه في كل شهر . يقبض الراتب فيوفي الديون كلها ، ثم يرجع فيستدين على الراتب الجديد ، وان نقص منه شيء ، استقرضه أمـلا بسلفة أو منحة أو رزق غيبي غير محتسب ، وكانت هذه الحكاية تتكرر كل شهر ، كما تتكرر أيامه كلها متشابهة مملة ، يصبح فلا ينتظر جديدا في النهار ، ويمسي فلا ينتظر جديداً في الصباح ، فهو يصحو كل يوم ، فيقوم من الفراش متكاسلا ، لا يسوقه شيء الى الاسراع ، لأنه موظف ، والدوام وان كان له موعد معين ، لكن هـذا الموعد لا يحدد الا في البـلاغات والاوامر ، ولا يفكر أحـد في تنفيذه ، ولا يلقى المراجع قبـل الساعة التاسعة موظفاً واحداً من كل مئة موظف على كرسي عمله ، ثم انه رئيس دائرة صغيرة في (قضاء) بعيد لا يسأله أحـد ان غاب أو حضر ، ولا يجيئه المفتش كل سنة مرة ، وان هو جاء فما أكثر الاعذار التي يعتذر بها ، وأيسرها عليه ادعـاء المرض ، وابراز تقرير من صـديقه الطبيب الرسمي بأنه مصاب بالتهاب القصبات الحـاد ، ويحتاج الى الـراحة والتداوي ثلاثة أيام ......

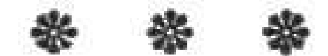
ويتردد نصف ساعة بين مبارحة الفراش أو البقاء فيه ، ثم يؤثر النهوض فينزل من سريره ، ويمشي الى المغسلة ـ ولم يكن يصلي ولا يعرف الصلاة وان كان معتقداً مؤمناً لا يميل الى شيوعية ولا زندقة ولا الحاد ، ثم يأكل ما يأكله كل يوم بلا شهية ولا رغبة ، ثم يلبس ويمضي الى عمله متباطئاً ، فيرمي بنفسه على الكرسي ، فان فاجأه صاحب معاملة ينتظر من الصباح ، زجره وصاح به : ما تنتظر ! شو ها القلة الذوق ؟

ويقرع الجرس ، فيطلب القهوة والجريدة ، ويدعو الكاتب ليعرض عليه الاوراق ليوقعها ، والكاتب هو الذي يشتغل كل شيء ، وان كان خطأ كان الكاتب المسئول عنه ، وعمله هو أن يذيل الاوراق بامضائه الكريم ، ويشرب القهوة والدخان ، ويستقبل أصدقاءه حتى يمل ، فيقوم ويوصي الكاتب بأن يبقى الى آخر الدوام . ويذهب الى داره فيأكل وينام ، ويخرج العشية ليمشي في الشارع ، الذي يمشي فيه كل يوم ذاهباً وآيباً مئة مرة ، ويرى الوجوه التي يراها كل يوم ، القائمقام والحاكم ومدير المال والطبيب يلعب معهم الطاولة ، ويسمع الى أحاديثهم التي تعاد كل يوم ، حتى يكون موعد النوم ، فينام لينهض فيعيد الرواية ......

هذه صورة من حياة أكثر الموظفين ، حياة ليس فيها (حياة) ولا حماسة ولا اهتمام بشيء ، ولا سعي الى غاية ، الا السعي الى قبض الراتب في آخر كل شهر ، والسعي الى التقاعد ثم الى القبر ......

وهذه هي الحياة التي لا يقبل الشباب الا عليها ، ولا يرغبون الا فيها ، ولا يتعلمون الا التعليم الذي يوصلهم اليها .

ونريد بعد ذلك أن نكون أمة يقظة ومغامرة ومكافحة !!!



ابو حازم وعبد الملك

في سنن (الدارمي[1]) :

مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة ، فأقام بها أياماً فقال :

ــ هل بالمدينة رجل أدرك أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟

قالوا له : أبو حازم .

فأرسل اليه ، فلما دخل عليه ، قال له : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء ؟

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ، وأي جفاء رأيت مني ؟

قال : أتاني وجوه المدينة ولم تأتني !

قال : يا أمير المؤمنين ، اعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ان الجفاء بين الاصحاب ، وما عرفتني قبل هذا اليوم ، ولا أنا رأيتك .

فالتفت سليمان الى محمد بن شهاب الزهري ، وقال : أصاب الشيخ وأخطأت أنا .

ــ قال سليمان : يا أبا حازم ، مالنا نكره الموت ؟

ــ قال : لأنكم خربتم الآخرة ، وعمرتم الدنيا ، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب .

ــ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غداً على الله ؟

ــ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

فبكي سليمان ، وقال : ليت شعري ما لنا عند الله ؟

---

(١) الجزء الاول صفحة ١٥٥ طبع الاستاذ دهمان .

ـ قال : اعرض عملك على كتاب الله .
ـ قال : في أي مكان من كتاب الله أجده ؟
ـ قال : « ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم » ..
ـ قال سليمان : فأينَ رحمة الله ؟
ـ قال : قريب من المحسنين .
ـ قال : أيُ الاعمال أفضل ؟
ـ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .
ـ قال : أيُ الصدقة أقبل ؟
ـ قال : جهد المقل ليس فيه منٌ ولا أذى .
ـ قال : فأي القول أعدل ؟
ـ قال : قول الحق عند مَن تخافه أو ترجوه .
ـ قال : أيُ الناس أعقل ؟
ـ قال : رجل عمل الخير ودل الناس عليه .
ـ قال : فأيهم أجهل ؟
ـ قال : مَن جارى أخاه في هواه وهوَ ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .
ـ قال : أصبت ، فما تقول فيما نحن فيه ؟
ـ قال : يا أمير المؤمنين ، أوَتعفيني ؟
ـ قال سليمان : لا ، ولكن نصيحة تلقيها الي .
ـ قال : يا أمير المؤمنين ، ان آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة عن غير مشورة من المسلمين ولا رضا ، ثم ارتحلوا ، فلو سمعت ما قالوه وما قيل لهم لعلمت .

فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم .
ـ قال له : كذبت ، ان الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

ـ قال سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟

ـ قال : تدعون الكبر ، وتتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسوية .

ـ قال : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟

ـ قال : أعوذ بالله ، أخشى أن أركن اليكم قليلا ، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات .

ـ قال سليمان : ارفع الينا حوائجك .

ـ قال : تنجيني من النار وتدخلني الجنة .

ـ قال : ليس ذلك اليّ .

ـ قال : مالي حاجة غيرها .

ـ قال : ادع لي .

ـ قال : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وان كان عدوك فخذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

* * *

ولما خرج اليه ، بعث بجائزة سنية فردها ، وكتب اليه : ان كان هذا المال عوضاً لما نصحتك فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل منه ، وان كان لحق لي في بيت المال ، فلي فيه شركاء ، فان ساويت بيننا والا فليس لي به حاجة .

* * *

عزلة القـاضي

حدثنا مرة الشيخ زين العابدين التونسي : ان القـاضي في تونس لا يخرج من داره الا الى المسجد أو الى المحكمة ، يمشي أمامه حاجب ووراءه حاجب ، يمنعان الناس أن يكلمه أحد منهم أو أن يدنوا منه .

وعجب السامعون وضحكوا ....

أمّا أنا فلم أعجب ولم أضحك بل رأيت ، ان كل قاض في الدنيـا ينبغي له أن يكون كقاضي تونس ، لا يختلط بالنـاس ولا يعاشرهم ، ولا يدخلهم بيته ولا يدخل بيوتهم ، وأن يمنعه منهم حـزمه وجـده وصرامته ان لم يسر معه حاجبان يمنعانه !

والا فكيف يصحب القاضي الناس ويخالطهم ، ويدعوهم ، ويقبل الدعوات منهم ، ويكون معهم في محافلهم ومجالسهم وقهواتهم ونزهاتهم، ويسقط ستار الكلفة بينه وبين الكثير منهم ، ثم يستطيع أن يقضي بينهم؟

وكيف (بالله) يقدر أن يعدل بين الخصمين ، ويسوي بينهم في وجهه ومجلسه وحكمه ، ان كان أحدهما صفيه وسميره وموضع سره ، ورفيق نهاره وليله وجـده وهزله ؟ والآخر غريب عنه لا يعرفه ، وكيف ينظر اليهما بعين واحدة ؟ ويخاطبهما بلسان واحد ؟ ويكون موقعهما من قلبه واحـدا ؟

فلا يطالب الناس القاضي بأن يكون اجتماعيـا يستقبل كل قادم ، ولو كان الامير أو الوزير ، ويودع كل راحـل ، ويهنىء بكل نعمة ، ويعزي بكل مصيبة ، ويعود المرضى ، ويشيع الجنـائز ، ويغشى كل مكان ينافق للرؤساء ، ويلاطف النساء ، ويجامل الاصدقاء ، ويدخـل

أماكن الريب ، ويشرب محرم الشراب ، ويأتي منكر الأعمال ، فانه انْ فعل ذلك لم يكن قاضيا ، ولم يجز له أن يعلو قوسا ، أو يتصدر مجلس حكم ...

ولا يرقبوا من القاضي أن يكون لطيفاً ظريفا رقيقا ناعما ، فان هذه كلها من صفات المدح ما لم يوصف بها القاضي .

فان وصف بها القاضي ، لم تكن له الا نعوت ذم !

وليس يضر القاضي انْ أرضى الله أنْ يغضب عليه الناس كلهم !.

* * *

مـزعجات السينما

قال لي :

ـ انك تكتب عن كل شيء ، وتعالج كل موضوع ، فلماذا لا تكتب عن مزعجات السينما . عن الذي يقعد وراءك ، ينقر بحذائه على ظهر مقعدك ، يوقع برجله الانغام التي يسمعها باذنه ، والذي يقرأ الترجمة جهراً ، كأنه تلميذ يهجي درسه ، ثم يشرحها لجاره . والذي يعـرف القصة فيتطوع بروايتها لك ، والذي يأكل بذور البطيخ ، ويلقي قشورها عليك ، لا في سينما غازي أو النصر بل في (الدنيا) و (دمشق) ، والذي ينفخ دخان سيكارته (دخينته) في وجهك ، وهو يرى اللوحات من كل جانب تنادي : ان التدخين في القاعة ممنوع . والذي حرمه الله الذوق والتهذيب ، وخلقه حماراً على صورة بني آدم ، فهـو لا يفتأ يبزق على الارض ، ولا يزال الواقت كله بـ (اخ ـ تفه) ـ قبحه الله .

والشبـاب الذين يظنـون ان السينما لهم وحـدهم ، فيتحدثون بالاصوات الجهيرة ، ويلقون النكات البـاردة ، والالفاظ القبيحة على مسمع ممن هنـالك من النساء ، ويضحكون ضحكات كأنهـا ضجيج (موتور سيكل) من طراز سنة ١٩٢٩ .

والعـاشق الهيمان الذي تضيق به الارض فلا تطيب له (الخـلوة الصحيحة ..) الا في السينما ، فيتأبط فتاته ... وينتحي بها ناحية من القاعة ، فلا ينطفيء الضوء حتى ينسيا السينما وأهلها ، والدنيا وما فيها وينطلقان يتناجيان ، ويتناغيان ويتشاكيـان ، ويتباكيان ، وتضـاغط

الاكف ، وتتراص الافخاذ ، وتتعالى الزفرات ، وتتالى الأهات ••••••
ويكون ما لا نعرفه لا نحن ولا أنتم !

والأم تجر ولداً ، وتحمل ولداً ، فيصيح هـذا ، ويبكي هـذا ، ويجاوبه بالبكاء طفل ثان من يمين القاعة وثالث من شمالها ، وتعلو هذه (الاوركسترا) حتى تغطي على أنغام الفلم ، وتجعل السينما كأنها ردهة دار التوليد ، والذي يجيء لا ليرى الفلم ، بل ليرى (رائيات ••) الفلم، فلا يزال دائر الرأس ، زائغ البصر ، يأكل بعينيه كل جميلة يراها ، والذي يضحك في الموقف المحزن ، والذي يصرخ كالثور كلما ظهر على اللوحة مشهد غرام ••••••

لماذا لا تكتب عن هذا وأمثاله ـ وما أكثر أمثاله !

ـ قلت : سأكتب يوما من الايام !!!

***

اقتراح

دخلت دار صـــديق لي موظف ، من عمله تسجيل عقود الـزواج وحضور حفلاتها ، فوجدت في الدار ، خزانة كبيرة ملؤها علب الملبس من زجاجية وخزفية وخشبية ومعدنية ، من مستديرة ومنبسطة ومربعة ومثلثة ، وملساء ومحفورة ومزوقة ومنقوشة ، من كل شكل وكل جنس ، أرخصها بليرة ، وفيها علب من الفضة عليها اسما الزوجين وتاريخ العقد ، ثمنها أكثر من عشر ليرات ، فوقفت أنظر اليها وأفكر : كم ينفق في دمشق كل سنة في أثمان هذه العلب ؟

فرأيت أنه ان كان يعقد في دمشق مئة عقد في السنة (وهذا أقل من الواقع) ، وكان في كل عقد مئة مدعو (وهذا هو الحد الادنى) ، فانه يصرف في كل حفلة مئة ليرة ثمن العلب ، ان كانت من العلب الرخيصة . فان كانت من العلب الغالية أو كان المدعوون مئتين أو ثلاثمئة ، صرف في علب الملبس خمسمئة ليرة في الحفلة الواحدة ....

فلو أنها ألفت جمعية لحمل النـاس على توزيع الملبس في قراطيس وأوراق ، وأخـذ ثمن العلب لانفاقها في مساعدة الفقراء ، أو في بناء المستشفيات ، أو في عمل آخر من أعمـال الخير ، ولم تشتغل الا بهذا الامر وحده ، لاستطاعت أن تجمع من هذا الباب أكثر من ثلاثين ألف ليرة في السنة ، فكيف ان أنشئت جمعيات أخرى لتدفع غيره من وجوه التبذير التي ألفها الناس ، وتعودوا اضاعة الاموال الكثيرة فيهـا ، مع أن الفقراء في أشد الحاجة الى بعض هذه الاموال ، كطاقات الزهر التي تهدى في الاعراس ، وينفق فيهـا من مئة الى خمسمئة في كل عرس ،

فان كان يقام في دمشق مئة عرس في السنة (والواقع أكثر بكثير) ، فيكون ما ينفق في البلد كل سنة ثمن هذه الازهار التي تلقى بعد أيام على المزابل ، من عشرة آلاف ليرة الى خمسين ألفا ! وأكاليل الجنائز وكفوف الآس ، وعشرات من أمثالها لا عشرة واحدة ، لو أن ما ينفق فيها جمعته أيد أمينة ، وأنفقته في جهات صالحة ، لصارت دمشق في عشر سنين فقط جنة في الارض ، ولما بقي فيها فقير ولا جاهل ولا مريض ٠ لأن هذه الاموال تنشيء كل سنة عشرة مستشفيات وعشرة ملاجيء وعشر مدارس ٠٠

وليس بيننا وبين تحقيق هذا الحلم ، الا أن تتولاه جمعية من الجمعيات الخيرية الموثوق بأمانة رجالها ونشاطهم ، وتنقطع اليه ولا تشتغل الا به ٠ وتحشد لحمل الناس عليه ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب ، وتسلك اليه كل سبل الدعاية ، في الصحف والنشرات والاعلانات والاذاعات ٠٠

ولكن هيهات أن تتحقق في هذا البلد أحلام المصلحين !

* * *

الزوجة الثـانية

قابلت أمس صـديقاً لي ، فوجدته ضيق الصدر ، لَقِس النفس ، كأن به علة في جسده ، أو هماً في قلبه ، فسألته أن يكشف لي أمره ، فتأبى ساعة وتردد ، ثم قال لي : أنت الصديق لايكتم عنه ، واني مطلعك على سري ، ومستشيرك فيه : اني أريد الزواج .

ـ قلت : وما فعلت ربة دارك ، وأم أولادك ؟

ـ قال : هي على حالها .

ـ قلت : وهل أنكرت شيئاً من خلقها أو من دينها ، أو من طاعتها لك وميلها اليك ؟

ـ قال : لا والله !

ـ قلت : فلمَ اذن ؟

ـ قال : اني رجل أحب العصمة وأكره الفجور ، وقد ألفتُ زوجتي حتى ما أجد فيها ما يقنع نفسي عن أن تميل الى غيرها ، وبصري عن أن يشرد الى سواها ، وأطلت عشرتها حتى مللتها وذهبت في عيني فتنتها .

قلت : ما أقبح والله ما جزيتها به عن صحبتها واخلاصها ، وما أعجب أمرك تسمع صوت النفس ، وأنت تظنه صوت العقل ، وتتبع طريق الهوى ، وأنت تحسبه سبيل الصلاح ، وهذا من تلبيس ابليس ، ومن وساوسه ؟

وهل تحسب أن المرأة الجديدة ، تقنعك وتغنيك ، اذ أنت لم تقهر نفسك وتزجرها ؟ ان الجديدة تمر عليها الايام فتصير قديمة ، وتطول ألفتها فتصير مملولة ، وتستقري[1] جمالها فلا تجد فيها جمالا ، فتطلب

---

(١) الصواب تستقري بالياء لا تستقرىء بالهمزة .

ثالثة ، والثالثة تجر الى الرابعة ، ولو انك تزوجت مئة ولو انك قضيت العمر في زواج ، لوجدت نفسك تطلب امرأة أخرى ...

وهـــذي سير الملوك ، الذين كانت تحمل اليهم كل جميلة من كل بلد ، وكان في قصـــورهم آلاف الجواري من كل بيضـــاء ، وسمراء وســـوداء ، وعربية ، وتركية ، وكرجية ، وافرنجية ، من كل سن وكل لون ، وكل جنس وكل شكل ، فهل أشبع ذلك هوى نفوسهم ؟ وهل عصمتهم من أن يتطلع أحدهم الى المرأة الممنعة ، فيعشقها أو يهيم حباً بها ، ولا يرى لذته الا بقربها ؟

وهل الزواج ويحك لهذا (الامر) وحـــده ؟ فأين الوفاء ؟ وأين التذمم ؟ وأين حقوق المعاشرة ؟ وأين روابط الولد ؟ وهل تقوم الحياة على الحب وحده ؟

هل يمضي زوج عمره في تقبيل وعنـــاق ؟ ان لذلك لحظات وباقي العمر تعاون على الحيـــاة ، وتبادل في الرأي ، وسعي للطعام واللبـــاس وتربية للولد ، واسترجاع الماضي والاعداد للمستقبل .

وهل تظنك تسعد بين زوجتين ، وتعرف ان جمعتهما ما طعم الراحة ؟ وهل تحسب ان ولدك يبقى معك وقد عاديت أمه ، وصادقت غريبة جئت بها تشاركها دارها ومالها وزوجها ؟ فهل يرضيك أن تثير في أســـرتك حرباً تكون أنت أول ضحاياها ؟

لا يا صاحبي ، لقد تغير الزمان[1] ، وتبدل عرف النـــاس ، فعليك بزوجك ، عد اليها وانظر الى اخلاصها ، لا تنظر الى وجههـــا ولا الى جسمها ، فاني قرأت كتباً في تعريف الجمال كثيرة ، فلم أجد أصدق من تعريف طاغور : « ان الجمال هو الاخلاص » ولو ان (ملكة الجمال)

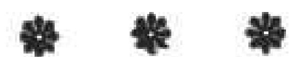
---

(1) وحكم الله في حل التعدد باقٍ ابداً ، ولكنه مبـــاح ليس واجباً ولا مندوباً .

خانتك وغدرت بك لرأيتها قبيحة في عينـــك ، ولو أخلصت لك زنجية سوداء ، كأن وجهها حذاء السهرة اللماع لرأيتها ملكة الجمال ...

وثق أن ما حدثتني به سيبقى ســراً بيننا لا أفشيه أبداً ، ولا أطلع عليه أحداً !!

وهل سمعت أن أديباً (أفشى) سراً ؟!



نعم . لقد هزمنا !

الى الاستاذ الذي كتب الي فلم أعرف اسمه ، ولكن نم أسلوبه على فضله :

نعم . لقد هزمنا في فلسطين ، ولكنها لم تنهزم فينا الا الأخلاق التي قبسناها من غيرنا ، وتركنا لها أخلاقنا ، ما هزم الا التردد والاختلاف ، والثرثرة والكلام الفارغ ، وايثار الزعماء مصالحهم على مصالح الامة ، واتخاذ الانكليز والاميركان أولياء . أما سلائق العروبة ، أما خلائق الاسلام ، أما الأرث الذي تركه محمد صلى الله عليه وسلم في عروقنا . معشر العرب ، وصبه في دمائنا ، فلم يهزم ولن يهزم أبداً .

وان لكل أمة أياماً لها ، وأياماً عليها ، وليس العار أن يغلب البطل ، ولكن العار أن يجزع من الغلب ويرضاه ، ولا يعاود الكفاح ، ولقد مر علينا في تاريخنا مصائب أشد هولاً ، لقد قامت في هذه البقعة من فلسطين دولة أقوى من هذه الدولة الكسيحة ، دولة زحفت اوربا كلها لتقيمها وتحميها ، فعاشت اكثر من مئة سنة فأين هي اليوم ؟

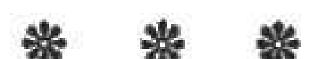
هدمها رجل واحد اسمه صلاح الدين ، فذهبت ... حتى أن اكثر القراء لم يكن يدري بها ، قبل أن يسمع مني الآن خبرها .

فلا تجزعوا كثيرا من ضياع فلسطين ، بل اجزعوا من المصيبة التي هي أكبر من ضياع فلسطين ، ومن ضياع بلاد العروبة كلها -لا أذن الله- أتدرون ما هي ؟ هي أن تخسروا ايمانكم بأنفسكم وماضيكم ، وان تفقدوا كبرياءكم ، وتنسوا عزتكم ، وتجهلوا مكانكم في هذه الدنيا .

تلك هي المصيبة حقاً ، ولن تكون أبداً ، ولئن داخل الضعف نفوسا

قد اكتهلت وشاخت في ظلام الماضي القريب ، فسيكون من هؤلاء الاطفال ، شعب نشأ في نور الاستقلال ، وستلهب دمه ذكريات عشرة آلاف معركة مظفرة ، خاضها الجدود ، وسيخرق صماخ أذنيه ، نداء عشرة آلاف بطل ، أنجبهم الجدود ، وستدفعه الى ميادين التضحية والبذل ، حتى يطهر أرض الوطن من اسرائيل ، ويغسل بالدم هذه الصفحة ، التي كتبها في تاريخنا التردد والتخاذل والانقسام ، وحتى يعيد مجد الماضي ، فيقرأ الطلاب في المدارس بعد حين ، خبر هذه الدولة التي قامت يوماً في فلسطين ، باسم دولة اسرائيل ، كما نقرأ نحن اليوم خبر الدولة التي أقامها من قبل جموع الصليبيين .

ومن شك في هذا : لم يكن عربياً ، ولم يكن مسلماً .



تلميذي البار

ليس شيء في بلاد الناس أسهل من الشراء : يدخل الرجل المخزن ، فيرى البضائع المعروضة ، وعليها أثمانها ، فيختار ما يشاء ، ويدفع الثمن ويمضي ، ولو جاء من بعده أمهر الناس ، ما استطاع أن يأخذ بثمن أقل ، ولو جاء أغفل الناس ، ما أعطي بثمن أكثر ...

أما الشراء في بلادنا فهو معركة ، تحتاج الى أسلحة شتى ، من الكذب ، والحيلة ، واليمين الكاذبة ، والكر والفر ، والذهاب والرجوع ، ومعرفة أجناس البضائع ، وتحتاج بعد ذلك الى مفاوضات دبلوماسية ، أصعب من المفاوضات التي لا نهاية لها بين الدوليين والشيوعيين في كورية .

لذلك عودت نفسي أن لا أقف على بائع ، ولا أشتري بنفسي شيئاً ، لا اللحم ولا الخضرة ولا الثياب ولا الاثاث ، وانما أبعث من يشتري لي ، واذا أنا خالفت عادتي ، واضطررت الى شراء شيء ، رجعت في كل مرة بقصة من أعجب القصص .

من ذلك ......

اني دخلت من أمد قريب دكاناً في سوق الحميدية ، مع صديق لي ، يحب أن يشتري قماشاً لأهله ، فتلقاني صاحب الدكان مُسَلِّماً ومعظماً ، وأهوى لتقبيل يدي ، لاني ــ كما يقول ــ أستاذه وصاحب الفضل عليه ... أهلا وسهلا بسيدنا يا مرحباً ، مَن علمني حرفاً كنت لهعبداً ... قل لي ماذا تأمر يا استاذ لأخدمك بعيوني ؟

ولم أكن آمر بشيء ، ولكن هذا المدح وهذا التعظيم ، وأن الرجل

سيخدمني بعيونه ، قد خدّر أعصابي ، كما يُخدّر صيادو الهند بعض الوحوش الكاسرة بأنغام الناي... والانسان مفطور على محبة الثناء... فنظرت فاخترت لوناً من الحرير أعجبني ، فسألته عن ثمنه ؟

فضحك وقال ، أي ثمن ؟ محلك يا أستاذ .

فحسبت أنه سيهدي الي ، وحلفت أني لا آخذ الا بالثمن . ولكن أطلب أن يبيعني بربح قليل .

ـ قال : برأس ماله .

وراح يحلف بذمته ودينه وأمانته وشرف آبائه وعظام أجداده . وما لا أذكر الآن من الأيمان أنه لا يبيعني الا برأس المال .

وكان في داري خمس نسوة وثلاث بنات . فشريت لهن جميعاً ، وبلغ الثمن قريباً من ثلث الراتب ...

... وذهبت الى الدار ، فقال النساء : بكم اشتريت ؟

ـ قلت : احزرن .

ـ قلن : بالله عليك الا ما قلت .

فأخبرتهن بأن الرجل تلميذي ، وقد خدمني بعيونه ، فباعني برأس المال وهو كذا .

ـ قلن : لقد زاد عليك ثلاثين في المئة .

ـ قلت : مستحيل .

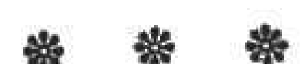
ـ قلن : ما قولك ان ذهبت فلانة الآن (لصديقة لهن) فجاءت بالقماش نفسه بحسم ثلاثين في المئة ؟

ـ قلت : أنا أدفع الثمن .

وذهبت من فورها الى الدكان التي اشتريت منها ، ورجعت بعـد ساعة ، وقد أخذته بثلثي الثمن الذي دفعته أنا ... لتلميذي البـار ، الذي حلف أنه لا يبيعني الا" برأس المال !

❊ ❊ ❊

ولا أكمل القصة ، ولا أريد أن أعلق عليها ، ولكن أؤكد للقراء بأني لم أزد فيهـا ، ولم أبالـغ ، وأن من لقيني وسألني دللته على هـذا : « التلميذ » !



ادب الاطفال

رأيت اليوم في يد صديق لنا ، من كبـار موظفي وزارة المعارف ، مجلة مدرسية فأخذتها من يده أرى ما فيها ، فوقع نظري أول ما وقع ، على قصة مصورة لرجل احتال على صاحب السينما ، ليدخل ولديه مجاناً ، فأخفاهما تحت معطفه ، فنظرت في اسم صاحبها ، هل هو مجنون افلت من (القصير) ، حتى يوجه الاطفال الى الغش والسرقة في المجلة ، التي ينشأ أمثالها للتوجيه الى الخير والأمانة ؟ فاذا على غلافها أسماء جماعة من المعلمين والتلاميذ ، واذا هذه المجلة وأمثالها توزع على التلاميـذ بالثمن الغالي ، من وراء ظهر وزارة المعارف ، ليقرؤوها في الصف ، فاذا خرجوا منه ، وأرادوا ان يقرؤوا شيئاً من (أدب الاطفال) ، لم يجدوا الا كتب الكيلاني ومجلـة السندبـاد ، وهي مملوءة بأخبـار الجن والعفاريت ، والفيران التي تتكلم ، والحمير التي تفهم ، والفيلة التي تطير ، وما يبعد الطفل عن الواقع ويدنيه من الجنون ، ويملأ رأسـه خيالات وأوهاماً . فاذا كبر التلميذ ذهب الى السينما ، أو قرأ المجلات الاسبوعية ، وروايات الجيب ، فلم ير في ذلك كله الا حكايات أرسين لوبين ، وأخبار العشق والغرام ، وما يضعف الخلق ، ويقوي الشهوات والمطامع . فاذا ترك المدرسة ، وذهب الى البيت ، وجد أمه تكذب على أبيه ، فتذهب الى السينما ، وتحلف له أنها كانت عند أختها . ووجد أباه ، يكذب على أمه ، فيقسم لها أنه تأخر في عمل ضروري ، وما تأخر الا في الملهى . وتسرق الأم من مصروف البيت ، لتنفق على ثيابها وزينتها ، ويضيق الأب على عياله ، لينفق على لهوه ومتعته ، ويختصم الوالدان كل يوم ،

ويتبادلان شر الشتائم ، وان كانت الأسرة كبيرة العدد ، كان فيها حزبان متعاديان ، يكيد كل للآخر ويدس عليه ، ويحاربه سراً وجهراً .

فجعلت أفكر في هؤلاء الاطفال المساكين ، كيف يكونون رجالاً صالحين ، ذوي ارادة وعزم ، وفهم للواقع ، وحب للاتحاد ، اذا كانت المجلات المدرسية التي تنشأ لتوجههم الى الخير والفضيلة ، انما توجههم الى الغش والاحتيال ، والكتب الادبية تبعدهم عن الحقائق وتقربهم من الاوهام ، والروايات المقروءة في الصحف والمرئيةفي السينما ، لا تعلمهم الا السرقة والضرب والقتل والاجرام ، وكانت المنازل مدارس للكذب والبذاءة والاختلاف والفساد ؟

ولماذا تعاقب المدرسة الكاذبين السارقين من الأولاد ؟ ويعاقب المجتمع المجرمين الجانين من الناس ؟ اذا كنا لا نربي الأطفال الا على الكذب والسرقة والعدوان ؟

* * *

هكذا فاصنعوا لهن

قدمت على عمر امرأة ، كأنما قد ركب بين كتفيها القمر ، يشع من عينيها السحر ، ويرشف من شفتيها الخمر ، ومعها شاب قد طال شعره ، وتشعث ، وركبته الاوساخ ، ولم يمسسه الماء ولا يد الحلاق منذشهور، وله لحية كشعر القنفذ ، وأظافر سود طوال تغشى من قذارتها عين رائيها، وعليه ثياب بالية ممزقة ، لا يعرف لها شكل ولا لون ، وتقتل برائحتها من بعد عشرة أمتار ...

ـ فقالت : يا أمير المؤمنين . هذا زوجي وابن عمي ، وأنا لا أريده، ففرق بيني وبينه .

ـ قال الرجل : زوجتي يا أمير المؤمنين وعرسي من شهرين اثنين ، لم ترفع معالم العرس ، حتى جاءت تسأل الطلاق من غير ذنب جنيته ، ولا حدث أحدثته .

ـ قالت : ما أساء الي ، ولكني لا أريده .

ـ قال عمر : تعالي غداً .

وأشار الى غلامه ، فذهب بالرجل الى الحلاق فأخذ من شعره ، والى الحمام فغسله وقص أظافره ، وألقى عنه هذه الاسمال البالية ، وألبسه ثيابا جديدة نظيفة ، وجاء به من الغد ، وقد خلق خلقاً جديداً ، وعاد رجلاً آخر ، وبدا شبابه وجماله وصحته ، فغضت المرأة بصرها عنه ، لأنها لم تعرفه ، فحسبته رجلاً غريباً فأومأ اليه عمر أن خذ بيدها، فلما مسها وثبت كاللبؤة الغضبى ، وتورّد من الحياء والغضب وجهها ،

ونترت[1] يدها منه وقالت :

ـ ابتمد أيها الفاسق ، أتهجم عليّ بين يدي أمير المؤمنين ؟

ـ فقال عمر : ويحك هذا زوجك .

فنظرت اليه محدقة كأنها لا تصدق عينيها ، وترددت لحظة ... ثم رمت بنفسها بين يديه وهي تبكي .

وانصرفا راضيين .

قال عمر : « هكذا فاصنعوا لهن ، انهن يحببن أن تتزينوا لهم . كما تحبون أن يتزين لكم » .

* * *

ولو أن هـذه البيوت التي خرّبها الخصام ، ونغّص عيش أهلها ، وشرد بنيها ، لو أن كل امرأة فيهـا ، لم تقابل زوجها الا مستعدة له استعدادها لمقابلة صديقاتها ، ولم تلقه بوجـه كالح ، وشعر منفوش ، وثياب وسخة ، تفوح منها روائح المطبخ ، ولو أن كل رجل ، لقي امرأته بمثل ما يلقى به أصحابه ، لم يقابلها بالشعر المشعث ، ولا بوجه عابس ، لعادت الحياة الزوجية مثل (شهر العسل) : كلها حب وود وسلام .



---

(1) النتر من العامي الفصيح

الزواج بالاجنبيات

كنت في زيارة أخ لنـا عاد من أمريكا ، فقدّم الينا امرأته التي عاد بها من هناك ، وآثرها على بنات الوطن ، فنظرت اليها ، فاذا هي ليست بذات جمـال ، وكلمتها فاذا هي ليست بذات ذكاء ، واذا هي امـرأة كالنساء ، فجعلت أفكر فيه : ما الذي أغراه بها ؟ حتى قطفها من منبتها، وزرعها في غير أرضها ، وقطع بها البحار ، وجاب القفار ، وسار بهـا نصف محيط الارض ، كأنما هي فتنة الدهر ، وكأن لها خفة (ريتاهيوارث) وصوت (أم كلثوم) ، وعقل (مادام كوري) ، وأدب (مي) ، وكأن سورية خلت من النساء ، فليس في كل بيت فتاة أو فتيات هن أجمل منها جمالا ، وأحدّ ذكاء ، وأحسن خلقاً ، وأحلى منطقاً .

ما هذه البدعة التي انتشرت في الشباب : لا يذهب أحدهم الى ديار القوم ، ليجيء بشهادة في يده ، الا جاء بامرأة تحت ابطه ، بامرأة غريبة عنا ، لا لسانها لساننا ، ولا عاداتها عاداتنا ، ولا هواها الوطني هوانا ، فزاد بها بنات الوطن كساداً ، وزاد الاخلاق بهذا الكساد فساداً ؟

وكيف نرد عنا كيد الفرنسيين ، والانكليز ، والاميركان ، والروس، وكل أمة تكيد لنا ، أو تطمع في بلادنا ، ان كانت بنات هذه الامم هن ربات بيوتنا ، وهن أمهات أولادنا ؟

وما للجمعيات النسائية التي ألفت للدفاع عن المرأة ، لا تدفع عنها الخطر الأجنبي ؟ وهل نضع القوانين الاقتصادية لنحمي منتجات بلادنا من مزاحمة المصنوعات الاجنبية ، ولا نسن القوانين الاجتماعية لحماية بناتنا من مزاحمة بنات الاجانب ؟

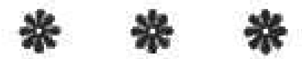
وما لنا لا نفهم الشباب أن أحسن نساء الأرض نساؤنا ، أي والله وأين مثلهن ؟

أين في غيرهن المـرأة التـي لا تعيش الا للـرجل تشقى ليسعد ، وتتعب ليستريح ، وتجوع ليشبع ، وتدع لذتها لضمان لذته ، وتذهب صحتها لحفظ صحته ، ان مرض تركت لتمريضه طعامها ومنامها ، وان أضاق باعت لأجله حليها وثيابها ، لا تنظر الى غيره ، وان نظر الى غيرها ، ولا تميل الى سواه ، وان مال الى سواها ، وتفي له ، وان خانها ، وتبقى على عهده وان حال عن عهدها ، ولا تترك بيتها واولادها ، وتفر مـع عاشقها ...

تعيش للرجل عمرها كله : لأبيها بنتا ، ولزوجها امرأة ، ولولدها أما ، فهي أبداً لأب أو بعل أو ولد .

يا شباب ! ان نساءنا جواهر ، فلا يصرفكم عن الجوهر الحر بريق الزجاج . وانها قد تعلو الجواهر الأوحال ، ويركبها الغبار ، ولكنهـا ان مسحت برفق ، ومست بلين ، عاد لها بهاؤها ورواؤها .

فلا ترموا جواهر بلادكم ، لتلتقطوا زجاج البلاد الاخرى !!!



الآن يا بنت ؟

الآن يا بنت ؟! الآن ... ؟! بعد ما سفح الماء ، واحترق العود ، ومزق (الغشاء) ؟ تكتبين الي بدم القلب ، ودمع العين ، تقولين :تعالوا يا عقلاء ، ويا مصلحون ، خبروني ماذا أصنع ؟ وهل يقدر أحد أن يرد الماء الذي اندلق ، والعود الذي احترق ، و (الغشاء) الذي انخرق ؟

وهل رجعت لبنت عذرتها ، بعدما فقدتها ، حتى تعودي عذراء كما كنت ؟ فلا تطلبي المحال فانّ الميت لا يعود ...

وانه قد بطل الخيار ، ولم يبق الا طريق واحد ، فانسي كل ماذكرت لي من شرف أسرتك وهوان عائلته ، وغنى آلك ، وفقر أهله ، وتوسلي اليه أن يتزوج بك ، فلعله قد بقي في قلبه شيء من شرف الرجل،وعاطفة الانسان فيصلح ما أفسد .

أمّا أهلك فانّ الأيام ستروضهم على الرضا بالواقع ، فيندمل مع الزمان الجرح ، وتذهب القطيعة ، ويطول بهم الفكر ، فيعلموا أنهم هم المذنبون ، وأنهم هم الذين ساقوك الى دكان الجزار ، وألقوا بك بين أنياب الذئاب عزلاء لا مخلب لك ولا ناب ، ولو أنهم نشّؤوك على عادات العروبة ، وآداب الاسلام ، لما كان الذي كان . واعلمي يا بنتي ان قصتك مع هذا الشاب ، زميلك في المدرسة قصة كل بنت حواء مع كل ابن آدم، يميل اليها ، وتميل اليه ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لكنه يريد منها غير ما تريد منه ، انها (وهي التي تحمل وتلد) تريد أن يكون لها أبداً وحدها ، كما تكون له أبداً وحده ، تريد حباً باقياً ، لأن آثاره باقية فيها تنتقل من الرغبة الى الأمومة ، وهو يريد أن يقطف الزهرة ، ويجني الثمرة،

ثم يوليها ظهره ، يبحث عن زهرة أبهى لونا ، وثمرة أشهى طعما ، فالحب عندها استغراق ودوام ، وهو عنده لذة ساعة ، ومتعة نهار ، ثم انهما اذا أخطآ معاً ، غفر المجتمع له خطيئته ، ولم يغفر لها خطيئتها أبداً .

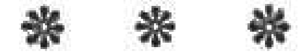
من هنا جاءت شكوى النساء من خيانة الرجال ، ومن هنا حرم الله، ومنع الشرف اقتراب الرجل من المرأة ، الا بعد أن تقيده بقيد الزواج ، لئلا يتبع فطرته وهواه ، فيقضي أربه منها ويهرب منها . ان هذه القيود انما كانت لمصلحة المرأة ، ولكن من النساء مَن يحاول الخروج عليها، والتخلص منها ، أفليس هذا عجيباً ؟

على أنك لو لم تشجعيه لما أقدم ، ولو لم تضعفي عنه لما قوي ولو تصونت عنه بالحجاب ، وتمنعت عنه بالخلق ، ولو أن كل بنت كانت تحمل عقلها دائماً في رأسها ، لا تنساه في قصة غرام ولا ديوان غزل ، ولا على مقاعد السينما ، وكرامتها بين عينيها ، وتعرف كيف ترد عنها كل شيطان انسي ، يبتغي العدوان عليها بالكلام ، إن كان ممن يفهم بالكلام، وبكعب الحذاء تخلعه وتنزل به على رأسه ، ان كان سفيهاً خبيثاً قليل الحياء ، لما فُجعت بعفافها فتاة .

فالأمر في أيديكن يا بنات ، وانّ أفسق الرجال وأجرأهم على الشر، يخنس ويبلس ويتوارى ، ان رأى أمامه فتاة مرفوعة الهامة ، ثابتة النظر، تمشي الى غايتها بجد وقوة وحزم ، لا تلتفت تلفت الخائف ، ولا تضطرب اضطراب الخجل ، ولا تميس ميسان مَن يقول : هأنذا فمن يريدني ؟

وبعد يا بنتي فلا تيأسي ، فما في الذنوب ذنب غير الشرك ، يضيق عنه عفو الله ، ولا في الوجود مذنب يرد عن بابه ان جاءه تائباً نادماً منيباً ، وان في عفو الله متسعاً لجميع العصاة **(قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً)** .

صدق الله العظيم



هذا هو البيـــان

رأيت تشرشل (مرة) في السينما ، وهو يخطب غـير محتفل ولا متحمس ، يكاد صوته لولا المكبر لا يسمع ، ويكاد يحسبه السامـع لولا المنبر يكلم نفسه ، أو ينطق في نومه ، فلما أتم جملته اندفع الآلاف الذين يستمعون له يصفقون ويهتفون ، حتى خلت أن السماء قد أرعدت، وأن الارض قد زلزلت ، وأن المكان قد انقض على أهله .

ولم أكن أفهم لسان الانكليز ، وأرى الله قد اختص بالفصاحـة والبيان العرب أولا ، والفرس رابعـاً ، وليس بينهمـا ثان ولا ثالث ، فقعدت متعجباً من حماقة القوم وطيشهم ، ماذا أثارهم من هذا الكلام الرخو الضعيف ، وكدت أضحك ساخراً منهم ، لولا أن قرأت علـى اللوحة ترجمة الجملة التي قالها ، فأحسَسْت أن بدني كله قد انتفض فجأة ، كما ينفض الثوب ، وأن شيئاً كالكهرباء مشى في أعصابي ، ثـم صعد الى قحف رأسي ، وأن القوة قـد صبت في مفاصلي وعضلاتي ، وأني أستطيع أن أصارع الأسد ، وأقحم الجدار ، وألوي الحـديد ، فعلمت حينئذ ماذا أثار القوم ! وفهمت أيُّ شيء حملت هذه الالفاظ القليلة ، وهذه اللهجة الرخوة ! حملت كلاما عظيما ، وأعظمُ ما استطاع أن يصنع البشرُ الكلامَ العظيم ، حملت كلاما من هذا الكلام الجبار ، الذي يبني دولا ويهدم دولا ، ويحول مجرى التاريخ ، ويتحكم فـي مصاير البشر ويصنع المعجزات .

الكلام الخالد الذي تفني القرون وتتبدل الدنيا ، هو باق بقـاء كلمات دموستين وهاني بعل (أنيبال) ، وخطب ابي بكر ، وعمر وعلي ،

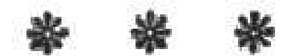
وطارق ، ونابليون ، وسعد ، وبريان ، وهتلر ، وموسوليني ، وأولئك اللسن المصاقع ، الذي فعلت كلماتهم ما لا تفعل الجيوش كـ (فيخته) الذي أنشأ المانيا الجديدة ، واقبال الذي أقام دولة الباكستان .

هذا ... وقد قرأت ترجمة الكلام ، ولم أقرأ الكلام في بهائه وروائه ، وروعة بيانه .

وقلت في نفسي لماذا لا نخطب مثلما يخطب تشرشل ؟ لماذا يصرخ خطيبنا حتى تتقطع حنجرته ، ويتحمس حتى يتفجر دمه ، ويقوم ويقعد، ويشير بيديه ورأسه حتى تخور قواه ، ثم لا يأتي منه بعد ذلك الا كلام فارغ ، مثل رأسه الفارغ ؟

الى متى نحسب أن الخطيب هو الذي يتكلم بصوت مرتفع ؟ لا ندري انه لا يكون الخطيب خطيباً حتى يقول هذا الكلام العظيم ، الذي يسحر بقوته ، ويُروى لبلاغته ، ويمحو من الرؤوس أفكاراً وعقائد، ويضع في الرؤوس عقائد وأفكاراً ، ويقول مثلما قال محمد صلى الله عليه وسلم للأنصار الثائرين : ألا يرضيكم أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا بمحمد الى رحالكم . وكما قال طارق للجند المترددين: العدو من أمامكم ، والبحر من ورائكم . وكما قال هتلر للالمان لما قام هتلر : ان الحلفاء أرادوا أن يذلوا ألمانيا فقيدوها بمعاهدة فرساي ، وأراد الله أن يعز ألمانيا ، فبعثني لأمزق قيود فرساي ....

متى نفرق بين الخطيب الحق ، وبين المجانين الذين يصعدون المنابر، ليزعقوا ويصرخوا صراخ المجانين ؟



خبر من السـيرة

في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ، قرأتـه ألف مرة ، ولكني ما انتبهت له الا اليوم ، هو أنه لما أراد الهجرة الى المدينة ، خلف علي بن أبي طالب ، ليرد الودائع التي كانت عنده الى أصحابها ! !

الودائع ٠٠٠؟

كيف كان رجال قريش يستودعونه أموالهم وتحفهم ، مع ما كان بينه وبينهم ؟

لقد كان بين محمد وبين قريش لون من ألوان العداء ، قلّ أن يكون له في شدته مثيل ، هو يسفّه دينهم ، ويسب آلهتهم ، ويدعوهـم الى ترك ما ألفوه ، وما كان عليه آباؤهم ، وهم يؤذونه في جسده وفي أهله وأصحابه ، شردوهم الى الحبشة أولا ، والى يثرب ثانياً ، وقاطعوهم مقاطعة شاملة ، وحبسوهم في الشّعب ثلاث سنين ٠٠٠

فكيف كانوا مع هذا كله يستودعونه أموالهم ؟

وكيف كان يحفظها لهم ؟

هل يمكن أن يستودع حزب الشعب مثلا أمواله رجلا من الحزب الوطني ؟ هل يأتمن الحزب الديموقراطي في أميركا مثلا عضواً في الحزب الجمهوري على وثائقه ؟

هل في الدنيا حزبان متنافران متناحران يودع أحدهما الآخر مايخاف عليه من الضياع ؟

هل في تواريخ الأمم كلها رجل واحد ، كانت له مثل هذه المنقبة ؟

رجل يبقى شريفاً أميناً في سلمه وفي حربه ، وفي بغضه وفي حبه ، ويكون مع أعداء حزبه ، مثله في شيعته وصحبه ؟ وتكون الامانة عنـــده فوق العواطف والمنافع والاغراض ، وتكون الثقة به حقيقة ثابتة ، يؤمن بها القريب والبعيد . والعدو والصديق ؟

انها حادثة غريبة جداً ، تدل على أن محمداً كان في أخلاقه الشخصية ، طبقة وحده في تاريخ الجنس البشري ، وانه لو لم يكن بالوحي أعظم الأنبياء ، لكان بهذه الأخلاق أعظم العظماء .



طلاق

أغلق دكانه محزون القلب ، منكسر النفس ، مما لقي من الخسارة في يومه ، ومشى الى البيت ... يأمل أن يجد من حب زوجته اياه وعطفها عليه ، ومواساتها له ، ما ينسيه آلامه ...

وأكملت أعمال بيتها ، مكدودة الجسد ، متعبة القلب ، مما نالها من عناء الطبخ والتنظيف ومداراة الاولاد [1] ، وقعدت تنتظر زوجها ، ترجو أن تجد من حبه اياها ، وعطفه عليها ومواساته لها ، ما ينسيها متاعبها .

فلما رأته داخلا كئيب الوجه ، فاتر التحية ، تألمت منه ، فأعرضت عنه ، ولما رآها قد أعرضت عنه ، سخط عليها ، وغضب منها ، وذهب الى غرفته ، ونزع ثيابه وهو يرتجف من الغضب ، واستلقى على فراشه ، ولكن جسمه كان مشدودا ، كأن كل عصب منه وتر عود ...

وجعلت تدور هي في الدار ، والغضب يعصف بين جوانبها .. ومرت ساعة ، وحاسب نفسه وقال لها ، يا نفس لِمَ لا تنصفين ؟ ما ذنب المرأة ؟ أما تعبت نهارها كله ، وأزهقت روحها ، وأنهكت جسدها ، من أجلي ، ثم تزينت لي ، وقعدت تنتظرني ؟ وقالت لنفسها : لعله مريض ، أو مصاب بنكبة . أفما كان عليَّ أن أسأله قبل أن أعرض عنه ؟

ورقت نفسه ، وارتقب أن تبدأه بالكلام ، فيصالحها .

وانتظرت هي أن يناديها ، لتصالحه . فلما رأته لا يناديها ، عاودها الغضب . وجاء الولد يقول : ماما . جعت .

---

(١) التعبير من العامي الفصيح .

فانفجر المكتوم من غضبها ، وصرخت به : اذهب من وجهي ، ألا يكفي تعبي طول النهار ، أخدامة أنا في هذا البيت ؟ لو كنت خـدامة لقال لي أبوك ، أشكرك ، على الأقل •

وانسل الولد وجعل يبكي •••

وأحس الرجل ، كأن بكاءه يمزق أعصابه ، ولم يعد يطيق الاحتمال، فوثب كالمجنون وصرخ :

ـ الى متى هذا الخلق السيء الى متى أصبر عليك ؟

ـ قالت : أنا التي لم تعد تستطيع الصبر ؟

ـ قال : ومن الذي يتمسك بك ؟ اذهبي •

ـ قالت : آه ، سأذهب ، ما عدت ترى وجهي •

ـ قال : الى جهنم •••

ـ قالت : الى جهنم ؟! هذا جزائي بعد خدمتي لك ، وصبري عليك عشر سنين ؟ الله يلعن الساعة التي عرفت فيها وجهك •

ـ قال ويلك ! الآن أطلقك •

ـ قالت : اي طلقني بقى ، وخلصني •

ـ قال : طيب ، روحي طالقة !

(طبق الاصل)

* * *

علاج الخصام

أعرف رجلاً دائم الخصام لزوجته ، لا تمر ساعة عليهما في صفاء ، ان قالت : نعم ، قال : لا ، وان قالت : لا ، قال : نعم ، وان رأت الشيء أسود رآه أبيض ، وان رأته أبيض رآه أسود ، يختلفان على الطبخ والكنس ، وفرش الغرفة ، ووضع المائدةوتربيةالولد ، وتسليكالخادم، ولا تراهما الا في معركة ، قد تحفز كل منهما واستعد وشمر ، وقعد لصاحبه بالمرصاد ، لا يصبح عليهما صباح الا ظنا أنه آخر يوم لهما ، وانه يوم الطلاق ، ولا يمسي مساء الا حسبا أنها آخر ليلة ، وانها ليلة الفراق ...

... وكان صديقي . فقلت له : أتسمع مني ان قلت لك ؟

ـ قال : ماذا ؟

ـ قلت : عندي دواء لكما ، ان أنت جربته ، أحل السلام بينكما محل الخصام ، والحب مكان الحرب ....

ـ قال : ما هو ؟

ـ قلت : انكما مثل الجنديين المتعاديين في المعركة ، يتمنى كل منهما الأمان ، ويبتغي السلم ، ولكنه يخاف ان ترك سلاحه أو نام أن يضربه الآخر ، فلا يزال سهران مستعداً للقتال ، ولو أن واحداً منهما أعطى الآخر الأمان ، لنام الاثنان ، فهل لك أن تذهب الى زوجتك فتقول لها ، انني عزمت على ألا أغضب أبداً مدة أربع وعشرين ساعة ، ولا أؤنبك على شيء عملته أبداً ، ولا أمنعك من شيء تريدين عمله ...

ـ قال : انها اذن تقلب المنزل رأساً على ذنب ، وتفسد كل شيء .

ـ قلت : لا بل تصلح كل شيء ، وسترى !

وجادلته حتى قبل ، وعاهدني على أن يظل مبتسماً اليوم كله .

وكانت أول النهار حذرة ، تحسبها احدى مكايده فلما رأته هادئاً طلق الوجه ، حسن العشرة ، أمنته فألقت سلاحها ، ولبست له أحسن حالاتها ، ومر اليوم كأنه من أيام الجنة ، حيث لا صخب ولا نصب ولا عناء ، وأغراهما ذلك باعادة التجربة مرة ثانية .

ولقد مضى عليهما الآن أكثر من عام ، ما اختصما فيه ، ولا اختلفا ، ولا فارق دارهما السلام .

فهل في القراء ، من يجرب هذه التجربة ؟



جـواب

لا يا أستاذ ! لا والله ! ... ليس الشعبُ العربي ولكنْ رؤساءَه وقادته . هم الذين أضاعوا فلسطين لا الشعب ، وهم الذين أخطؤوا أو أجرموا لم يجرم الشعب .

انّ هذا الشعب العربيّ أطيب شعوب الأرض ، وأصفاها جوهراً ، وأدناها الى الخير ، وأسرعها الى البذل .

ان هذا الشعب يلبي كل داع يدعوه الى (التضحية) لا يتأخر ولا يتردد .

قم في أي بلد عربي ، ثم ادع باسم الارض ، أو باسم العرض ، أو فادع باسم الدين ، ثم انظر ماذا يصنع الناس ؟

بل فكر في نفسك ـ أنت الاستاذ الهادىء المسالم المنصرف الـى الدراسة والبحث ـ ماذا تفعل اذا رأيت ثلاثة من العتاة القساة الاقوياء، الذين لا تقوم أنت لواحد منهم ، ماذا تفعل اذا رأيتهم يحاولون أن يعتدوا على عفاف امرأة ، وهي تنادي وتستغيث ؟ ألا تنسى عملك وهدوءك ، وضعفك عنهم ، وقوتهم عليك ، وتحس بمثل النار تمشي في أعصابك ، وتهجم عليهم ؟

هذا هو ارث الماضي فينا ، هذه هي ذكريات الأمجاد في أعصابنا ، هذه هي قوة الايمان في قلوبنا .

اننا لا نستطيع أن نقعد اذا دعينا الى الجهاد ، لأن محمداً جعل كل رجل من أمته بطلاً على رغم أنفه .

هذه يا استاذ حقيقة ، من أنكرها وجد شاهدها في نفســه ، لكن

الشعب يتبع من يدعوه ويمشي أمامه ، ورؤساء الشعب يقعدون على الموائد الفخمة ، فيأكلون حتى تمتلىء بطونهم ، ويقومون فيخطبون ويحمسون ، ويدعون الشعب الى الجهاد ، فاذا تعبت ألسنتهم من الكلام، وصعدت أبخرة الطعام الى رؤوسهم ، ذهبوا فاضطجعوا ، يستمتعون بصور المجد الذي نالوه ، وأغمضوا عيونهم على خيال التصفيق والهتاف، وناموا ... وخرج الشعب مستعداً للجهاد ، فلم يجد أمامه أحداً منهم !

هذا هو الذي وقع ...

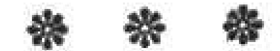
ان الشعب يريد ممن يدعوه الى البذل أن يبدأ بنفسه فيبذل ،وممن يدفعه الى الجهاد أن يمشي على رأس الصف الى ميدان الجهاد ، يريد زعماء يشاركونه نعماءه وبأساءه ، يجوعون معه ان جاع ، ويتعبون ان تعب ، يريد زعماء يقتدون بسيرة محمد وأبي بكر وعمر ، لا يكذبون ان خطبوا الناس ، ولا يدعونهم الى الموت ويطلبون لأنفسهم الحياة ، ولا يرغبونهم في العطاء ويغلقون صناديقهم على المنع ، ولا يضيعون مصلحة الامة ووحدتها من أجل عرش أو كرسي ..

يا استاذ هات لي زعيماً واحداً مثل هؤلاء ، وأنا أضمن لك أن نطرد بني اسرائيل من فلسطين بالعصي والخناجر ...

هات لي مثل صلاح الدين وخذ مثل نصر حطين ...

هات لي خالد بن الوليد أو واحداً من تلك العصبة الطاهرة ، وخذ مثل ظفر اليرموك ...

لا يا استاذ ، اننا ما فقدنا سلائقنا ، ولا أضعنا جوهرنا ، ولكن فقدنا القادة الصالحين .



سيـدة !

رأيت اليوم امرأة كأنها جبل من الشحم واللحم ، تميس لا كغصن البان ، بل كجذع السنديان ، على ساق أضخم من خصر انسان ، ومعها أجيرة رقيقة العظم ، نحيلة الجسم ، بادية السقم ، عمرها سبع سنين وتحمل ولداً للمرأة عمره ثلاث ، ولكنه صورة مصغرة لأمه ، يشبهها كما يشبه الفيل الصغير الفيل الكبير ، منفوخ نفخ الكرة ، لا يعرف طوله من عرضه الا بالحساب والجبر والمثلثات ، لا يحيط به ذراعها النحيل ، ولا ينهض به جسدها الهزيل ، وهي تخطو به تجر قدمها جراً من الاعياء ، وتلهث من التعب ، والمرأة تخطر متمايلة كأنها المحمل ...

ففكرت في أن أكلمها ، وفتشت في ذهني عن الكلمات التي تصلح لها ، ولكني رأيت رجلاً مكتهلاً قد سبقني اليها وقال لها :

ـ يا ست ، (خطية) هذه البنت ، خذي الولد منها .

فوقفت الست ، ووضعت يديها في خاصرتيها ، ورفعت أنفها ثلاث أصابع ، ومدت شفتها أصبعين ، وقلبت وجهها حتى صار كوجه من شرب كأساً من زيت الخروع ، وصبت عليه من فمها سيلاً من ... أوساخ اللغة ، وفضلات الكلام ... وهرب كل من كان في الطريق من قذارته ، ونتن رائحته ....

وهربت مع الناس ، فكتبت ما رأيت ، لأنشره (بلا تعليق) !



حمار يسوق سيارة

رأيت مرة دباً يركب الدراجة على المسرح ، ويمشي على ظهر كرة ، وشاهدت قرداً يلبس ثياباً ويخلعها ، وسمعت عن كلاب تحمل السلال ، وتغدو على السوق فتشتري الفاكهة ، وأبصرت في السينما خيولاً تفهم الكلام ، وتنقذ أصحابها من الأسر ، وكانت مجلة المختار تعقد في كل جزء منها باباً خاصاً لمظاهر الذكاء عند الحيوان ، وفي كليلة ودمنة أخبار من ذلك ، وفي الحيوان للجاحظ ، وحياة الحيوان للدميري ، وعجائب المخلوقات للقزويني ، ولكن أعجب هذه الاخبار وأبعدها في الاغراب ، أن يسوق حمار سيارة ••• وما كنت لأصدق ذلك ، لولا أن رأيته أمس بعيني ، وكاد يدعسني ، لا ••• لا تظنوا أني أمزح أو أتخيـل ، الي ــ وحياتكم ــ لا أصف الا ما جرى •••

كان حماراً شاباً ، عليه مخايل النعيم ، ومظاهر الدلال ، وكان منتفخاً مغروراً ، قد رفع أذنيه من الكبر ، ولوى ذنبه من الغرور ، وكيف لا يغتر الحمار اذا رأى نفسه مالك السيارة (البويك) صنـــع ١٩٥١ ، وبنو الشيخ آدم رحمه الله يمشون على الارض •••

ولكن الحمار حمار ولو ساق السيارة ، وكان صاحب الآلاف المؤلفة ، لذلك ترك يمين الطريق وأخذ شماله ، وكان أمامه امرأة معها ولدان ، فلما صار وراءها أطلق زمرة توقظ أهل الكهف ، فارتاعت المرأة ، ووثب الاولاد ، وجاءت سيارة من أمام ، تمشي على الطريق السوي ، فاضطرب الحمار السائق ، وصار يكبس أزرار السيارة بقوائمه الأربع ، فصعدت الرصيف ، وصدمت الرجل ، ثم دخلت دكان الخضري •••

ولم يستحِ كما يستحي مَن في وجهه ماء ، ولم يعتذر كما يعتذر مَن في نفسه أدب ، انما نزل من السيارة ، وجعل ينهق في وجه الخضري ويسبه باللسان الحماري ، لأنه لم يترك شوارع البلد كلها ويفتح دكانه في هذا الطريق ، الا ليصدم السيارة ...

* * *

هذا هو المشهد الذي شهدت ، وشهده معي عشرات من الناس ، وأنا مع تقديري لهذه البراعة في تدريب الحيوان على أعمال الانسان ، أرجو ألا تأذن الحكومة لحمار ، بعد اليوم ، أن يسوق سيارة خاصة على الطرقات العامة ...

ولو غضب من ذلك حضرات السادة الحمير ...



طريق النصر

هذه حادثة تاريخية وقعت لنا أيام كان هذا البحر المتوسط بحرنا ، نملك شطآنه ، ونحكم جزره ، ونطيف به من شرقه الى جنوبه ، وكان لنا أكثر شماله : كان لنا جنوب فرنسا وأطراف ايطاليا ، ولنا صقلية وقبرس ، وأقريطش [1] ، تمخر أساطيلنا العباب ، لا يردها اسطول ، ويخفق علمنا على البر وعلى البحر ، لا يزاحمه علم ...

وتتالت هجمات المسلمين من أهل أقريطش على الروم وغزواتهم على سواحلها ، وغلَبهم عليها حتى ضاق القيصر ذرعاً ، وحلف ليخربن الجزيرة ولو أذهب اسطوله ، وأنفق خزائنه ، وأهلك جنده . وساق عليها الخميس العرمرم في الاسطول الضخم .

قال الكاتب البليغ احمد بن يوسف في (المكافأة) :

حدثني الحسن بن مسلم الاقريطشي ، وقد علت سنه حتى قاربت المئة ، وكان صحيح التمييز ، سليم الحواس . قال :

« ... فوافى الجزيرة جمع لم يحط بأقريطش مثله أبداً ، ففزعنا الى غَلَق الحصن ، وخرج الروم من المراكب ، ونزلوا البر ، وبنوا المساكن ، وغلبونا على ميرة البلد ، واشتد الحصار ، وارتفع السعر ، ونفد المأكول ، وزادت المكاره ، حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعاً ، وأكلوا كل شيء يؤكل حتى نفد الصبر ، فعزموا على التسليم ...

هنالك قام شيخ فيهم صالح ، فقال : هل بقي لكم حول تنتصرون به ، أو صبر تلجؤون اليه ؟ قالوا : لا ، وقد أجمعنا أن نفتح الباب لهم .

---

(1) قبرس بالسين واقريطش كريت .

قال : فاقبلوا مني ما أشير به عليكم ، اجمعوا الناس كلهم في رحبة الحصن • فلما اجتمعوا قال : افصلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالكم من نسائكم •

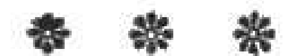
ففعلوا • فقال : احضروا الآن قلوبكم ، وتوبوا الى الله توبة مَنْ لا يجد ملجأ الا اليه ، وأخلصوا له اخلاص مَن لا يرجو فرجاً الا من عنده • ثم قال : عجّوا بنا الآن الى الله ، فعجوا عجة واحدة ، أحسوا أنْ قد خرقت أصواتهم فيها حجاب السماء ، ثم قال : عجوا أخرى ولا تشتغلوا الا بالله ، ونزهوا خواطركم عما سواه [1] ••• » •

فلما نزهوها عن غير الله يا سادة ، ورأوا الدنيا تصغر في عيونهم ، حتى تغدو كالعدم ، وتهون عليهم مسرات حياتهم ، وتهون عليهم قوى عدوهم ، وأحسوا أن قلوبهم قد عاد اليها الأمل ، حين عاد اليها الايمان ، وأنهم لا يحاربون بقوة سواعدهم ، بل بقوة ايمانهم ، قال لهم : افتحوا الابواب الآن وشدوا عليهم •

وشدوا • ووقف التاريخ مشدوهاً ، يروي كيف اقتلعت هذه الجماعة القليلة الجائعة ، جيوش الروم الكثيرة المتمكنة ، وكيف أنقذت الجزيرة ، وأعادت اليها الراية المظفرة ، التي عقدها للعرب محمد صلى الله عليه وسلم ! ! !

* * *

فيا أيها القراء ، ان اشتد الخطب عليكم يوماً ، وضاقت بكم السبل ، وأغلقت في وجوهكم أبواب الظفر في الارض ، فاذكروا أن باب السماء لا يغلق أبداً ، وأن صوت شيخ كريت ، لا يزال يهتف بكم في كل لحظة : عودوا الى الله يَعِدْ لكم النصر •



---

(١) هذا هو النص التاريخي •

معلمة

قال لي اليوم صديق أمضى أكثر عمره في فرنسة ، طالباً وتاجراً :

ـ هل تصدق يا أستاذ ، أن في دمشق من ألوان التبرج أشياء ، لو كانت في باريس ، لأنكرها أهل باريس ؟

ـ قلت : لا يا شيخ !

ـ قال والله ! وما أدافع عن باريس ، ففي باريس من بدع الفسوق، وألوان الضلال ، ما يدهش ابليس ، ولكن فيها الى جنب الفسوق أخلاقاً ، ومع بيوت الدعارة دور علم ، وفيها صبايا الهوى ، وفيها بنات الأسر ، فمَنْ شاء العلم وجده فيها ، ومَنْ شاء الحرام وصل اليه .

ـ قلت : طيب . ثم ماذا ؟

ـ قال : اني مخبرك ، رأيت أمس في الترام فتاة يعبق العطر من أردانها ، قوياً نفاذاً ، ينبه الغافل ، وينشط الخامل ، حتى يقبل عليها ، وينظر اليها ، كأن في جيدها عشرة أجراس ، تلفت اليها الناس ، والأبيض على وجهها والأحمر ، والشفتان كأنهما شفتا قطة أكلت أولادها، وأظافرها كأنها ... نسأل الله السلامة : مخالب مغموسة بالدم ، والكحل في العينين ، وما لا أدري ما هو على رموش الجفنين ، والحاجبان صارا عن النتف خطين .

ـ قلت : أهذا الذي ينكره أهل باريس ؟

ـ قال : لم تتركني أكمل حديثي ، انها معلمة يا صديقي ، معلمة ذاهبة الى المدرسة ، لتدخل الصف بهذه الزينة وهذا الترف ، تعرض ثيابها الغالية وزينتها على البنات ، فتكون قدوة شر لهن ، اذ أن كل

بنت تحاول تقليد مدرستها ، ولعل فيهن الفقيرات ، اللائي يعجز آباؤهن عن شراء مثل هذه الثياب ، فتنكسر قلوبهن،ويسود عيشهن ، ويكفرن بنعم الله عليهن ، وقد كن من قبل راضيات مطمئنات ...

هذا الذي ينكره أهل باريس يا أستاذ ، انك لا تجد في باريس طالبة ولا مدرسة ولا موظفة ، تذهب الى مدرستها أو ديوانها كأنها ذاهبة الى عرس ، بل ترى الطالبات والمعلمات بهيئة الجد وثياب الحشمة ، والغانيات بلباس الفجور ، لا تستتر البغي بثوب الشريفة ، ولا تستعير الشريفة زي الغانية ، ولا تذهب فتاة الى جلسة المحكمة بثياب الاعراس، ولا يدخل رجل الكنيسة بالمنامة [1] ولا السينما ببذلة [2] الشغل . يلبسون لكل حالة لبوسها ، فلا يخلطون اللهو بالعمل ، ولا الجد بالهزل .

... أما نحن ... ما قولك فينا يا أستاذ ؟

فسكت (الاستاذ !) ، ولم يجب بشيء ! ! !

❁ ❁ ❁

(1) المنامة : البيجامة .

(2) البذلة فصيحة .

سهر الاولاد

لي بنت مولعة بالسهر ، لا تستطيع أن تأوي الى فراشها حتى يدخل كل من في الدار فراشه ، ولا تقدر أن تغمض عينيها ، وفي المنزل أحـد مفتوحة عيناه ، وقد جربنا فيها الأساليب ، وبلونا معها الحيل ، فلم ينفع معها ترغيب ولا ترهيب ، حتى أخذ ذلك من لون خديها ، ومن بريق عينيها ونال من صحتها ٠٠٠٠

وسألت اخواني فوجدت أكثرهم يلقى من أولاده ، من كرههـم للنوم ، وحبهم للسهر مثل الذي ألقى منها ، ولم أجد عندهم دواء لهذا الداء ٠٠٠

ففكرت ، فخطر لي خاطر ٠

فقلت لأم البنت : أنا أستطيع أن أحبب الى بنتك المنام واكرّه اليها السهر ، ولكن الدواء مرّ ، فهل تعدينني ألاّ تأخذك بها رأفة اذا أنـا جرّعتها هذا الدواء ؟

قالت : نعم ٠

ولم تكن لتخالفني في شيء ، ولكن أحببت أن أتوثق ، ثم دعوت البنت ، فقلت :

ـ عنان !

ـ قالت : نعم ٠

ـ قلت : سنسهر الليلة ، فهل تحبين أن تسهري معنـا ؟ ففرحت وأشرق وجهها ، وجعلت تقفز من الابتهاج ، وتقول :

ـ اي بابا ، اي أرجوك يا بابا ٠٠٠٠

ـ قلت : ولا تتأخرين في القيام الى المدرسة صباحا ؟

ـ قالت : لا ، لا والله ، جربني •••

ـ قلت : أسمح لك بالسهر ، لكن بشرط واحد ، فجزعت قليلا ، وقالت : ماهو ؟

قلت : ألاّ تنامي حتى أنام أنا •

فعاودها الفرح ، لما تتصور من مسرات السهرة ومباهجها وقالت :

ـ قبلت ••••

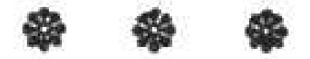
وامتدت السهرة ، وتعمدت أن أحشد فيها كل ما تحبه البنت من قصص حلوة ، وألاعيب ، وأنقال [1] ، حتى نعست وكادت تنام في مكانها، ثم نامت •••

ـ فقالت أمها : لقد نامت أفأحملها الى سريرها ؟

ـ قلت : هيهات ، الآن بدأ العلاج ، فشدي أعصابك ، وعمدت الى البنت فهززتها حتى أيقظتها ، فاستيقظت مكرهة ، ومرت ربع ساعة، فعادت الى المنام ، وعدت الى ايقاظها ، وتكرر ذلك حتى صارت تتوسل اليّ ، وتقبل يدي أن أدعها تنام ، وأنا أقول لها بدم بارد :

ـ لا ، السهر أحلى ، ألا تحبين السهر ؟ حتى قالت : لا ، لا أحبه ، لا أحبه ، بدي أنام ، وانطلقت تبكي •••

وبرئت البنت من علة السهر ، من تلك الليلة !



(١) النقل من العامي الفصيح •

قصـة فتـــاة

يحمل اليّ البريد كل يوم نحو عشر رسائل ، ما بين تعليق على كلمة كتبتها ، أو موضوع لكلمة أكتبها ، أو شكوى أو مظلمة ... ولكن لم أجد فيها كلها أبلغ بلاغة ، ولا أصدق لهجة ، ولا أفعل في النفس ، ولا أدعى للتفكير ، من هذه الرسالة التي تلقيتها أمس من الآنسة(التي لست أسميها) ...

وأنا أسرع فأقول ، إني عاجز عن تلخيص هذا الكتاب ، وأن هذه الخلاصة التي أكتبها ليست الا صورة مشوهة جداً للاصل البارع ، واني كنت أتمنى نشره كله ، ليرى القراء كيف يكون الكلام العامي الصادق الصادر عن القلب ، أبلغ من كل ما يرصف الادباء .

وصفت الآنسة منشأها في أسرة كانت محافظة ، ثم فشا فيها مرض التجديد ، ووباء التقليد ، فتمسكوا بكل حديث ، ولو كان الاختلاط والتبذير والرقص والفسوق ، ونبذوا كل قديم ، ولو كان الدين والعقل والفضيلة والاقتصاد ، وربوها على ذلك ، وكان لها أخ أرسلوه ليتعلم في ديار الغرب ، وأرسلوا معه صحته ودينه ومبلغاً ضخماً من المـــال ، فترك صحته ودينه هناك ، وعاد بلا مال ولا علم ولا شهادة ... وبقي بلا مورد ولا عمل ، فكان أبواه يعطيانه كل ما يريد ، لأنه « الصبي » الوحيد المدلل ، الذي جاء بعد ست بنات ، ويتركانه يلهو كما يشاء ، لا يسألانه عن مال أنفقه ، أين أنفقه ، ولا عن شيء فعله ، لِمَ فعله ؟

وكانت أقرب البنات منه سناً ، فكانت أشدهن عليه عطفاً ، تعيش له ، تحدب عليه ، وتفنى فيه ، وكان يسخرها لغاياته ولذاته ، حتى انها كانت

رسوله الى عشيقاته تصله بهن ، وتحرسه وهو معهن ، وترى وتسمع كل ما يراه ويسمعه من كان في مكانها ، وكان يوهمها أن هذه هي المدنية وهذه هي الحضارة . وكانت تؤمن بذلك لما ترى من رضا أبويها به وسكوتهما عنه ، وطال ذلك حتى تنبهت في نفسها (الغريزة) التي وضعها الله فيها ، ومال قلبها الى واحد من أصدقاء أخيها ، مال اليها ، وتصادقا على عيون الاسرة وأسماعها ، فكان يأخذها الى النزهة في النهار ، والى السينما في الليل ، وينفرد بها ويفضي اليها بسره ، وتلقي اليه بأسرارها ، حتى كان بينهما ما يكون بين كل رجل وامرأة ، اجتمعا على غير قرابة قريبة أو عقد شرعي .

هنالك قامت قيامة الاهل ، وغضب الاب (الشريف) ، وثار الأخ (البطل) ورموها بكل ما ترمى به المرأة الساقطة ، وهددوها بالذبح ..

وهنالك كتبت اليّ تسألني :

هل كانت هي المذنبة ؟ أليس المذنب أبوها الذي رباها على هذا ، وأخوها الذي أوصلها اليه ؟ هل كان في الامكان الا الذي كان ؟ هل تدحرج الصخرة من رأس الجبل ، وتغضب ان بلغت الوادي ؟ هل تدني النار من البارود وتعجب ان كان الانفجار ؟ هل من العدل ان يسقط الرجل فيقول الناس ، زلة شاب ! ثم يتوب فيقولون : مذنب تاب ! وتسقط المرأة ، فتسقط الى الأبد ، لا تقبل لها توبة ، وتغسل لها حوبة ؟...

ولم أدر بماذا أجيب !

❁ ❁ ❁

موقف عـالـم

كان الطريق من القلعة الى الجامع الازهر مرصوفاً بالناس ، فالناس على جوانب الشارع ، وفي نوافذ البيوت ، وعلى الشرفات والسطوح، قد برزت القاهرة الى الطريق فلم يبق في بيتها مخدرة ، ولم يبق في عمله عامل ، ونصبت الاعلام ، ونضدت الاوراد وأنيرت المشاعل ، وافتن الناس في الطرب افتناناً ، فزوقوا الازياء ، وعددوا الالعاب ، وأكثروا الأغاني ، فكأن الأرض رقصت من فرح ، وغنت من سرور ، حتى قيل جاء الموكب ، فطارت الكلمة على الافواه ، وصمتت الالسنة ، وامتدت الرؤوس ، وتطلعت العيون ، وبدت طلائع الركب ، وجاز الملك علـى رأسه المظلة ، وحوله القواد بمناطق الذهب ، وتيجان الدر ، سيوفهم مسلولة ، ورماحهم مشرعة ، والشمس تسيل على تلك البيض وهاتيك الأسنة ، فيخيل للرائي ان الملك انما يسير في موكب من النور ... وانكفأت هذه الخلائق كلها وراءه ، حتى وصل الازهر ، وملأ النـاس صحنه الرحيب ، وساحته الفسيحة والطرق من حوله .

وترجل الملك فانحنت له الرؤوس ، وخشعت الاصوات وحبست الانفاس ، واذا بصوت جَهْوَرِي يخرج من صف المشايخ ينادي الملك باسمه يقول : يا أيوب !

ويتلفت الملك واذا بالمتكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

ـ قال : يا أيوب ما حجتك عند الله انْ قال لك : ألم أبوىء لك مصر ثم تبيح الخمور ؟

ـ قال : وهل جرى ذلك ؟

ـ قال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ؟!

يناديه بأعلى صوته والعساكر والناس صامتون !

ـ قال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي .

ـ قال : أنت ممن يقولون : « انا وجدنا آباءنا » ؟

فأمر الملك برفعها .

❋ ❋ ❋

وانقضى الموكب وما للناس حديث الا حديث الشيخ ، ولما رجع الشيخ الى مدرسته الصغيرة ، قال له تلميذ له عزيز عليه هو الشيخ الباجي :

ـ يا سيدي ما هذا الذي صنعت ؟

ـ قال : رأيت السلطان في تلك العظمة ، فخفت عليه الهلاك من الكبر ، فأردت أن أصغّر عليه نفسه ، وأعينه عليها ، ولا يكون العالم عالماً ، يا ولدي ، الا اذا علم انه كالطبيب ، فالطبيب تزداد الحاجة اليه كلما اشتد على الناس مرض الجسم ، والعالم يحتاج اليه كلما قوي في الملوك مرض النفس .

ـ قال : وما مرض النفس ؟

ـ قال : العظمة يا ولدي ، فمَن لم ينصح الملك يوم يشتدسلطانه، وتقوى نفسه ، ويبين له طريق الحق لئلا يجانبه ، وسبيل الخير لئلايعدل عنه ، لا يكون عالماً ، انما العالم لمثل هذا اليوم .

ـ قال : يا سيدي ، أما خفته ؟

ـ قال الشيخ : يا بني استحضرت هيبة الله فصار قدامي مثل القط [1] .

❋ ❋ ❋

(1) هذا هو النص التاريخي لكلام الشيخ ـ انظر (طبقات السبكي) .

يؤمنون بالحمـار !

وليس هؤلاء الذين يؤمنون بالحمار من بقايا المشركـين الاولين ، الذين يكفرون من جهلهم بالله رب العالمين، ويؤمنون بالجبت والطاغوت، ولا الفراعنة الأقدمين عباد العجل ، ولا من اخوان البوذيين الذين يؤمنون بالبقرة ، ولكنهم قوم من المسلمين ومن كبار الادباء الشاميين ، نظروا فرأوا للحمار مزايا وفضائل ، ليست لهذا الانسان ، الذي يؤمن به أخي وصديقي الاستاذ عبد المنعم[1] ، فهو لا يكفر بالله ، ولا يجحد بلسانه الاله الذي خلق له هذا اللسان ، كما يفعل الانسان ، ولا ينافق ويتخذ له وجهين ، ولا يثير الحروب على اخوانه في الحماريّة ، ولا يعرف جريمة القتل ، ولا رذيلة الانتحار ، ولا تشغله شهوته عن واجبه الحماري كما تشغل بني آدم ، ولا يفكر في الأتان (أي الحمارة) الا مرة واحدة في السنة، ليقوم بقسطه من فضيلة العمل على بقاء النوع ... ولا ينحرف بغريزته عن طريقها ، فـ (يقترب ...) من حمار مثله ويدع جميلات الأتن ، ذوات الخد الأسيل ، والذنب الطويل ، والساق النحيل ... كما تنحرف غرائز بعض بني آدم .. ولا تتبرج اناثه التبرج المغري ، ولا تعرف البغـاء الرسـمي في (المحلات العمومية) ، ولا البغاء الطليق على (البلاج) ، ولا البغاء الفني في السينما ، والمجلات المصورة ...

ولم يشاهد أتاناً ترقص رقصاً خليعاً ، ولم يسمعوا حماراً يغني غناء (حديثاً) ، مع سهولته عليه ، وانه لا يكلفه الا أن ينهق نهيقاً من بحر جديد مبتكر ، ورأوه مع ذلك صابراً على ما قدر عليه ، راضياً بما قسم

---

(١) انظر كتاب « أؤمن بالانسان » للاستاذ عبد المنعم خلاف .

له ، لا يستغل أيام الحرب ، ليسرق شعير اخوانه الحمير ... ولا يغش، ولا يرتشي ، ولا يخون ، ولا يعرف المكر ، ولا الحسد ، ولا يتظاهر بالدين ليصل الى الدنيا ، ولا يتخذ العمل في المصالح العامة سلمّاً الى المناصب ، وهو يطيل التأمل ، ولكنه لا يؤذي أبناء جنسه بتدوين فلسفته ، ويأتي حين يصوت بسحَجات وصيحات لها في موسيقى الحمير جمال ، ولكنه لا يكذب فيدعي أنه من كبار الملحنين ، ويجيء بالبلاغة الحمارية المحدثة ، ولكنه لا يزعم أنه مجدد في البلاغة كما يزعم بعض مشايخ بني آدم [1] ، لئلا يقال له : اخرس ، ، فما تجديدك هـذا الا نهيق !

رأوا ذلك فآمنوا بالحمار ايمان تقدير وتفضيل ، لا ايمان دين وعبادة ، فألفوا منذ ثلاثين سنة (جمعية الحمير) ، وجعلوها سرّية لأن الناس لم يستعدوا لفهم هذه الاخلاق الحمارية ، وتقدير أهلها ، وكيف ولا يزال الواحد منهم اذا شتم آخر ، قـال له من غروره وحماقتـه : يا حمار !

وقد خرج من هذه الجمعية رئيس وزارة ووزراء ، وخمسة مـن أعضاء المجمع العلمي العربي ، وكان يعطف عليها ملك عربي عظيـم ، ويصغي مستمتعاً الى حديثها . والانتساب اليها صعب ، لابد فيه مـن ترشيح ثلاثة من الاعضاء ، وتقديم أطروحة في سرد مزية للحمار لـم تعرف ، وبعد مناقشتها (علناً) يقبل الطالب ، ويسلم الى أحد الاعضاء لتطبيعه على طبائع الحمير ، ثم يثبت عضواً أو يردّ . ولأن يصير المرء وزيراً أو أستاذاً في الجامعة ، أهون من أن يصير عضواً فيها .

ولهم اشارة يتعارفون بها ، هي التي سرقها منهم تشرشـل فصمت الارض ، وهي الاشارة بالسبابة والوسطى الى أذني الحمـار لا الـى الـ (فاء) من (فيكتوار) ! ولهم اصطلاحات في كلامهم خاصة بهم ،

---

(1) انظر كتاب « فن القول » للشيخ امين الخولي .

منها أنه اذا دعاهم كبير جاهل ممن يحب أن يجمل بالأدباء مجالسه ، قالوا : هلم نذهب الى المطلف ....

واذا وصفوا غناء فريد الاطرش (مثلاً) قالوا : ما أجمل هذا النهيق ... واذا رأوا على غنيّ من أغنياء الحرب ثوباً جميلاً قالوا : ما أحلى هذه البرذعة ... واذا شاهدوا داره ، قالوا : ما أفخم هذا الاصطبل ... وللجمعية درجات رفعوا بعضها فوق بعض ، فأعلاها اليعافرة نسبة الى يعفور حمار النبي صلى الله عليه وسلم ، فالسيارون نسبة الى حمار أبي سيارة ، الذي أجاز عليه الحجاج من المزدلفة الى منى أربعين سنة ، وكان يشق الناس ويقول :

خلّوا الطريق لأبي سيارة وعن مواليه بني فزاره

حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

فقد أجار الله مَن أجاره

ولهم علم وأدب ، وهم يفضلون بشاراً على الشعراء ، لأنه توصل بحدة ذهنه ، وشدة ذكائه الى التغزل بأتان على لسان حمار ، ويقدمون خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي ، لأنهما كانا يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ، ويدافعان عنها ، ويثنون على من ألف (خواطر حمار) ومن ترجمه ...

❁ ❁ ❁

الهاتف الآلي (١)

الهاتف خادم أمين ، وصديق وفيّ ، وهو الطبيب ان مرضت ، تكلمه فيأتيك بالطبيب ، وهو الدواء ان شكوت ، تخبره فيجيئك بالدواء والقابلة عندما تفاجيء الولادة ، والشرطي عندما يقتحم اللص ، وهو البرد والسلام ان نشب الحريق ، وهو الأنيس ان كنت في وحدة ، والمسلي ان كنت في ضيق ، فهو اسعاف وانجاد ، وتسلية وأنس ، وهو الرسول الى الحبيب ، ان شاقك لقاء الحبيب ...

هو خادم أمين ، وصديق وفيّ ، ولكنه خادم أحمق ، وصديق مجنون ، يدخل الغليظ الى غرفة نومك نصف الليل ، فيوقظك ، ليزعجك ، بحديثه البارد ، ويدخل الثقيل الى مكتبك ساعة عملك ، ليشغلك بكلامه الفارغ ، ويأتيك بالجيران يهجمون عليك في خلوتك ووقت راحتك ، لا لاستدعاء الطبيب لمريض خطر ... ولا لدعوة الشرطي لمجرم سفاك بل ليتحدثوا تافه الاحاديث ... ويتسلوا ويبددوا الوقت ... باللت والعجن .... (٢) .

وهو بعد ذلك رقيب ثقيل ، يعد عليك أنفاسك ، ويحصي ألفاظك ، فان تكلمت أكثر من خمس مرات في اليوم غرمك على كلامك المباح مالاً ، وهو تاجر طماع ، لا يقيم عندك الا بفاحش الأجر وثقيل الغرم : بمئة

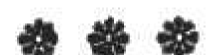
---

(١) من كلمة نشرت يوم الاحتفال بتركيب الهاتف الآلي .

(٢) اللت والعجن من العامي الفصيح .

وعشرين ليرة في السنة ، وهو جاهل لا يفرق بين المنزل الذي يستعمل هاتفه للضرورة ، والمتجر الذي يستعمل هاتفه للربح ، وهو جائر يدخل بيوت الموظفين المدللين ليتسلوا به هم وزوجاتهم وأولادهم ، ويفر من مكاتب موظفين آخرين يحتاجونه لضرورات العمل ومصالح الناس !

فاذا أردتم أن نحصل على نعم (الهاتف) ، ونخلص من نقمه ، فعلموا الناس أصول الحديث فيه ، وسلوا الحكومة أن تخفض الأجر ، وترفع عدد الكلمات ، ولا تعامل المنازل معاملة المتاجر ، ولا تجعل بعض الموظفين كالاولاد المدللين ...



ماهي التقــدمية

ما هذه التقدمية التي صار النطق بهـا (موضة) العصر ، وعلامة التمدن والفهم ؟

هل يتكرم أحد فيعرفها لنا تعريفاً جامعاً مانعاً ، فيكون له الاجـر والشكر ، أم ان (التقدميين) مثلنا نحن (الرجعيين) لا يعرفون لهـا تعريفاً ، ولا يدرون لها معنى محدوداً ؟

❀ ❀ ❀

والذي أفهمه أنا ، ان التقدمية مشتقة من (التقدم) والرجعية من (الرجوع) فالذي يمشي الى الامام هو التقدمي •• والذي يرجع الى الوراء هو الرجعي •••

ولكن ما الامام وما الوراء ؟ واذا وقف اثنان في المرجة أحدهمـا وجهه الى البلدية والآخر وجهه الى السنجقدار ، وسـارا كان كلاهما يتقدم الى الامام ، وان كانا يمشيان في وجهتين مختلفتين فأيهما التقدمي؟

يقولون ، ان التقدمي هو الداعي الى الجديد ، الى عصـر الذرة والصاروخ ، والرجعي الذي يريد العودة بنـا الى مثل ما كان أجدادنا قبل ألف سنة ، ولكن هل كل ما في عصر الذرة خير ، وكل ما كان قبل ألف سنة شر ؟

في هذا العصر الحرب والدمار والفجور والسرقة ، وضياع فلسطين، وان كان فيه العلم والحضارة ، وقبل الف سنة كان الخير والعلم والفضيلة وعز العرب وسيطرتهم على الدنيـا ، وان كان فيه مع ذلك الاستبداد

والشرور ، وفي كل زمان خير وشر ، فلماذا نسمي من يدعو الى فضائل الماضي رجعياً ؟

وهل كل جديد خير من كل قديم ؟

ان أقدم شيء في الدنيا هو العقل ، فاذا تركنا الدين وصرنا ملحدين، لأن الدين قديم ، فيجب أن نترك العقل ونصير مجانين لأن العقل أقدم من الدين .

فما معنى التقدمية اذن ؟

أخشى أن يكون معناها تقليد الغربيين في الخير والشر ، فان كشفوا العورات كان سترها رجعية ، وان أعلنوا الزنا كان اعلانه تقدمية ، وان لبسوا (البنطالون) من فوق و (الجاكيت) من تحت ، أو قعدوا على الارض ووضعوا الكراسي على رؤوسهم أو أكلوا الحساء (الشوربة) بالشوكة ، والبطيخ بالملعقة ، فقد وجب في شرعة التقدمية أن نصنع مثلما صنعوا ، والا كنا رجعيين ..

ان كان هذا هو المراد بالتقدمية ، فتجمعوا وتشجعوا وقولوه وأريحونا ، ولا تدعوه يطالعنا من خلال السطور ، ومن بين الكلمات !

* * *

الشهـرة

كنت من سنوات كلما سرت في شوارع دمشق الكبيرة ، أو في أزقتها الضيقة ، من أقصى الميدان الى آخر المهاجرين ، أجدعلى الجدران اسم (فلان[1]) مكتوبا بخط كبير ، بفحمة سوداء على الجدار الأبيض، وبحوار [2] على الحائط الاسود ، فطفقت أسأل من هذا الـ (فلان) ، فلا أجد أحداً يعرفه ، حتى أخبرني أحد المعلمين أنه تلميذ في مدرسته، وانه يعطل درسه ، وينسى طعامه ، ويدع كل شيء ، ليدور فينقش اسمه على الحيطان ، لا هم له في الدنيا الا هذا ، ولا شهوة له في غيره ، يجدده كلما محي ، ويعيده كلما طمس ، يريد بذلك الشهرة ، وقد نالها ، حتى صار يعرفه في دمشق من لا يعرف أكثر علمائها وأفاضلها ، وحتى تطوعت أنا اليوم بنشر اسمه الكريم والاعلان عنه مجانا ... لأريكم يا أيها القراء أن الشهرة ليست مقياس العظمة ، ولا ميزان الرجال ، حتى ان لفظها غير صحيح اطلاقه على هذا المعنى ، فالشهرة في لغة العرب انما تكون للفضيحة . ونسأل الله أن يسبل عنا ستره ...

وما أهون الوصول الى الشهرة ...

قرأت مرة أن رجلا أحب أن يعرفه الناس ، وأن تتناقل الألسنة اسمه ، وتتحدث المجالس حديثه ، ولم يجد لساناً بليغاً ، ولا عقلاً مفكراً ، ولا يداً صناعاً ، ولا قلباً شجاعاً ، فذهب الى بئر زمزم والناس يستقون منها ، أيام الحج ، فـ (بال ..) فيها ، فاشتهر ... وان رجلا أميركياً

---

(١) هو اسم معروف في دمشق .

(٢) الحوار (الطباشير) من العامي الفصيح .

لم ير سبيلا الى الشهرة ، الا باطلاق الرصاص على رئيس الجمهورية لا لثأر له عنده ، ولا لنقمة عليه ، بل لتنشر الجرائد صورته ، فيريها حبيبته ! فلا تجعلوا الشهرة مقياس العظمة فان (كاريوكا) أشهر من (مي) ، و (شكوكو) أعرف من (اسماعيل صبري) ، والاستقبال الذي يلقاه (أنور وجدي) ان نزل دمشق أعظم من استقبال شيخ الازهر ، والاجرة التي تدفعها اذاعة مصر لـ (اسماعيل ياسين) لا تدفع مثلها لطه حسين ...

تفرد بالشهرة البطالون والمغنون و (المهرجون) والرقاصون .

فهل فسد الزمان ، واضطرب الميزان ، أم هذي طبيعة الانسان ؟

حدّث طاغور ، انه لما قدم لندن ، كان وصوله اليها يوم وصول (ماري بكفورد) ، فانشغل الناس عنه بها ، وانصرفوا اليها ، حتى انه لم يجد في المحطة من يحمل له حقيبته ، مع أن زي طاغور ولحيته عجب في لندن .

وسألت مرة دار احصاء في أميركا ، آلافاً مؤلفة عن أشهر عربي منذ خمسمائة سنة ، فكان .. جحا .

هذه هي الشهرة يا أيها الشباب ، فلا تبالغوا في الحرص عليها والزيادة في تقديرها ، فقد اشتهر الضبع (الذي أكل بياع الحلاوة على طريق جوبر) ، وما يمتاز عن سائر الضباع بمخلب ولا ناب . واشتهر (حمار حمام الناصري) حتى ما يزال اسمه علما في دمشق الى الآن ، وما كان ذا عبقرية حمارية ، ولم ينبغ في شيء من فنون الحمير ... ولا في (النهيق) على طريقة الشعر الرمزي !

هذه هي الشهرة ..

* * *

الثقـافة في خطـر

قلبت اليوم أجزاء قديمة من (المختار) ، هذه المجلة التي كانت سميراً لمن أعوزه السمير ، ومدرسة لمن فاتته المدرسة ، والتي كان يفهما العامي ، ويحتاج اليها المتعلم ، لأنها تطلع عليه كل شهر بشيء جديد ، لا تحويه الكتب ، ولا تدرسه المدارس ، وتقدم له ثمرات أفكار المفكرين في أميركة وأوربة شهية ناضجة ، وتلخص له كتباً ، وتجمع له الأدب والعلم ، والطب والتربية ، وعلم النفس في طاقة عطرية محببة .. فشعرت بالأسف يملأ قلبي على أن فقدها القراء وعدموها .

وقلت في نفسي :

لو أن هذه المجلة ربحت لما انقطعت ، ولو أن الناس اشتروا منها العدد الذي قدره أصحابها ، لما جعلوا لها هذا الثمن البخس ولما اضطروا الى وقفها ، فما للناس ينصرفون عن الجيد النافع من المجلات ، حتى يضعف أو يموت ؟ ويقبلون على التافه السخيف حتى يقوى ويشتد ؟

وما للمجلات الجدية تنحدر وتسف حتى تتوارى واحدة اثر واحدة ؟

ما لـ (المقتطف) شيخة المجلات لا يدري أكثر الناس أماتت أم لا تزال حية باقية ؟

وما لـ (الهلال) بدلت طريقها ، وحالت عن حالها التي كانت عليها أيام منشئها ، وصارت للتسلية والمتعة ، بعد أن كانت للجد وللنفع ؟

وما لـ (الرسالة) المجلة الحبيبة ، التي لم يعرف الادب مجلة خيرا

منها قد هبطت من يفاعها ، وفتحت لكل كاتب بابها ، حتى صار يتصدر فيها مَنْ لم يكن يطمع أن يدنو من حماها ؟

وما لـ (الثقافة) قلَّ قرّاؤها ، وضعف انتشارها ؟

وأين (الكاتب المصري) وأين من قبلها (السياسة الاسبوعية) ؟

وأين (الزهراء) و (البيان) ؟

وأين (الجريدة) وأين (المقتبس) ؟

وأين في الشام (الرابطة الادبية) ؟ وأين من بعدها (الميزان) و (الثقافة) ؟

لقد كنا (ونحن طلاب) نجد التسلية ــ ان ابتغيناها ــ في العقد الفريد والاغاني ، وان نزلنا ، فانما ننزل الى كتب الرافعي والعقاد وطه حسين .

فصارت تسلية مَنْ بعدنا ، السياسة الاسبوعية والهلال ، ثم الرسالة والراوية .

فما للطلاب اليوم وما للقراء لا يكادون يقرؤون الا (الاثنين) و (آخر ساعة) و (مسامرات الجيب) وهذه الكتب الخفيفة الضحلة التي تباع مع الصحف ؟ هذي مصادر ثقافتهم ، وهذي ينابيع معارفهم؟!

واذا كان يشتكى بعد هذا كله من ضعف الطلاب في علومهم المدرسية ، وقصورهم عن درجات اخوانهم قبل عشرين سنة ، فماذا تكون العاقبة والحال الى انحلال ؟ ألا نعود مرة أخرى الى مثل ما كنا عليه قبل مائة سنة ؟

* * *

يا أيها القراء :

ان حياتنا الثقافية في خطر !

* * *

الثبـات

الثبات ان كان على الخير كان خيراً ، وان كان على الشر كان شراً ، ولو كان الثبات خيراً لذاته لكان أفضل المخلوقات ابليس ، لأنـه بقي (ثابتاً) على عناده وكفره ووسوسته ، ماحاد قط عن طريقته ، ولا تحول عن وجهته ، ولكان أبو جهل خيراً من أبي بكر لأنه استمر (ثابتاً) على (مبادىء حزبه) الجاهلي الوثني ، عاش عليها ومات في سبيلها ، وأبو بكر تركها وتبع الحق الذي تبين له ، ولو كان الثبات خيراً لذاته لما حسن ايمان الكافر ، ولا توبة العاصي ، ولا صلاح الفاسد ، ولكان اللص الذي يبقى (ثابتاً على مبادىء العصابة) ، خيراً من اللص الذي خرج عنها ، وسلك سبيل الرشاد .

والتحول يكون خيراً ان كان عن بحث وايمان ، وايثـاراً للحق ، واتباعاً للصواب ، أما ان كان ابتغاء المنافع ، وقصداً للكسب ، وطلبـاً للذة ، واتباعاً للهوى ، كان شراً من أكبر الشرور وكان صاحبه أخزى من ابليس وأضل ، والمدار في ذلك كله على أن يحاسب المرء نفسه قبل أن يحاسبه الناس ، ويحرص على ارضاء الله قبل ارضاء الخلق ، ويـزن أعماله كل عشية بميزان الشرع ، فان رأى انه على الحق ثبت عليه ، وان رأى أنه على الباطل أقلع عنه ، كسالك البادية ينظر حوله كلما مشـى ليعلم أين يمشي ، فان وجد نفسه ضالاً عن الوجهة ، متنكباً الطريق عاد اليه ، وليس في الدنيا عاقل واحد يقول له : أخطأت اذ عدت الـى الطريق ، ولم تبق ثابتاً على وجهتك الضالة ، حتى يقتلك الظمـأ ، أو تأكلك الوحوش . أمّا ان انحرف الى الشرق ليكسب مالاً حراماً ،

وانقلب مرة الى الغرب لينال لذة آثمة ، وأقبل وأدبر ، يدفعه هواه ، ويصرفه شيطانه ، فانه لا يصل عمره الى غايته ولا يقول له عاقل في الدنيا ، أصبت !

أما الاحزاب فهي (في الأصل) خير ، لأنها تعاون وتشاور واتحاد ، ولكن أصحابها بشر على كل حال يخطئون كما يخطيء البشر ، وقانونهم قانون موضوع ، لا شرع منزل ، وقد يجتمع (الأكثر) على الباطل ، ويكون الحق مع (الأقل) ، فان رأى عضو الحزب ، ان حزبه انقاد بـ (الأكثرية) الى ما يؤمن هو أنه باطل ، وما يوقن أن فيه ضرراً على البلاد ، وثبت له ذلك ثبوتاً لم يجز له أبداً البقاء فيه ، والانتساب اليه ، واعانته على باطله وتقويته على اضراره بالوطن ، ووجب عليه وجوباً شرعياً وعقلياً الخروج منه ، ولو قيل انه لا ثبات له ، وانه متحول متقلب .



الله اكبـــر

أشتهي على الأوقاف أن تجعل في الدائرة مؤذناً حاضر القلب ، نديّ الصوت ، وتقيم في جوائب دمشق الاربعة مكبرات تذيع هذا الأذان ، حتى يرن في أرجاء البلد الصوت واحداً ، يملأ كل سمع ، ويبلـغ كل قلب : الله أكبـــر .

الله اكبر . هذا النشيد الذي لم يحمل بريد السمـاء الى أهـل الارض ، ولم يلق لسان الزمان في أذن الدنيا نشيداً مثله ، حربيـاً ان شئته للحرب ، عاطفياً ان شئته للقلب ، صوفياً ان أردته للصفاء ..

الله اكبر . هذا الهتاف الذي كان صرخة الحق مـن أفواه جنود محمد ، أسمعوه كل بطن واد ، وكل ظهر جبل ، وكل مغارة تفزع من سلوكها الجن ، سلكوها يجاهدون في سبيل الله ، وكل أسوار قلعـة لا تستطيع أن تحوم فوقها من منعتها العقبان فتحوها ليدخلوا اليهـا هدي الله ــ وكان أبداً نشيد النصر .

الله اكبر . تسري في هدأة الليل ، والناس غارقون في نشوة العبادة، أو في أحلام الهوى ، أو في حمآت الفجور ، أو في لجج الكرى .

وفي وضح النهار والناس منغمسون في معتركات السياسـة ، أو غمرات التجارة ، أو معامع المطامع والدسائس والشهوات .

يهبط عليهم جميعاً كما تهبط البركات من السماء ، ويمشي في قلوبهم كما يمشي النور في الفضاء ، ينزل من فوق ، من فوق كراسي الحكم ، ومقاعد الثروة ، ومخادع اللذاذات ، يذكّر الأقوياء بأن لا يتكبروا على الضعفاء ، فان الله معهم ، والله أكبر منهم ، ويصرخ في آذان هؤلاء الذين

غرتهم أنفسهم ، وغرهم الشيطان ، فعبدوا المادة ، ونسوا الروح ، وجحدوا المعاد ، يذكرهم ان وراء الجسم روحاً ، وان بعد الدنيا آخرة ، وان في الوجود رباً يمهل ولا يهمل ، وينسي ولا ينسى ، وان الدنيا لم تدم لأحد حتى تدوم لهم ، وان الموت لم يترك أحداً حتى يتركهم ، وان التراب قد احتوى أمماً من الناس كانوا أشد قوة ، وأكثر مالاً ، وأعظم آثاراً ، وكان لهم المال ، ولهم الجند ، ولهم القلاع ، فما أغنى عنهم مالهم ، ولا دفعت عنهم المنايا جنودهم ، ولا حمتهم من عزرائيل قلاعهم ، وعادوا تراباً كما بدئوا من التراب ، وصاروا أحاديث في الارض ، بل ان أكثرهم لم يبق من يتحدث عنهم ، وسيعرضون بعد ذلك على ربهم يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لا كبير ولا صغير ، ولا سوقة ولا أمير ، ولا غني ولا فقير ، يوم ينادي المنادي : لمن الملك اليوم ، فيجيب المجيب : لله الواحد القهار .

* * *

ان الناس قد نسوا الحقيقة الكبرى ، وظنوا أن الله لم يخلقهم ، وأن الموت لن ينالهم ، وأن الدنيا باقية لهم ، فذكروهم هذه الحقيقة دائماً ، ذكروهم بها دائماً ، وفي الصباح ، وفي الظهيرة ، وفي مطلع النهار ، وفي مهبط الليل ، لعلهم يذكرونها ، ويصدقون بها .

* * *

الحق والقــوة

الحق • ما الحق يا ناس ؟ خبروني ••

لا أسأل عن الحق المجرد الذي يقابل الباطل ، بل الحق الذي هو الملك •

الرغيف الذي اشتريته بمالك حقك ، فان غصبه منك غاصب ، أقوى منك ، وأكله ، فأين بقي حقك ؟

وماذا ينفعك أن يكون (الحق) لك ، والرغيف في بطن الرجل ؟

ماذا يفيدنا ان الحق بامتلاك فلسطين لنا ، وفلسطين نفسها في أيدي اليهــود ؟

والى متى تكرر مهزلة (أوسعته سباً وأودى بالابل) ؟

مهزلة الأعرابي الذي بعثته امه يرعى جمالها ، فرأى العدو ، فوقف يسبه ، ويلعن أباه وجده ، حتى تعب لسانه وكل ، فقعد يستريح ، وترك العدو يذهب بالابل •

ومهزلة الزعماء الذين ملؤوا الدنيا ادعاء ، وفخراً وحماسة ، وهجاء لليهود واحتقاراً • ثم ناموا وأخذ اليهود فلسطين ؟

والى متى نبقى مغفلين مساكين ، لا نفهم أن القوة هي شرع هــذه الدنيا : قوة العلم ، وقوة المال ، وقوة الاتحاد ، وقوة الجيش ، وقبل ذلك كله قوة الايمان ، وقوة الارادة •

وان الحق لمن يأخذه لا لمن يتغنى بذكره ، وينظم فيه القصائد ؟

فانزعوا من نفوسكم ، يا أيها العرب ، هذا الورع البارد ، وهذا الادب الرقيع ، فقد أطعتم هيئة الامم وعصاها اليهود ، ووفيتم وغدروا ،

وعدلتم وجاروا ، ومدحتكم جرائد العالم بأنكم أولاد طيبون مهذبون ، وذمتهم بأنهم شياطين مفسدون ، وانهم قتلة مجرمون . فماذا كانت النتيجة ؟

أخذ اليهود فلسطين ، واعترفت بحكومتهم دول هيئة الامم التي ذبحوا رسولها (برنادوت) !

فحسبكم غفلة يا عرب !

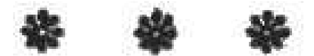
اخلعوا صوف الحملان ، والبسوا جلود الذئاب ، لئلا تأكلكم الذئاب .

مدوا أيديكم ، فخذوا حقكم ، لا تطلبوه من أحد ، فليس في الدنيا أحد يعطيكم حقكم ، أقلوا الكلام ، وأكثروا الفعال ، واتحدوا واستعدوا ، ان يوم المعركة قريب ، فاشتروا السلاح من كل من يبيع السلاح ولو كان الشيطان .

يا أيها العرب ؟

انه قانون تنازع البقاء .

ان هذه الدنيا للمحقين الاقوياء .



الحاج أحمد

لست أدري ما الذي ذكرني هذه الغداة بجارنا ، (الحاج أحمد) الذي مات منذ ثلاثين سنة ، ولم يبق على ظهر الارض من يعرفه ، أو يذكره بخير أو بشر ، وما الذي أيقظ ذكراه في نفسي بعد هذا الامد الطويل ؟

كان تاجراً في سوق الخياطين ، وكان ساكناً بجنب دارنا في (الديمجية) ، وكانت حياته كساقية العين الخضراء ، تجري صافية هادئة عذبة ، لا يكدرها مكدر ، ولا تضطرب فيها موجة ، ولا يمسها أذى ، يقوم كل يوم قبل الفجر ، لأنه ينام بُعيد العشاء ، فيصلي، يستمتع بلذة المناجاة في الاسحار ، ويتذوق حلاوة الطاعات في الخلوات ، فاذا سمع أذان الفجر أيقظ زوجه ، ولم يكن له قريب في الدنيا سواها ، فبدأا نهارهما بمتعة الطاعة ، ولذة الحب ، يجمعهما حمد الرب ، وود القلب ، قد اشتركا في توحيد المحبة ، بعد توحيد الله ، فلا يعرف من النساء غيرها ، ولا تعرف من الرجال سواه ، ثم مشى الى (جامع التوبة) فصلى فيه مع الجماعة ، وقعد يستمع الدرس حتى ترتفع الشمس، ويجيء رفاق (الصبحية) ، وهذه الصبحية فرض لازب في مذهب الدمشقيين لابد منه ، ولا معدى عنه .

يذهبون الى الميزان أو الشاذروان ، أو الى أعالي الربوة من ناحية المزّة ، أو الى ذروة المنشار من جهة الجبل ، فيفطرون وينصبون « السماورات » ، ويشربون ، ويغنون ، ويتحدثون ، حتى تكون الضحوة الكبرى ، فيعودون ليشتروا بأيديهم حاجات بيوتهم ، ويمضوا

الى دكاكينهم ، وهي نظيفة عالية ، فيها السجاد والمساند ، وحولهم قماشهم وبضائعهم ، فباعوا واشتروا ، لا يدينون ولا يستدينون ، ولا يمارون ولا يشارئون ، ولا يكذبون ولا يحلفون ، حتى يؤذن العصر فيصلي الحاج احمد ، ويجمع ما فتح الله به عليه ويسّره له ، ويمضي الى داره ، فيتعشى ، ثم يذهب مع اهله الى (المسوية) .

كان مستريحاً في بيته ، متفقاً مع زوجته ، موفقاً في كسبه ، مطيعاً لربه ، مستمتعاً بصحبه ، يأكل أطيب الطعام ، لأن كل شيء رخيص ، ويلبس أحسن الثياب ، ولا يعرف هماً ولا غماً ، ولا يألف مقهى ولا ملهى ، ولا تعنيه سياسة ولا رياسة ، لا يقرأ الصحف ، ولا يدري ما الاذاعات وما الانتخابات ، وما الحزبيات ، عاش لم يشعر به احد ، ومات فلم يذكره أحد ، ولكنه عاش سعيداً ومات حميداً .

ذكرته لأنه (الشامي الاصلي) ، الذي كادت تفقده دمشق . وما أدري أكان أفقده خيراً لها أم كان شراً .

ولكن الذي أدريه أني تمنيت صباح أمس[1] أن أكون مثل الحاج أحمد ، لأعيش مستريح البال سعيداً مثلما عاش ، وأموت مؤمناً حميداً مثلما مات .

وهيهات ، في هذه الايام ، هيهات ! !

* * *

(١) كتبت على اثر هزة سياسية أصابت الشام .

كن رجلا في حبك

الى السيد م ...

انني قرأت كتابك كله ، لم أهمله كما خشيت ولم ألق به ، واستطعت أن أحزر عمرك ، وميولك ، وطبيعة نفسك ، من غير أن تقول لي شيئاً من ذلك .

أنت شاب في مطلع الشباب ، في السن التي تتيقظ فيها (تلك) العاطفة ، وتقوى وتملأ النفس ، حتى لا يفكر الشاب الا بالمرأة ، ولا يهتم الا بها ، ولا ينظر الا اليها ، وهذا العشق الذي تتوهمه ، والذي سردت لي وصفه في كل ما حفظوك في المدرسة من شعر مجنون ليلى ومجنون لبني وسائر المجانين ـ أعني الشعراء الغزليين ـ هو نتيجة لهذه المقدمات .

وهذه العاطفة كالبخار الذي يصعد من ابريق الماء المغلي ان سددت عليه وحبسته مزق الابريق ، وان رفعت الغطاء طار هباء في الهواء ، وان وصلته بمكبس (بيستون) سيَّر القاطرة ، وأدار المعمل ، فلا تستجب للعاطفة وتتبع الهوى ، فتذهب قوتك هدراً ، ولا تحبسها وتفكر فيها فتنقلب عليك وساوس وعللا ، ولكن تسامَ بها الى فن من الفنون ، فاشتغل بالأدب أو الشعر ، أو التصوير ، أو الموسيقى أو الرياضة ، فانك تستريح من المرض الجنسي ، وتمهد لنفسك طريق الخلود .

هذا رأيي الذي تسألنيه ، وأقبل بعد ذلك على دروسك حتى تنال شهادتك ، وتستقر في الحياة قدمك ، وبعد ذلك فكر في الزواج ..

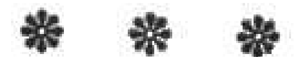
فاذا لم تحب أن تعمل به ، وأصررت على الاتصال بهذه البنت ، التي ملكت عليك لبك ، وأخذت قلبك ، وشغلت عقلك ، وتركتك بلا

قلب ولا عقل ، فكن رجلا في حبك ، لا تكن لصاً يحاول أن يسرق نظرة من النافذة ، وكلمة بالمناسبة ، ثم يتدرج في طريق الشر ، فمن بعد النظرة المجالسة ، ومن بعد الكلمة المقابلة ، ثم ينتهي الامر الى نهايته ، لا يقف دونه شيء ، كالصخرة التي تدحرجها من رأس الجبل ، لا تستقر حتى تبلغ الوادي ، كن رجلا ، واذهب الى أبيها فقل له ، أني أحب ابنتك ، وأظن أنها تحبني ، وأنا أريد أن تزوجني بها ، أو دع أمك تذهب فتخطبها لك من أمها ، هذا هو الباب ، ولكن شباب هذه الايام يتركون الأبواب ، ويدخلون من النوافذ . وما أظن ان والد الفتاة تبلغ به الحماقة ، أن يسمح لك أن تتصل بفتاته بالحب المحرم ، حين بعث بها لتدرس معك في الكلية ، ويمنعها أن تقترن بك بالزواج الحلال ، وماذا عليك أن تتزوج رفيقتك في المدرسة ؟ أليس ذلك خيراً من أن تكونا زوجين بلا زواج ؟ انني أتمنى والله أن يتزوج كل طالب ، وأؤكد أنه سيكون أقدر على الدرس ، وأصفى له ذهناً ، وأفرغ قلباً ..

والا فماذا يصنع الطلاب ، اذا كان الله قد أشعل هذه العاطفة في نفوسهم ، وهم في سن ست عشرة ، واذا كان نظام التعليم لا يوصلهم الى الشهادة قبل العشرين ؟ ماذا يصنعون في هذه السنوات ، وهي أشد سني العمر على الانسان ؟ وفيها تتوقد الشهوة وتضطرم وتحرق الأعصاب ؟

فيا أخي ، اعمد الى التسامي ، واشغل نفسك عن هذه البنت بالرياضة أو بالفنون فان لم تستطع فاخطبها الى أبيها ...

هذا هو جوابي !



مولد الرســولــين

اليوم يقطع ركب الانسانية مرحلة جديدة من طريق الزمان ، واليوم يلتقي عيد عيسى روح الله وكلمته ، بعيد محمد عبد الله ورسوله ، فما للركب يمشي على الانقاض ، ويطأ على الجثث ، وينشق رائحة البارود ؟ وما لأتباع عيسى يودعون الحرب التي مضت ، ليستعدوا للحرب التي تأتي ، لا يهدون ولا يستريحون ؟ وما لأتباع محمد يضيعون أخلاقهم ويذلون وينقسمون ويغلبون ؟ وقد جـاء عيسى ليلقـي على الارض السلام ، وبعث بالتوحيد وبالوحـدة ، وبالعزة والجهاد وليتمم مكارم الاخلاق ؟

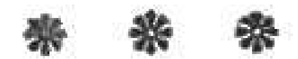
وما لنا أبناء هذا الوطن نحسب اننا باجتماع في الجامع ، وحفلة في الكنيسة ، وبأعلام للفرح تنصب في الطرق ، ومصابيح للزينة توقد في الليل ، ومدافع تطلق ، وتهاني تتبادل ، وسكاكر تقـدم ، نقوم بحق الرسولين العظيمين ؟ ونحن نعصيهما كل يوم ونخالف عن أمرهمـا ، ونتبع غير شريعتهما اللتين بعثهما الله بهما ؟ ونحن نعبد المال واللذاذات من دون الله ، ونحن نعلن الرذيلة ، ونخذل الفضيلة ، ونجهر بالكذب ، ونعيش بالنفاق ، ونحن نغش ونظلم ونخلف الوعد وننسى العهد ؟

وهل يرضي النبيين عنا أننا نقيم لهما الحفلات ، ونطيل فيها الخطب ، نمدحهما بألسنتنا ، ونعصيهما بجوارحنا ؟ كلا والله ما نحن لمحمد ، ولا نحن لعيسى ، وما مسلمنا بالمسلم ، ولا نصرانينا بالنصراني ، حتى يتبع هذا ، الانجيل الحق الذي أنزله الله ، ويتبع ذاك القرآن كتـاب الله ، ونكفر جميعاً بالغرب الذي فرق بيننا ، ليضعفنا فيعدو علينـا ، ونكفر

بمدنيته : مدنية الذئاب لا ينقصها ظفر ولا ناب ، مدنية الحيتـان يأكل قويها ضعيفها ، مدنية البارود والغـاز الخانق والقنبلة الذرية ، مدنية بريء منها عيسى وبريء منها محمد ، وبرئت منها المدنية ، لنأخذ خيرها ولندع شرها ، لنتعلم علومها ولنهجر خلائقها ، ولنعد الى الخلائق التي أمرنا بهـا الله من فوق سبع سموات ، الى الخلائق التي فتحنا الارض لما تخلقنا بها ، وملكنا الدنيا ، وكان لنا السلطان ، ولنا المال ، ولنا العلم، وكان كل خير لنا ، الخلائق التي ضعفنا لما تركناها ، وانقسمنا وذللنا ، حتى غلبتنا بنات اليهود ..

اكفروا بالغرب وآمنوا بأنفسكم ، وبسلائقكم ، وبطيب جوهركم وانه ما فسد هذا الشعب العربي ، كلا ولا أضاع مزاياه ، ولكن فسد زعماؤه ، وانه ما ضل ولكن ضل رؤسـاؤه ، وانه سيتحد وسيقوى ، وسيعز ، وسيكون له المستقبل ، كما كان له الماضي ، وان سيادة العالم ما زالت دولة[1] بين الشرق والغـرب ، فكانت للمصريين والفينيقيين ، ثم صارت لليونان والرومان ، ثم عادت الى العـرب ، ثـم رجعت الى الغرب ، وقد ضعفت اليوم سيادة الغرب ، وشاخت ، وأشـرفت على الزوال ، وستأكلها الحروب ، وتدمرها القنابل الذرية ، ويومئذ تتلفت الانسانية الى الشرق ، الى مهد البشر ، ومبعث الديانات ، ويومئذ تتجه اليكم لتحموا حماها لا تلقى غيركم ، فاستعدوا لذلك اليوم ، فانه يوم قريب ، وعودوا عبيداً لله ، لتعودوا سادة لأهل الأرض .

يا أيها الناس ان أعظم مصيبة تنزل بكم ، هي أن تحتقروا نفوسكم ولا تعرفوا أقداركم .



(١) اي متداولة متبادلة .

واعظ العتبة

لما كنت في مصر ، وصلت يوماً الى (العتبة) ، فوجدت الميدان على اتساعه ، وعلى أنه أكبر من (المرجة) بعشر مرات ، يكاد يكون غاصاً بالناس ، وهم وقوف متراصون ، ليس بينهم الا فرج ضيقة بمقدار ما يمر الترام على الخط ، والسيارة في الطريق ، وسمعت صوتاً مجلجلا قوياً من (مكبر) هائل ، فحسبت انها مظاهرة شعبية ، وأسرعت لأرى ، ودخلت في غمار النـاس مقترباً من مصدر الصوت ، حتى تبينته ، فاذا هو واعظ يتكلم بالعامية البلدية كلاماً يرضى عنه المسلم ، والنصراني ، والملحد الذي لا دين له ، لأنه يدعو الى الله ، والى الفضيلة والصدق والامانة ، وترك الشهوات ، باسلوب عجيب يضرب فيه الامثال ، من حياة البلد ، ويخلط فيه الجد بالهزل ، والحماسة بالنكتة ، والحكمة بالقصة ويرهب ويرغب ، ويبكي ويضحك ، ويمهد للآية من الآيات حتى اذا وصل اليها قرأها مرتلا مجوداً ...

فأحسست أنه قد أخذ بجوانب قلبي ، وداخلتني خشعة لكلامه ، حتى كأن الذي أسمع صوت الحق ، يتكلم من فوق رؤوس البشر ، لا صوت واحد من الناس ، وتلفت حولي فرأيت أن شأن الناس كلهم شأني .

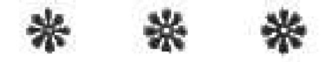
وسألت مَن المتكلم ، فعلمت أنه واعظ في مسجد صغير متوار ، لا يدخله أحد ، وانه يتكلم كل يوم خميس ، ويأتي الناس من أطراف القاهرة التي يسكنها مليونان ، ونصف مليون من البشر ، ليسمعوا كلامه .

ذلك لأن فطرة النــاس تميل الى الخير ، ولأن الايمان مستقر في أعماق كل قلب مهما طغت عليه المادة ، واستهوته اللذاذات ، وتملكته الشهوات ، فاذا وصــل صوت الوعظ الى موطن الايمان من القلب ، تاب الرجل وأناب .

وان الانسان مهما نال من مسرات الدنيا الحسية ، لا يزال يحن الى لذائذ الروح ، ويطلب اطمئنان القلب ، لذلك نرى الناس يقبلون على مَنْ يتوهمون عنده وَهَجاً من نور (الروحانية) ، ولو كان دجــالا مشعوذاً ، يتاجر بالدين ، ويأكل به الدنيــا .

فلماذا لا نجد في الشام مثل واعظ (العتبة) ؟ ولماذا لا نجرد حملات خلقية على مثال الحملات الصحية ؟ نحشد لهــا الوعاظ الصادقين ، من أرباب القلوب ، لا من أرباب الألسنة ، ليوقظوا الخير في النفــوس ، ويحيوا الايمان في القلوب ؟

الجواب عند دائرة الافتاء ، ومدرسيها الذين يقبضون المرتبات من العلماء !



طفـــلان

حدثني صديق لي أديب قال :

رأيت البارحة موهناً[1] وراء ديوان المحـاسبات ، وقهوة الشارع وهاتيك القصور الشم والمنازل العوالي — رأيت مشهداً أقرّ بأني عاجز عن وصفه لكم ، فان كان باقياً لا يزال ، وكانت رحمـة الانسان باقية — لا تزال — فيكم ، فاذهبوا لتروه بعيونكم .

اذهبوا ، وخذوا معكم قلوبكم فانكم ستحتاجون اليها ، واحملوا دموعكم لتريقوها أمام هـذا المشهد الذي يرقق قلب الصخر ، ويفجر بالدمع عيون الجلمود ، ويملأ بالشفقة والحنان أقسى القلوب : قلوب الشياطين والجلادين والمحتكرين .

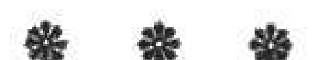
مشهد طفلين ، أحدهما في نحو التاسعة ، والآخر في الرابعة ، ما عليهما الا خرق ومزق وأسمال ، نائمين على الارض عند باب القهوة ، متداخلين متعانقين ، قد التصق الصغير بأخيه ، وألقى برأسه على صدره العاري من اللحم ، يحتمي به من البرد والخوف ، وقسوة الحياة ، وظلم الناس ، ولفه الآخر بذراعه ، يريد أن يدفع عنه بهذه الذراع الهزيلة ، شر هـذا البشر ، ويكون له أماً ، ويكون له أباً .. وكان وجـه الصغير واضحاً في شعاع القمر الشاحب ، فيه الطهر ، وفيه الألم ، وعلى شفتيه المزمومتين

(1) الوهن والموهن نصف الليل .

النظام الديمقراطي الذي يملأ الارض حرية ومساواة وعدلا وأمنا ...

* * *

وخلا شارع بغداد الا من الرياح العاتية ، والكلاب الشاردة ، وهذين الطفلين اللذين يناماn على الارض ، بلا وطاء ولا غطاء . ليس معهما الا أشباح الظلام ، وتهاويل الرعب ، وآلام الجوع والبرد والحرمان !!



بقايا كلام حسبتها من بعيد ، بقايا لعنة حامية ، رمى بها هذا المجتمع ، فلما دنوت ، لم أجد الا آثار شكاة خافتة مبهمة ، رفعها هذا الفم الصغير الذي ما تعلم البيان ، الى الله المنتقم الجبار !

طفلان ينامان في الطريق كالكلاب ، ما تحتهما الا الأرض العارية ، وما فوقهما الا السماء العالية ، والناس الخارجون من القهوة بعد السهرة الممتعة ، والعائدون من الوليمة بعد الأكلة المتخمة ، والرائحون الى بيوتهم من التجار بعد خلوة طويلة أعدوا فيها العدة لجناية جديدة قذرة على هذا الشعب المسكين ، والغادون الى النوادي والملاهي ليبدؤوا سهرة أخرى ، يصبون فيها ما لهم على الموائد الخضر ، ويذوّبون صحتهم في كؤوس الخمر ، ويضيعون دينهم في تلك الليالي الحمر ، في الفسق والعهر ، كل أولئك كانوا يمرون بالطفلين ولكن لا يلتفتون اليهما ، ولا يحفلون بهما ، وهل يحفل أحد بالكلاب النائمة في الطريق ؟

من أين جاء هذان الطفلان ؟ أين أبوهما ؟ أين أمهما ؟ كيف يعيشان؟ هل ابتسم لهما الحظ فوجدا (تنكة زبالة) لأحد الأكابر لينبشاها ، فيستخرجا منها عشاءهما أم باتا على الطوى ؟

لم يسأل أحد ولم يعلم أحد ؟

ولا أنا ... وهل أنا الا واحد من (هؤلاء) الناس ؟!

قال الراوي :

وأسرعت الى أولادي ، أحمل اليهم السكاكر الغالية ، أعدها لهم بجنب السرير ، حتى اذا أصبحوا وجدوها ، وأغطيهم كيلا تصيبهم لفحة هواء في هذه الليلة العاصفة ، حتى اذا أمنت عليهم ، وأرحت ضميري .. قعدت أكتب مقالة في محاربة الشيوعية ، ومكافحة الاجرام ، وتمجيد

عواقب اللذات

كنت أطالع اضبارة في محكمة الجنـايات ، فوجـدت صفحات في الفسوق تثير الشيخ ، وتصبي الحليم ، وتشعل النار في أعصاب الشاب القوي ، حتى ما أظن أن في الدنيا قصة من قصص الأدب المكشوف ، تفعل في اثارة الشهوة فعلها ، فتركت الاضبارة ، وفكرت ...
وقلت ...

ـ هل تريد يا علي الطنطاوي أن تكون مكان هذا الرجل ، تعيش هذا العيش اللذ بين الغيد الأوانس ، والعذارى الفاتنات ، قل ، وخل عنك هذا « الكذب الاجتماعي » ، الذي تعارفه الناس .

فسكت علي الطنطاوي ، وتكلمت نفسه ، فقالت : نعم

ـ قلت : وهل تريد أن تكون مكانه في السجن ؟

ـ قالت : لا ؟

ـ قلت : ولم ؟

ـ قالت : لأن اللذات قد ذهبت ، وبقي عذاب السجن ...

ـ قلت : فلماذا لا تذكر ذلك كلما دعاك الشيطان الى لذة محرمة فملت اليها ، وتقول لنفسك ، انها ستذهب كما ذهبت اللذائذ الماضيات، ويبقى العقاب ؟ ولماذا لا تذكره كلما دعاك العقل الى خير ، فتكاسلت عنه لصعوبة البذل ، ومشقة العمل ، وتقول لنفسك ، انها ستذهب هذه المشقة ويبقى الثواب ؟

فكر فيما عملت من حسنات وخيرات ، بذلت فيها من جهدك ومالك، وخالفت فيها هواك ، ماذا بقي من الصعوبة التي وجدتها عند الحسنات ؟

وماذا بقي من اللذة التي أصبتها عند المعاصي ؟ لقد ذهبت آلام الطاعة وبقي ثوابها ، وذهبت لذات المعصية وبقي عقابها ، كالتلميذ يوم الامتحان ان كان قد جد وجد النجاح ، ونسي تعب المطالعة ، ونصب السهر ، وان كان قد لها ولعب ، فقد متعة اللهو ، وأنس اللعب ، ولقي (السقوط) .

فقِسِ الآتي على الماضي ، ولا تبعْ آجلا خالداً ، بعاجل فان ، ولا تغتر بحلاوة العسل ان كان فيه السم ، ولا تخش مرارة الدواء ، ان كان فيه الشفاء ..

وتصور انك على فراش الموت ، وقد باد الامل ، وجاء الاجل .. ما الذي تحسه في تلك الساعة من حلاوة المعصية ؟ ما الذي بقي لك من متع الجسد والقلب ؟ هل بقي لك شيء منها ؟ هيهات ! لقد نسي الجسد لذات الجسد ، وشغلت النفس عن مسرات النفس ، وضاع المال ، فصار للورثة ما جمعت من مال ، وتصرم الجاه فلا ينفع جاه ، ولا شهرة ولا وظيفة ولا أدب ولا فن ...

وتصور بعد ذلك القيامة وقد قامت ، والصحف وقد نشرت ، والحساب وقد أعلن ، وكل ذرة خير قد قيدت لك ، وكل ذرة من شر قد سجلت عليك ، أحصاه الله ونسيته ، وعدّه وأغفلته ..

أين من نفسك يومئذ موقع هذه اللذاذات ؟ وأين مكان هذه المتع ؟ ما الذي استفدته منها ؟ ما أفدت الا الندم ! وماذا استبقيت منها ؟ ما استبقيت الا الألم !

* * *

فاذكر هذا كل صباح وأنت غاد الى عملك وكل مساء وأنت مضطجع لمنامك .. وكلما أغرتك بشر لذته ، وكلما صدتك عن خير مشقته ... جرب هذه التجربة السهلة ، وانظر كيف تكون بعدها .

* * *

المعلم الاديب

فتحت اليوم درجا لي ، فيه أوراق لم أفتحه من نحو عشرين سنة ، فوجدت صفحات رائعة من قصة ، كنت شرعت فيها ، ونفسي مترعة عاطفة ، وقلبي متفتح للالهام ، ثم قطعتني عنها شواغل التعليم ، (وقد كنت يومئذ معلماً) ، وصرفتها من ذهني ، حتى اني لأجدها الآن غريبة عني ، كأنها لم تكن لي ، ولم أكن كاتبها .. فجعلت أتلوها ، وجعلت صور أيامي الماضية تمر أمام عيني .

.. فأرى تلك الايام ، التي أضعتها في التعليم ، وتلك الافكار والصور التي خسرتها ونكبت بها .. وليس المنكوب مَن ذهب ماله ، أو احترقت داره ، فان الصحة تردُّ المال ، والمال يعيد الدار ، ولكن المنكوب مَن ثكل أفكاره ، وأضاع ذكاءه ، وعاش بائسا يائساً ، ومات مغموراً منكراً ، وقد كان أهلاً لأن يسعد حياً بذكائه ، ويخلد ميتاً بآثاره .

ان المنكوب هو المعلم الاديب ، الذي وهب له الادب ، وكتب عليه التعليم : أنه يسكب ثمرة حياته ، وعصارة قلبه ، وجني الليالي الطوال التي أحياها ساهراً ، عاكفاً على كتبه ، مطفئاً نور عينيه ، مذبلا زهرة شبابه ، يصبها كلها بين أيدي طلاب لا يكاد أكثرهم يحفظ لمعلم عهداً ، ولا يذكر له وداً ، يصبح المعلم الاديب وفي نفسه موضوع المقالة ، وفيها صورها وأفكارها ، ولكنه لا يستطيع أن يكتبها ، انه مشغول عنها بتصحيح وظائف التلاميذ ، هذه الوظائف التي تحرمه لذة المنام ، وأنس السمر ، ومتعة المطالعة ، وتأكل صحته ووقته ، ثم اذا انتهى منها وحملها

الى التلاميذ مصححة لم يتنازل أحدهم الى النظر فيها ، وانما يلقونها في أدراجهم لينظر فيهـا الشيطان ، ثم يأتي الآذن فيجمعها ليوقد بهـا النـار ..

ويعد الدرس وينفق في اعـداده من الجهد مـا لا يعلمه الا الله ، والمخلصون من المعلمين ، ويلقيه مندفعاً متحمساً ، فلا يروعه (ان كان في الابتدائي) الا تلميذ يَخِزُ رفيقه بمرفقه ، ليريه كيف اصطاد ذبابة ، أو ليحدثه (ان كان في الثانوي) حديث رواية في سينما ، أو مباراة على ملعب ، أو تلميذ يقـرأ قصة سخيفة من قصص الجيب ، أو يصور على الورقة ثوراً له قرنان ، أو يرسـم الاستاذ المحتـرم .. وان كان (في الجامعة) ، رأى أمامه فلماً من أفلام الحب ناطقاً بلغة العيون ..

ثم يكبر الطلاب ، فينكرون المعلم وينسونه ، وربما احتـاج الى أحدهم فأراه صنوف الحرمان ، وربما صار أحدهم رئيسه فأذاقه ألوان الأذى ... مسكين والله المعلم !



طنبرجـي !

رأيت أمس في طلعة الشمسية في المهـاجرين (طنبراً) محمـلاً بالحجارة ، يجره بغـل هزيل ، واقفاً في وسط الطريق ، وصـاحبه قد أخـذ برسنه[1] ، وجعل يشده ويصرخ به ، وهـو يحاول السير فلا يستطيع ، فجن جنون (الطنبرجي) ، وأخـذ يشتم البغل ، ويلعن أباه ويسب دينه ، ثم أخذ سوطه ونزل به ضرباً على وجهه ، لا يبـالي أين أصاب منه ، أنفه أم عينه أم فمه ، والحيوان المسكين يتلفت يمنة ويسرة ، يحاول أن يتفلت فتمنعه القيود ، ثم تناول حجراً فرضخ به رأسه ، حتى سال دمه ، وسقط على الارض ..

يحسب الأحمق ، أنه ان اشتد على البغل يسيره ويرد عليه قواه ، لا يدري انه يزيده بذلك ضعفاً ، وان السبيل لتسييره هو التخفيف عنه واراحته ، لا ضربه وايذاؤه ، وان (البطولة) ليست بضرب البغل المقيد الذي لا يستطيع أن يفـر أو أن يرفس ، بل بمواجهة الأسد المتوثب ، ومقابلة الدب الجائع ، وليست بالبطش بالضعيف ، بل بمنازلة القوي ، أما أن يؤدب المعلم تلميذه فيقسو عليه قسوة جبـار ، يريد أن يهلك لا أن يصلح ، ويربي الأب ولده فيضربه ضرب مجرم ، لا ضرب مربٍّ ، ويعامل الزوج امرأته معاملة (نمرود) عات لا معاملة زوج حبيب ، فهذا اسمه في العربية (النذالة) لا (البطولة) ..

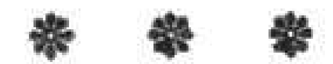
وان كل من حمل فوق طاقته سقط ، سواء في ذلك الناس والدواب

---

(١) الرسن من العامي الفصيح .

والجماد : الجدار الذي يركب عليه بسقف لا تحمله أخشابه ينهدم ، والموظف الذي يكلف بنفقات لا يتسع لها راتبه يسرق ، والشعب الذي يطالب بضرائب لا تقدر عليها أمواله يفلس ، وكل (طنبر) لا يخفف عنه ، يقف ويسقط (البغل) الذي يجره ، وان دفعته أيدي السالكين..

فهل نعتبر أم نكون مثل (طنبرجي) المهاجرين ؟



من حديث السيدات

لست أدري ماذا تقول السيـدات والآنسات حين يقرأن هـذه الكلمة ! أيشكرنني ان مدحتهن ونوهت بهن ، أم يذممني لأني نقدتهن ونبهت الى خلة ذميمة من خلالهن ؟ اني أسارع ، فأرفع الراية البيضاء ، وألقي السلاح ، وأقر بأن النساء أذكى منـا جماعة الرجال ، وأوعى قلوباً ، وأحد أذهاناً ، لأن الرجال الأغبياء ... لو اجتمع منهم عشرة في مجلس لما تكلم الا واحد ، والباقون ساكتون يستمعون ، أما النساء فكل واحدة تتكلم بلسانها ، وتصغي بقلبها ، وتسمع بأذنيها ، ولا تجتمع أربع نسوة في سهرة أو استقبال الا ملأن الحارة كلها بأصواتهن الحلوة ، وأحـاديثهن المفيدة ... يستوي في ذلك السيدات المهـذبات في بهو الاستقبال في المنزل ، والمعلمات المثقفات في غرفة الاستراحة في المدرسة ، والنساء المتنزهات على شط النهر في صدر الباز أو على حافة البستان في شارع بغداد ...

أما الذي دفع بي الى هذه الكلمة ، فهو أني بقيت في الدار ، وبسطت على المكتب أمامي كتباً ومراجع ، وأقبلت على عمل لي ، وكان في الغرفة الاخرى عائدات يعدن زوجتي الناقهة من مرض ألم بها : قريبة لها نَصَف وفتاة نالت الشهادة الثانوية وعمتي العجوز وأختي ، ونشب الحديث واحتدم ، حتى أحسست أن الموضوع يتطاير من جوانب رأسي لم يبق منه شيء ، ثم شعرت ان رأسي نفسه يكاد يتفجر ، فأغلقت الباب بيني وبينهن ، فوصل الحديث من النجران[1] والقفل ، ثم نفـذ من صفائح

---

(1) ما هو نسميه زعرور الباب .

الباب ، وقرب سمعي ، وهربت الى المطبخ والقبو ، والصوت يلاحقني ، فما كان مني الا أن حملت ثيابي وحذائي ، ولبست في الدهليز ، وفررت من المنزل ...

بدأت الزائرة تسأل المريضة عن مرضها ، فانطلقت تحدثها ، فلم تبدأ حديثها حتى سألت الفتاة عن نجاحها ، فراحت تصف لها وقوفها أمام الراد في انتظار النتيجة ، وذكرت العجوز شهادتها الرشدية التي نالتها سنة الف وثلاثمئة (فقط) ، اي والله ! والشهادة عندي ومع ذلك لم ينشر اسمها مع مَن لهن حق الانتخاب من النساء ، فجعلت هي أيضاً تتحدث عن أيامها الماضيات ، وانبثق خلال ذلك حديث عن الثوب الذي تلبسه الزائرة .. وانطلقت هذه الأحاديث معاً ، فكنت تسمع :

« وأتينا بثلاثة أطباء ــ وكنا أنا وأهلي حافين بالراد ــ ولكني لما رأيت (الكسم) أول مرة ــ أعطاني (أوبوبيل) لأنه جزم أن الداء في الكبد ــ وحبسنا أنفاسنا ، فلم نكن نسمع الا زفرات محموم ، وجاء الطبيب الثاني ــ ولم يعجبني لأنه مزموم الخصر وذيله طويل ــ وصرنا نعد الثواني والثوالث والاذاعة تقدم ليلى مراد ــ فاختصمت معها ولكنها أكدت ان هذه هي (الموضة) ــ وقال ان أصل الداء ــ مدير الاذاعة الذي كلفنا هذه المشقة لئلا يبدل النظام ــ وتبين أنه لا يصلح لشيء ولم أستفد من دوائه ــ وكان ثوباً جميلا لأنه ــ أعطاني (بروبيدون) ونجحت ــ ولكن لم أنجح بل تخرّق جسمي بالابر ــ وأخذت الخياطة خمسين ليرة ، وأخذ الأطباء ، وشعرت أني أطير من غيظي من هؤلاء الاطباء » .

وكان هذا كله يتخلله عشرات الضحكات والصرخات ــ يخرج بنفس واحد ، وبين ذلك أصوات غير مفهومة ، وثلاثة أحاديث أخرى

لم أشر اليها ، فكان الموضوع قصة من قصص الجن التي لا أول لها ولا آخر ، أو أغنية الشيطان التي لم أسمعها ، ولكني سمعت الناس يتحدثون عنهـا ، وكانت أوركسترا طمطمانية عجيبة متنافرة الألحان ، متضاربة الأنغام ، كأنها الموسيقى الفرنجية التي كانت تتحفنا بها الاذاعة ، ليثبت القائمون عليها أنهم يفهمون بـ ••• الأفرنجي !

أفهذه هي أحاديثكن يا سيداتي ويا آنساتي ؟!



سـاندوتش

كنت أمس مستعجلا ، فلم أستطع الذهاب الى المطعم الذي أتغذى فيه كل يوم ، فدخلت واحداً من مطاعم الشطائر (السندوتش) فأكلت واقفاً : آخذ الشطيرة بيد ، وكأس المـاء بيد ، وقضيت الغداء في ست دقائق ، وخرجت أفكر في ذلك الأجنبي العصامي (غـروبي) ، الذي ابتدع هـذه المطاعم في الشرق ، فبدأ عمله صغيراً ثم انتهى الى انشاء محـلات غروبي العظيمة في القـاهرة ، ثم الى افتتاح محـلات (آ • الاميريكيين) ، التي وفرت على الناس الوقت والمـال ، وصارت ملتقى الاصدقاء ، ومواعيد الأحبّاء ، وصار بها صاحبها من أرباب الملايين •

ثم فكرت فقلت : وما فائدة هذه العجلة ؟

واذا كان الآكل يدع المائدة ، ويأكل الشطائر واقفاً ، والأديب يترك الكتاب ، ويقرأ المجلاتمسرعا ، والباحث لا يحقق ولا يدقق ، والكاتب لا يتـأمل ولا يتمهل ، وكل شيء يجري بسرعة ، وكل شيء يتم على الماشي ••• أمورنا العـامة والخاصة ، ترتجـل ارتجالا ، ومشاكلنـا السياسية والاقتصادية نفكر فيها في دقيقة ، ليسلحكومة من الحكومات العربية منهج معين ، ولا لجامعة الدول العـربية خطة مرسومة ، فمـا النتيجة ؟ وما هذه الحياة التي نقبل عليهـا ، حياة الاستعجال ، ومـا آخرتهـا ؟

ومتى نقعد فنفكر ونبحث ، ونشرع المنـاهج لسياستنا الداخلية

والخارجية والاقتصادية ، ونرسم لها الطريق الواضح ، الذي لا يضر معه تبدل الحكومات ، ولا تغير الاحزاب ؟

متـــى ...

هل نبقى دائما نغذي أجسامنا بالساندوتش على الواقف ، ونغذي عقولنا بالمجلات على الماشي ، ونبني سياستنا على الارتجال ، ونركض دائما مثل المجانين ، ليست لنا خطة تتبعها ، ولا غاية تقصدها ؟

أهذا شأن أمة تريد أن تعيش ؟!

* * *

الرشــوة

ان مما ادال دولة آل عثمان ، وعجل هلاكها ، أن قلت فيها الأمانة ، وكثرت الرشوة ، وصــار صاحب الحاجة عند الحكومة ، لا يصل الى حاجته الا ان أمده وجيه بوجاهته ، أو سفيه بسفاهته ، أو كان له شفيع عريان ، كشفيع امرأة الفرزدق ، أو كان له من ماله ما يفتح له الأبواب ، ويذلل الصعاب ... فان عَدم كل أولئك لم ينفعه مع ضعفه أن يكون الحق معه ، وبقي مطرحا مهملا ، وذهب حقه ضياعا ... وصار الموظف الحازم الصارم الأمين غريبا ، كأنه تخلف عن قافلة الزمان ، فجاء في غير زمانه فصار غريبا منكرا في أوطانه ...

وكانت دولة آل عثمان يومئذ كالعجوز الفانية التي أتى عليها الدهر ، وأقامها على شفير القبر ، فلم يكن عجيبا أن تتصف بهذه الصفات ، انما العجيب حقا أن يكون في الدنيا أمة شابة حديثة عهد بالاستقلال ، تريد أن تبني مجدها ، وتشق في الحياة طريقها ، وتكون لها هــذه الصفات التي لا تبني لصاحبها الا القبر ، ولا تشق له الا طريق الموت .

وأعجب منه أن يكون في هــذه الأمة امــراء مقتدرون ، وعقلاء مفكرون ، ولا يعالجون هــذا المرض العضــال ، الذي يفني الجسم ، فيأكل اللحم ، ويتعرق العظم ، وأن تسكت عنــه الأمة ، وتراه مصيبة لا بد من الصبر عليها ، أو بلية لا يمكن دفعها ...

مع أن المجرم الاول (في رأيي أنا) ليس الموظف الذي يأخذ ، بل (المــراجع) الذي يعطي ، يتوهم انه ان لم يعط الموظف الصغير عطّل عمله ، وأخّر حاجته ، وهو ان شكاه الى رؤسائه لم يعــدم فيهم من يضرب على يده ، ويأخذه بالتي لا رحمة فيها ولا خلاص منها ، ليجعله

عبرة للمعتبر ، فان لم يستجب له الرؤساء ، شكا لمن هم أكبر ، أو رفع أمره الى البرلمان ، أو عرضه في الصحف ، ولكن كل واحد من المراجعين المعطين ، يقول : مالي ولهذا العناء ؟ أما قضيت حاجتي ، وأنجزت عملي ، فمالي ولمعاداة موظف قد أحتاج اليه ؟ ولماذا أسعى في قطع رزقه ، وقطع الأرزاق مثل قطع الاعناق ...

وكذلك يستمر الفساد وينتشر ، ولا يدري به رئيس الدائرة الفاسدة ...

ولا أبرىء الرؤساء لا والله ـ ولا ينجي الرئيس عند الله أن يصلح نفسه ، وأن يدع أعوانه راتعين في أموال الناس ، لا يعلم بهم ولا يدري من عملهم الا أنه يحول الاوراق اليهم ، ثم يعيدونها اليه فيمضيها لهم ، لا ينجّيه الا أن يدهم الكتاب والاعوان في كل ساعة مرة يفاجئهم يسألهم عن أعمالهم ، فان تأخرت معاملة عن وقتها أو عوّقت أو أفسدت علم بها ، وأن يدس من يثق به من المراجعين ليغمز جوانب الموظفين بالعطايا ، فينظر من هو الرخو اللين ومن هو الصلب المتين ...

فان أمسك مرتشيا ولو بليرة واحدة أخذه أخذة رابية ، وضربه بسيف القانون الذي لا يظلم أحدا ضربة تكف شره ، وتربي غيره ، أمّا هذه الرحمة الآثمة ، وهذه العاطفة المخنثة ، الرحمة بالمجرم فانها لا يحبها الله ولا يقرها القانون ، ولا يسيغها العاقلون ...

وأن لا يدع رئيس في دائرته عاملا غير ذي راتب ثابت ، فهو يأخذ من الناس ، لا دلالا ولا ملازما ولا ناسخا ولا فرضيا ولا مسكينا ولا لاجئا ، ولو ظن أنه يستطيع أن يراقبه ويحدد له الأجر الذي يناله .. وأن يبعد عنها الوسطاء والمختارين والمعقبين ، فانهم لا يدخلون حتى يدخل الأذى أمامهم .

وأن يحرص على اختيار الخبراء من أهل الحق والدين ، ووجود الخبراء في دوائر الحكومة من أوسع أبواب الفساد ، لأن الأجر الذي

يفــرض لهم لا يعــدل عشر معشار الرشوة التي تعــرض عليهم ، ولا يستطيعون الثبات الا ان أمدهم الله بمثل أخلاق الصديقين ، ولا علاج لذلك الا بأن تصنع حكومتنا مثلما صنعت حكومة مصر[1] فتنشيء دائرة للخبراء من المجازين أهل الاختصاص فتجعلهم موظفين ، وتكون أجور خبرتهم واردات للخزينة ... وبذلك تأخذ الخزينة أكثر ما تدفعه اليهم ، ويندريء عن الامة شر كبير ...

وبعد فانه ان لم يكن الرئيس أميناً ، وتكن له عين صقر ، فهو يرى كل ظاهر وخفي في دائرته ، وأذن فهد ، فهو يسمع كل همس بعيد يكون فيه نقد لها ، ويد أسد ، فهو يضرب الخائن ضربة لا يقوم بعدها ، وان لم يعينه المــراجعون على ذلك ، ويخبروه بكل ما يرون في دائرته من الفساد ، ان لم يكن ذلك لم يكن اصلاح أبدا ...

فيا أيها المراجعون ويا أصحاب المعاملات أنتم المسؤولون ان رأيتم الفساد فسكتم ، أو سئلتم الرشوة فأعطيتم أو استخبرتم خبرها فكذبتم أو كتمتم . والاصلاح بأيديكم أنتم ، ثم في أيدي الرؤساء !

* * *

(1) اذكر القاريء بأن هذه الكلمة وسائر كلمات الكتاب كتبت من نحو عشر سنين .

آلات ...

« نشرت يوم افتتاح الجمعية التأسيسية »

دفعت أمس كلمتي الى (النصـر) وخـرجت ، واذا بأخوين من اخواننا في المدرسة مهندسين ، قد اتخذا لهما مكتبا بجوار الجريدة ، فدعواني ورحنا نتعلل بأحاديث الماضي ، ونترشف ذكريات الصبا ،حتى لمحت على النضد أمامهما آلة جديدة لم أرَ مثلها ، فسألتهما عنها فشرحا لي أمرها ، واذا هي آلة تجمع وتطرح وتضرب وتحسب ، وتفعل ما كان يعجز عنه معروف الارناؤوط رحمه الله ، ويعجز عنه أكثر الأدباء ، ثم أرياني آلة أخرى ، لها ساعدان أحدهما ثابت والآخر لين متحرك ، تدور على محيط (الشكل الهندسي) مهما كان متعرجا ملتويا . فاذا وصلت الى حيث ابتدأت ، رأيت أرقاما تدل على مساحته المربعة ... فكدت أفقد عقلي من شدة العجب ، ورأيت هذه الآلة أقدر مني ومن رفاقنا في المدرسة سعيد الافغاني وزكي المحاسني وعبد الكريم الكرمي وجميـل سلطان ، وتحسب في ثانية ما لا يستطيعون حسابه في عشر سنين ... ولا في عشر سنين وأسبوع !

وحدثني عن آلات اخرى لا ينقصها لتكون انسانا له عقل الا أن تنطق .

قال : ومن ذلك الآلة التي جاؤوا بها حديثا ، لفرز الاصوات فـي الانتخاب قلت : ما دامت الصناعة قد تقـدمت ، والآلات قـد كثرت وأحكمت ، فلماذا نجد في بعض (البرلمانات) ، آلات ابتدائية قديمة ،

لا تتحرك الا° اذا أديرت بأيدي الحكام ، ولا تأتي الا° بحركتين فقط : رفع اليد عند التصويت ، ومد اليد عند القبض ؟

ولماذا لا نطلب آلات جديدة من هذه الآلات الحاسبة الكاتبة المفكرة ، نضعها على (كثير من) مقاعد المجلس ، ونريح بها هؤلاء الاخوان الكرام من تكلف ما لا يحسنون ، وتحمل ما لا يطيقون ، والزامهم بأن يأتوا بالمعجزات وقد انقضى عصر المعجزات ، فيضعوا القوانين ، ويناقشوا الموازنات ويجادلوا أقطاب الفكر ، وأركان الحقوق بمعلومات الصف الثالث الابتدائي ، أو بعلوم (السرتيفيكا) ؟

ولماذا لا نكتفي بهذه الآلات عنهم ، ونردهم الى مزارعهم أو الى مخازنهم ...

ـ قال : وأي النواب تقصد بهذا ؟

ـ قلت : أليس كلامي واضحا ؟ انني لا أقصد الا° نواب بلوجستان المجاورة للافغان ، هؤلاء وحدهم الذين أقصدهم ، صدقني !

* * *

الجهــاز

قال لي قاض شرعي :

ـ ان اكثر الخلاف بين الزوجين منشؤه (الجهاز) امَّا أن يخفيه الرجل ، فلا تعرف المرأة أين هو ، ولا تستطيع أن تصل اليه ، ويصعب عليها وصفه وتعيينه للادعاء بــه ، وقدِّر بعــد ذلك ما شئت من طول المحاكمة وثقل النفقات ، ومراوغات المحامين وأكاذيب الشاهدين ؛ وامَّا أن تحجز هي عليه لدين كاذب ، في دعوى صورية .. فتأخذه من بيت الرجل جبرا ، فتحفر بين قلبه وقلبها هوة قلَّ أن يلتقي بعدها القلبان !

ثم ان الجهاز وهو رأس مال المرأة وثمن أعز ما تملك في دنياها وهو جني حياتها ، وكسب عمرها ، يفرش في بيت الرجل لأهله ولضيوفه ، فيفسدونه ويبلونه ، وهي تنظر ولا تتكلم ، وتحس اذ ترى غليظا يقعد عليه كأنه يقعد على أشفار عينيها ، مع أن المهر حق لها وحدها ، لا لزوجها ولا لأبيها ، تتصرف به التصرف الذي يحلو لها ..

والجهاز بعد هذا يكلف الأب مثلما يكلف الزوج ، ويرهقه ويخرب بيته ، والأسلوب المعقول الذي أرجو أن يتبعه الناس وينشروه ، هو أن يشترى بالمهر شيء للمرأة يبقى ، عقارا أو حلية ، وأن يفرش الرجل بيته على مقدار طاقته ، فتكون المرأة قد أخذت حقها بيدها ، وبقي ذخرا لها ولأولادها وأولاد زوجها الى وقت الحاجة وسن الهرم ، ويكون الرجل مالكا لكل ما في داره ، لا سلطان لأحد عليه ، ولا يدخل عليه (موظف) لحجز ، ولا (مباشر) بمذكرة ، ويسد بذلك باب من أوسع أبواب الخلاف بين الازواج .

فهل يقبل الشاميون على اتباع هذا الاسلوب ؟

❋ ❋ ❋

الدمغة الافرنجية

كثيراً ما كنت أناقش أناساً من (المجددين ..) فآتيهم بالكلمة الخالدة لأحد علماء الشرق ، فيقلبون شفاههم ، ويتجعدون جباههم ، ويعرضون عنها ازدراء لها ، فأجيئهم بالكلمة مثلها وفي معناها لعالم افرنجي ، فيسمعون ويخضعون ويهزون رؤوسهم اكباراً لها واعجابابها..

وأنقل القاعدة الشرعية عن فقيه من فقهائنا فيأبونها ، فان نقلت هذه القاعدة عن فقيه افرنجي قبلوها .

ويَحتقِرون العادة من عاداتنا ، فان علموا أن شعبا من شعوب أوربا الراقية أو أميركا قد اعتادها عظّموها .

كأنّ الخير لا يكون خيراً لذاته بل لـ (الماركة الافرنجية) عليه ، والشر لا يكون شراً لذاته بل للطابع الشرقي عليه ، وكأنّ كل افرنجي خير من كل شرقي لأنهم أقوياء ولأننا ضعاف .

ومن هنا كل ما نرى من مظاهر التقليد السخيف ، للافرنج ، حتى فيما لا مجال للتقليد فيه كالحب والبغض والطرب ، ودعوى هؤلاء القوم (كذبا) أنهم يطربون لسمفونيات بيتهوفن أكثر مما يطربون لغناء أم كلثوم ، وتهزهم أشعار بول فاليري ، أكثر مما يهزهم شعر الشريف الرضي .

ومن هنا ليّ ألسنتهم باللسان الفرنسي أو الانكليزي ، وترك العربية لسان أمتهم ، يحسبون أن كل من رطن بكلمات من لسان الانكليز صار

بما صاحب الاسطول البريطاني ، ومالك القنبلة الذرية ..

ومن هنا ما نشكو من ضياع مجدنا وهواننا على الأمم .

فاذا أردتم أن نسود وأن يعود لنا مجدنا ، فأعيدوا لنا ثقتنا بأنفسنا ، واعتزازنا بعربيتنا وشرقيتنا وخلائقنا ، ولنأخذ بعد ذلك كل نافع نجده عند الأمم ، لنقتبس علومهم وفنونهم ، والصالح من عاداتهم ، ولنتعلم ألسنتهم ، ولندرس آدابهم ، ولنسمع موسيقاهم ـ بشرط أن يسلم لنا ديننا ولساننا .

* * *

فيـــل في الترام

ركبت أمس (لأصعد الى المهاجرين) الترام النازل ، فلما وصل الى المرجة ، أقبلت امرأة عجوز لتركب فصرخ بها السائق :

ــ مو رايح ، انزلي ، مو رايح .

ــ قالت : والله صار لي ساعة وأنا واقفة ما كنت ألقى محلاً فــي الترام القادم من الحميدية ، واني أدفع الأجرة من هنا الى الحميدية .

ــ قال : انزلي بلا كلام فارغ .

فنزلت ، وصعد كهل يحمل صرة ، فقال له : انزل .

ــ قال : لماذا أنزل ؟ قال : اذن هات أجرة .

ــ قال : من هنا الى الحميدية ؟

ــ قال : نعم . هات .

فدفع ، وسار الترام فتعلق به شاب قوي ، فنظر اليه الكمساري فقال له : لماذا تنظر الي ؟ أما أعجبتك ، أو انك تريد أجرة من هنا الى الحميدية ؟

ــ قال : لا . لا أريد شيئاً .

وبقي راكبا . وأنا أنظر صامتاً .

ووصل الى الحميدية ، وكان الناس ينتظرون في وسط الطريق لأنه ليس للترام محطات لها رصيف كما هي المحطات في مصر ، وكما تكون في كل بلاد الناس ، فأقبلوا ليركبوا فنقل (الكمساري) الباب ورفــع

الدرج وقال : دوروا من الجهة الأخرى ، فلما ذهبوا ليدوروا مشى الترام ، فتعلق بعضهم وركض بعض ، فكادت تسحقهم السيارات •
وامتلأ الترام حتى لم يبق فيه مكان ومشى ، فلما وصل الى المرجة اذا أمام العدلية حشد من الناس ينتظرون من ربع ساعة ، لأن الشركة تنقص الحافلات في ساعة الازدحام ، وتزيدها في ساعات الفراغ •• فكان تزاحم وتراص ، وصعد هؤلاء الناس كلهم ، واختلط النساء بالرجال بالاطفال ، وتداخلت الارجل ، وتقابلت الوجوه ، وتلامست الرؤوس ، فلما وصل الى (الطاووسية) ، صعد اليه مثل أولئك عددا •• وكان فيمن صعد رجل يبدو عليه أنه من أغنياء الحرب ، له طول (العائدي) وعرض (الساطي) ، فزاحم وهاجم حتى صعد ، ووقف في الباب فسده كله ، حتى ما تستطيع أن تمر منه قطة من تحت ولا عصفور من فوق ، واتكأ بهذا الجبل من الشحم واللحم على كتف رجل قاعد حيال الباب ، فجعل الرجل يتململ ويتحرك ، والبلاء نازل عليه ، والكابوس جاثم فوقه ، حتى ضاق صبره فقال :

ـ انتبه يا سيد لقد سحقتني •

فنظر اليه من عليائه وتأمله كما يتأمل الصبي نملة وقال له :

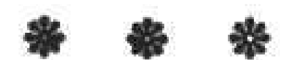
ـ اذا لم يعجبك خذلك سيارة خاصة !

واحتدم الجدال ، حتى حال بينهما الركاب ، وتمت الهدنة ، وانتقل (الفيل) ، فوقف في وسط الترام والركاب من حوله ، كأنهم بيوت القرية وهو مأذنة الجامع وأرخى يديه • فكان كلما اهتز الترام مال ، وكلما مال الى جهة جدت له فيها ضحايا ، فمن قدم داس عليها بهذا الثقل ، ومن رجل نزل على كتفيه ، ومن ولد دعسه ، ثم كانت الطامة ، اذ وقف الترام

فجأة فسقط فوق امرأة مسكينة كما سقط (كوكب الشرق) في بيروت منذ عشر سنين ...

* * *

وبعد فهذه صورة تتكرر كل يوم أحببت أن أطرف بها من يملكون الأمر والنهي وأسليهم بتلاوتها ، وأنا أثق أنهم سيرون فيها شيئا جديدا لا يعرفونه ، لأن القدر لم يكتب عليهم أن يدخلوا هذا السجن الخانق الذي اسمه (الترام) .



جواب على استفتاء

قامت به مجلة المرأة

« نشرت سنة ١٩٤٨ »

أتكلم بصراحة أم احاول المجاملة ، وهل أصلح للمجاملة وأنا رجل قاض مشتغل بالادب والقضاء لا يعرف الميل ، والأدب ليس فيه كتمان؟ انني يا سيدي سأقول ما أعتقد ، فان أرضيتك وأرضيت القارئات فالحمد لله ، والاّ فقد عملتها ورزقي على الله .

يا أستاذ ، اني لم أدر الى اليوم بأنّ في سورية (شيئاً) اسمه (نهضة المرأة السورية المعاصرة) ، فكيف تريد مني أن أحكم على ما لم أعرف ، وعلماؤنا يقولون ، الحكم على الشيء فرع من تصوره ؟

أنا أعرف أن النساء كنّ جاهلات فصار فيهنّ متخرجات في المدارس، وحاملات شهادات وانهنّ كنّ متحجبات فصار فيهن السافرات ، وكنّ مقصورات في البيوت فصرنَ يخرجنَ الى السينمات ، والحفلات ، وكنّ لايدرين ماذا يجري في الدنيا ، فصرنَ يقرأنَ الصحف والمجلات ... فهل هذه هي (النهضة) التي تسألني عنها ، ان كانت هي النهضة فاسمع « غير مأمور » رأيي فيها ، وان كانت النهضة (شيئاً) غير هذا ، فأرجو منك ومن كتاب هذه المجلة وكاتباتها أن يُعَرّفوني به ، فاني أقرّ بأني أجهله.

أما تعلم المرأة ، وانشاء المدارس لها ، فلا أظن أنّ في الدنيا من يكرهه أو ينكره ، وانما نكره فيه أموراً كان يمكن أن نصلحها ، وأن ندفع شرها .

أكره من تعليم المرأة ، أن يكون البرنامج الذي تسير عليه هو عين

ما يسير عليه الطالب ، وأتمنى أن نجعل للبنات منذ الشهادة الابتدائية مناهج خاصة ، تقل فيها من العلوم النظرية التي لا يحتجن اليها كالجبر والمثلثات وعلوم الطبيعة وتفاصيل تواريخ الامم البعيدة عنها ، ونكثر من دروس الصحة وتدبير المنزل والتربية والأخلاق وما يتصل بحياتهن . هذه واحدة .

والثانية اني لا أرى الاختلاط بين الجنسين في المدارس ، ولا في كليات الجامعة ، لا لموانع الدين فقط ، فقد يكون من القراء من لا يحرص مع الأسف على تتبع أوامر الدين ونواهيه ، بل لأن هذا الاختلاط اذا قلت نتائجه السيئة في فرنسا وانكلترا وأميركا لطول اعتياد أهلها عليه، فان خطره شديد في بلاد خرجت رأساً من الحجاب السابغ الى هذا الاختلاط ، على قوة الغريزة ، وشدة الرغبة ، وطول الحرمان ، وهذه مصر جربت الاختلاط في الجامعة قبلنا ، ولا تزال الى اليوم تشعر بأضراره ، وقد ظهرت فيها رغبة قوية من الطالبات أنفسهن في الانفصال عن الشباب ، ومَن شاء فليقرأ خبر ذلك في جرائد مصر ، وفي آخر عدد وصل الى الشام من (أخبار اليوم) .

وأنا مستعد للمناقشة في هذا الموضوع بلسان الواقع والعلم لا بلسان الدين ، فمن شاء فليناقشني . أما التسرع الى الرد علي بأن هذه رجعية وجمود ، فلا ينفع شيئاً ، لأنه لو كان كل جديد نافعاً ، وكان كل قديم ضاراً ، لكان أشد الأشياء ضرراً العقل ، لأن العقل أقدم من الشرع ، وكان أنفع الاشياء في هذا الباب مذهب العري ، وأن نمشي في الجامعة وغيرها مثل الحيوانات ، لأن مذهب العري أحدث المذاهب ...

وأما الحجاب ، فأنا لست عدواً له . ولكني لا أكره أن يكون سفور كسفور الراهبات أو الجبليات ، سفور محتشم فاضل ، لا يعقب اختلاطاً غير مشروع ، ولا اغراقاً في الانطلاق غير معقول ، وقد فرغ

العلماء من زمن بعيد من تقرير أنّ الوجه ليس (في الاصل) بعورة ، وانما يغطى عند خوف الفتنة ، أي عندما يكون كشفه سبباً الى المعصية، وهذا مذهبنا (الحنفي) ، وسيغضب ناس من هذا الكلام ، ولكن هؤلاء الناس سخفاء ، يناموت والسيل يطغى ، فلا يفيقون الا اذا قام مصلح يحاول أن يضع السدود في وجه هذا السيل ، ومتى تكلموا أثبت لهم أنّ نساءهم سائرات مع القافلة لا الى السفور الشرعي ، بل الى التكشف القبيح كما صار في مصر ، وانّ لباسهنّ اليوم يختلف عما كنّ يلبسنَ من عشرين سنة .

وأما حبس المرأة في بيتها حبساً مؤبداً ، لا تخرج منه أبداً ، فلم يقل به الشرع ولا العقل ولا هو بالممكن . ولكن الذي قاله الشرع هو نهي المرأة عن أن تتبرج تبرج الجاهلية الاولى ، وعن أن تخرج مخرجاً يؤدي الى الاضرار بخلقها الشخصي وبعفافها ، أو الى الاضرار بالاخلاق العامة وبالعفاف ، ولاشك عندي أن خروج المرأة وحدها الى السينمات أو الحفلات مما نهى الشرع عنه ، ولست أكره السينما لذاتها فالسينما لغة من اللغات ، كلماتها الصور ، يمكن أن يعرض فيها الخير والشر ، والنافع والضار ، وقد عرض فيها الحج ومنظر الكعبة ، فهي كالشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، لكنا لا نجد فلماً نافعاً خالياً من الخلاعة الظاهرة ، يستطيع رجل أن يأخذ معه اليه زوجته أو أخته ويجلسها بحيث لا تختلط بالرجال الاختلاط المحرم ، أو يرونها الرؤية التي تؤدي الى الفتنة .

وأما قراءة النساء الصحف والمجلات ومعرفتهن ما يجري في الدنيا، فهو حسن ، بشرطين أن لا يكون ذلك شغل المرأة بحيث يشغلها عن بيتها وزوجها وولدها ، وأن تختار أحسن ما يقرأ ، وتجتنب المجلات التي لا ثمرة لها الا اضاعة الوقت ، ونشر الفساد في الارض ، وتلقين الفتيات الصغيرات ودروس الغرام ، وفن المواعيد ، وقواعد القبَل ، ولا يكون

هذا الا بالاكثار من المجلات النسائية التي تجمع بين الفائدة والرشاقة، والمنفعة واللذة .

فهل هذا ما تسمونه (نهضة المرأة السورية المعاصرة) ؟ وهل أنتج هذا وجود طبقة من العالمات أو الاديبات ، يزاحمن الرجال في ميدان العلم وفي مجال الادب ، بالفكر المبتكر والأسلوب المبدع ؟ وهل رفع المرأة (السورية المعاصرة) عن أن تكون أمة لكل (موضة) حديثة، أو بدعة جديدة ترد علينا من الغرب ؟ وهل جعل النساء المتعلمات اسمى في تفكيرهن ومعالجتهن لمشاكل الحياة ، وأحوالهن في غضبهن ورضاهن من سائر النساء ، أم اقتصر الأمر على حفظ طائفة من المعلومات من غير أن تمتزج بالنفس ، وتتمثل في الفكر ؟ وهذا هو العدد الممتاز (أو المختار كما تريدون) من هذه المجلة ، فأروني أين هي آثار هذه النهضة على أقلام الكاتبات الفاضلات ؟ أين فيهن (مدام كوري) وأين (مي) وأين (الخنساء) ؟

لا والله لست عدواً للمرأة . وكيف وأمي امرأة ، وزوجتي امرأة ، وبناتي الاربع نساء ؟ لا ولكني صديق لها . ومن صداقتي أقول هذا الكلام .

ولهذا الكلام فضول وذيول ...

* * *

محاربة الشيوعية

جاء في (نصر) الأمس (أنّ أئمة الأزهر يعدون فتوى تؤكد أنّ الدين الاسلامي يتعارض مع الشيوعية ، وأنهم سيقولون في ختام منشورهم أنّ المسلم الحقيقي لا يمكن أنْ يكون شيوعياً) .

وأقول أنا : نعم ، ولكن لا يمكن أيضاً أن يكون (انكليزياً) ولا (أميركياً) ولا يستغل مبادىء الدين الصحيحة ، لخدمة أغراض السياسة الباطلة ، ونحن نكره الشيوعية ولا نرجو منها خيراً ، ولكننا نكره معها الديموقراطية لأنّا لم نجد فيها خيراً ، وما من مصيبة نزلت بنا في هذي البلاد ، وفي فلسطين الا ّ كان سببها الانكليز أولاً وتلاميذهم الاميركان ثانياً ...

فلا تنسوا هذا يا سادتنا العلماء !

ثم ... خبروني يا أيها العلماء الأجلاء الذين سيصدرون هذا المنشور ، ثم يأوون الى بيوتهم العامرة ، فيناموا على فرش الحرير ، مستريحة ضمائرهم ، مطمئنة نفوسهم الى أنهم قاموا بما يجب عليهم ، فدفعوا عن مصر خطر الشيوعية ، وأنقذوها من شرورها ..

خبروني ، هل أنتم جادون ؟

هل تعتقدون أنّ الشيوعية تحارب بالفتاوي والمنشورات ؟

وهل تقنع بذلك هذه القطعان البشرية التي تعيش في مصر دون عيش السوائم ؟

هؤلاء الحفاة العراة الجياع الذين يسكنون عشش الترجمان وبولاق وسفوح المقطم ؟

هؤلاء الرجال الذين كنت أراهم يغتسلون في النيل عراة كما خلقهم الله تحت جسر الملك الصالح ، الذي يلتقي عنده خطا ترام وخطا أتوبوس ، ولا يخلو ساعة من الناس ؟

هؤلاء الذين ينامون الليل كله تحت المقاعد العامة في العتبة الخضراء وفي أصول الجدران ؟

هؤلاء الذين يفتك بأجسادهم المرض ، ويقتل نفوسهم الجهل ؟

هؤلاء الذين يفتقرون فلا يملك المليون منهم جنيهاً واحداً ليملك الواحد من غيرهم مليوناً ؟

هؤلاء الذين يعمل الآلاف منهم في عزبة الباشا أو البك سنة ، يجوعون ويتعبون ليقدموا له ما ينفقه هو أو ولده في (الاريزونا) و (الاوبرج) في ليلة واحدة أو ليال معدودات[1] .

هؤلاء الذين أبصرت بعيني أولادهم ينبشون أكوام الزبل كالكلاب ليلقوا فيها شيئاً يأكلونه ، على حين أنّ من كلاب الأغنياء ما له خادم خاص لخدمته ، ونظام (ريجيم) خاص لطعامه ، وطبيب خاص لعلاجه ، ومخصصات من الحليب واللحم والشوكولاطة تقدم له كل يوم ؟

أتظنون يا سادتي العلماء أنّ هؤلاء لا يسمعون بمنشوركم حتى يلعنوا الشيوعية ومن جاء بها ، ويحمدوا الله على البعد عنها ؟

لا والله ، انهم سيصيرون من الشيوعيين ان أوهموهم أنّ في الشيوعية خلاصهم ، وسيكونون مع الشياطين ان أخبروهم أنّ في ذلك نجاتهم .

فان أردتم أن تحاربوا الشيوعية حقاً ، فحاربوها بنشر العدالة الاسلامية ، وأذيعوا في الناس مؤكدين أنّ الدين يحارب هذا الظلم ، كما يحارب الشيوعية ... والاّ فاسكتوا !

* * *

(1) كان هذا كله على عهد فاروق ، ومن أجله قامت هذه الثورة .

عتـــابـا

كنا جماعة من الخلطاء ، وكان الرادء [1] يصدح بصوت خافت ،فلا يكاد يحس به أحد منا ، أو يلقي اليه بالا ، أو يشعر بوجوده ، وكان الحديث ثائراً بيننا ، كالعاصفة الهوجاء ، لا يتجه وجهة ، ولا يستقر في مكان ، تتكلم كالنساء ولا يصغي منا أحد ، حتى حط الراد على أغنية من أغاني العتابا الأصيلة .. فأصاخ السامرون وأصغوا ، وفتر الحديث وانقطع ، وتعلقت بهذه الاغنية القلوب ، فانتقلت بها الى متعة الذكرى، ونشوة الأمل ، وغاب كل واحد منا عن حاضره الذي يعيش فيه ، في سكرة من سكرات الاحلام ، ردت عليه سوالف أيامه ، فعاد الى ملعب حبه ، وموسم قلبه .. وكذلك تصنـــع (العتابـــا) الأصيلة في نفوس الشاميين .

هذه الأغنية الخالدة التي لا تمل ، ولا يرغب عنها ، ولا يزهد فيها، الاغنية التي لا يدري أحد من نظم أول مقطع منها ، ولا يفكر في ذلك أحد ، لأنها صارت من ذخائر الأمة ، ومن (أملاك الدولة) ، كنفائس المتاحف ، وغابات الجبال ، ومنابع البترول ، يزيدكل مصلح فيها ، ولكنه لا يزال كل (جيل) [2] من الأمة يضم اليها دوراً جديداً ، يذوب فـــي الأغنية ويغدو منها .

الأغنية التي لا أول لها ، والتي لا آخر لها .

أغنية بلادنا : انبثقت من صخور لبنان ، شرقية وغربية ورَويت من

---

(١) الراد كلمة وضعتها للراديو لأنه يرد الصوت ، ومحطة الاذاعة هي المذيـــاع .

(٢) الجيل في اللغة الأمة من النـــاس فالعرب جيـــل والترك جيـــل ، واستعمالها بمعنى البطن من الامة مولد .

ينابيع لبنان ، وتوشحت بسحر لبنان ، فلا تزال تردّدها كل ذروة من ذراه ، ويصدح بها كل واد من أوديته وتهمس بها كل عين من عيونه ، وتوسوس بها كل ساقية من سواقيه ، وتشدو بها كل شجرة ، وتصدح كل حمامة ، ويلحن كل طائر ، فاذا غنى بها مغن معمود الفؤاد ، في أذن الليل الحالم غنت معه الجبال والأودية ، والينابيع والسواقي ، والشجر والطير فكان من ذلك (أوركسترا) عالمية خالدة لا تشبهها أغاني البشر .

فيها صور الوطن ، بقراه وحقوله ، ومسراته وأحزانه والشباب العاشقين مع الفتيات الفاتنات عند العين ، والشيوخ السامرين على المصطبة في ضوء القمر ، ومشاهد البطولة ومعارض الكرم .

هذه موسيقانا ، منا ، والينا ، وفينا .

هذه التي نطرب لها ونهتز ، وندع لها وقارنا ، ونترك أحلامنا . لا تلك الموسيقى الجديدة .. التي تتلوى بها الألسنة ، وتقلب الأصوات ويقول المغني : آه ... بصوت مخنوق متقطع ، تحسبه صراخ نفساء قد أخذها الطلق ، فخرج نصفه حشرجة ، وبقي نصفه عالقاً في الحلق ، ولا الموسيقى الفرنجية ، التي تشبه أصوات خمسة كلاب ، وخمس قطط ، ربطتها ورحت تدعس على أذنابها فانطلقت تنبح وتموء بـ (المقلوب) ، وفي الطريق (طنبر) يمشي على الوعر ! !

* * *

هذه موسيقانا ، فردوها علينا ، واحفظوها لنا .

* * *

العبقريات الضائعة

لقيت اليوم أجير لحام لا تزيد سنه على عشر سنوات ، ثيابه أسمال ممزقة قذرة ، وقدماه حافيتان ، والأوساخ تغطي وجهه فأغضيت عيني عنه اشمئزازا ، ثم لحظت أن وراء هذه الاوساخ ذكاء يلوح في وجهه وعينه ، كالشمس التي تلوح من وراء السحاب ، فكلمته فاذا هو أعجوبة في حدة ذهنه ، ومضاء فكره ، ورأيته يجمع ويطرح الحسبة الكبيرة في لحظة واحدة ، فقلت له لماذا لا تدخل المدرسة ؟ قال « وكاد الدمع ينبثق من عينيه » : أبي ميت وأمي ميتة ، وأنا أنام في بيت عمتي الفقيرة وأشتغل لآكـــل •••

فرقّ قلبي له حتى كدت أبكي أنا أيضاً وواسيته بما أستطيع •

وجعلت أفكر في أمثاله من الجاهلين الشاردين في الطرقات ، والذين يحملون سلال الخضر ومعاجن [1] الخبز وصحون اللحم أو يكنسون الطرق ، أو يسلكون سبيل الاجرام ، كم بينهم من فتى لو تعلم لكان عبقرياً نابغاً ، ولكنّ الفقر قد ساقه الى الجهل والجهل قد دفعه الى الهوان أو الاجرام ، فخسر نفسه وخسرته أمته ؟••

وكم بين القراء المجهولين مَنْ هو أقرأ من الشيخ رفعة ، وكم بين العازفين المغمورين مَنْ هو أبرع من المعروفين المشهورين ، وكم بين المشايخ المتوارين ، مَنْ هو أعلم بالادب وفنونه ، واللغة وعلومها من استاذ الجامعة ، وعضو المجمع ، ومدرس الجامع • وكـــم في البيوت الحقيرة ، والخيام الصغيرة ، مَنْ هي أجمل من أستروليامز ، وريتاهيوارث ،

(١) المعجن منه العامي الفصيح •

وأشد سحراً ، وأقوى فتونا ... ولكنّ أناساً وقفوا تحت المصابيح ، فكشفت فضائلهم ، وأناساً قعدوا في الظلام ، فلم يرهم الاّ من يعرفهم !

وكم في عقلاء العامة من فيلسوف لو تثقف لكان هنري برغسون العرب ، وكم في زجّاليهم من شاعر لو تعلم لكان(شوقي) بعد شوقي، وكم في كتّاب العرائض من محام لو درس لكان نابغة المحامين .

أفليس حراماً أن نضيع هذه الكنوز ؟ وأن نترك هـذه اللآلىء مطمورة في التراب ؟.

واذا كان مخرجو السينما يذرعون الأرض ، يفتشون عن الوجـه الجميل ، أو الصوت الفـاتن أو الساق أو النهد ، ليعرضوه على أنظار أهل الارض .

فمتى تكون في الناس جمعيات خيرية ، تفتش عن النبوغ الكامن والعبقريات المتوارية والكفايات الضائعة ؟



كــلب !

حدثني رجل كبير القدر ، صادق اللهجة ، قال :

كنت في لندن ، فرأيت صفاً طويلا من الناس ، يمشي الواحد منهم على عقب الآخر ، ممتداً من وسط الشارع الى آخره فسألت ، فقالوا ، ان هنا (مركز توزيع) ، وانّ الناس يمشون اليه صفاً ، كلما جاء واحد أخذ آخر الصف ، فلا يكون تزاحم ولا تدافع ، ولا يتقدم أحد دوره ، ولو كان الوزير ، ولو كان أمامه الكناس . وتلك عادتهم في كل مكان ، على مدخل الكنيسة وعلى باب السينما ، وأمام بائع الجريدة ، وعند ركوب الترام ، أو صعود القطار .

قـــال :

ونظرت فرأيت في الصف كلباً في فمه سلة ، وهو يمشي مع الناس ، كلما خطوا خطوة ، خطا خطوة ، لا يحاول أن يتعدى دوره ، أو يسبق من أمامه ، ولا يسعى مَنْ وراءه أن يسبقه ، ولا يجد غضاضة أن يمشي وراء كلب ، ما دام قد سبقه الكلب .

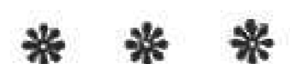
فقلت : ما هذا ؟

قالوا ، كلب يرسله صاحبه بهذه السلة ، وفيها الثمن والبطاقة فيأتيه بنصيبه من (الاعاشة) ..

لما سمعت هذه القصة خجلت من نفسي أن يكون الكلب قد دخل في النظام ، وتعلم آداب المجتمع ، ونحن لا نزال نبصر أناساً في أكمل

هيئة ، وأفخم زي ، تراهم فتحسبهم من الأكابر ... يزاحمونك ليصعدوا الترام قبلك ، بعد ما وضعت رجلك على درجته ، أو يمدون أيديهم من فوق رأسك الى شباك البريد وأنت جئت قبلهم ، وأنت صاحب الدور دونهم ، أو يقفزون ليدخلوا قبلك على الطبيب وأنت تنظر متأملاً من ساعتين وهم انما وثبوا من الباب الى المحراب ؟

خجلت من رجال لم يتعلموا الانتظام ، الذي تعلمته الكلاب ؟



دفاع عن العربيــة

قرأت في (رسائل سائر) للعالم المصري محمد سليمان رحمه الله ، أنه ضلّ في شوارع أثينة ، فكان يسأل من يعرف أنه يعلم العربيةفيفهم عنه بها ، ولكنه يرد باليونانية ، اعتزازاً بها وعصبية لها ؟ وسمعت ممن ساح في تركيا ، انك لا تلقى فيها لوحة واحدة بلسان اجنبي عنها ، ولا تستمع فيها الا الحديث بلسانها .

وهذا دأب كل أمة حية في الدنيا ، تعتز بلسانهـــا ، وتحرص على لغتها ، وتعدها أولى مفاخرها ، وعماد استقلالها ، فمالنا نحن تتظرف بالرطانة بلغـــات غيرنا ، ونحسب ذلك تمدناً ورقيـــا ؟ وما لشبابنا في الشام كانوا يعوجون لسانهم أيام الفرنسيين ليتحدثوا بالفرنسية ، فلما ذهب الله بفرنســا ، وصارت (الموضــة) انكليزيــة صاروا يرطنون بالانكليزية ؟ وما لشباب لبنان يتكلمون بلسان خليط ، فيأتون بالفعل العربي وبالفاعل الفرنسي ، وبالمبتدأ الفرنسي والخبر العربي ؟ ومـــا (للاوساط الراقية) في مصر لاتنطق الا الفرنسية ، اي والله وان كلمتهم بالعربية لغة بلادهم ، احتقروك ولم يجيبوك ؟ وما لنسائنا يحسبن أن (كالسون) الفرنسية أرق من (سراويل) العربية ، و (ايشارب) أجمل من (وشاح) ، و (روب دوشامبر) أحسن من (برد) ، و (تايور) خـير من (معطف) ، و (أوروفوار) و (كودباي) أحـلى من (في أمان الله) و (مع السلامة) ؟ وما لتجارنا الذين لا يبيعون الا للعرب ، يكتبون لوحات مخازنهم بلغات الأجانب ، أو يكتبون الكلمات الاجنبية بالحروف العربية (لوفيسيل)و(ساش موديل)و(روكسي)و(هافانا)؟.

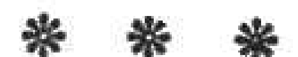
وقد عادوا الى هذه العادة القبيحة ، بعدما هجروها أمداً طويلاً !

أوَ ليس من أعجب العجب ، أن لغة العرب ، وهي معجزة البشر ، في سعة مفرداتها ، وضبط قواعدها ، وحسن اشتقاقها وغزارة أدبها ، وانها ولدت مع الدهر ، فلم يدرك طفولتها التاريخ ، ولم يعرفها الناس الا كاملة قد هجرها أبناؤها في بلادها ، وصاروا جاهلين بها ، وان لغة الانكليز ، وهي لمامة من اللغات ، ليس لها أصل العربيـة ، ولا شرف نسبها ، ولا طهارة دمها ، وانها لغة لا قواعد لها ولا ضوابط ، ففيهـا حروف تكتب ولا تقرأ ، وحروف تقرأ ولا تكتب ، والحرف يقـرأ في الكلمة على غير ما يقرؤه في الاخرى ـ صارت بفضل عناية أبنائها بها وخدمتهم لها ، أشهر لغة في العالم ؟

آه لو ان العربية كانت لغة أمة كالانكليز ، أو لو ان الاسلام كان دينهم ، اذن لرأيتم كيف تكون العربيـة في الدنيـا ، وكيف يكون الاسلام ؟

ولكنها مع الأسف لغتنا نحن . لغة القوم الأُلى أنا منهم ، فماذا أستطيع أن أقول عنهم ؟

أَأسب نفسي وقومي ؟



عودوا الى محمد

هذا يوم مولد محمد ـ فيا أيها العرب جميعاً من مسلمين ومن نصارى ، مَنْ شاء منكم أن يعرف فضل محمد على العرب ، فليفكر أين كان العرب في التاريخ لولا محمد ؟

أيُّ ثقافة كانت لهم وجماع ثقافتهم هذا الشعر : شعر بدوي في أغراض البدو ، وصور البادية ؟ أيُّ عز كان لهم ، وملكهم في العراق مدير ناحية في دولة كسرى ، وملكهم في الشام عامل في مملكة قيصر ، أي جامعة كانت لهم وهم أشتات لا تربطهم أخوة العروبة ، بل تجمعهم رابطة القبيلة ، وكانوا مختلفين أبداً : اليمن تعادي عدنان ، وبكر تحارب تغلب ، وعبس تناوىء ذبيان ، وكان أمرهم فوضى ، لا شرعة الا شرعة القوة ، ولا حكم الا حكم السيف ، وكانوا قابعين وراء رمالهم ، قانعين بسوء حالهم ، وبلاغة مقالهم ، على طيب العنصر ، ونقاء الجوهر . فمَن الذي بدّلهم تبديلا بين عشية وضحاها حتى كأن قد خلقوا به خلقاً آخر ؟ مَنْ صنع من انقسامهم وحدة لم تعرف لها الدنيا شبيهاً ؟ ومن جهلهم أمة علّمت أمم الأرض ؟ وأخرجهم من عزلتهم حتى فتحوا بسيفه الدنيا ، وهدوا بهدْيه العالم ، ورفعوا بيده رايتهم على كل أرض وتحت كل نجم ؟

مَن الذي أقام حضارة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة والقيروان وأصفهان وبلخ ودهلي [1] ، الا محمد ؟

---

(١) هي بلدنا نحن واسمها عندنا دهلي وعند الانكليز دلهي .

مَن الذي أخرج القادة الذين كانوا عباقرة الميـادين ، وأبطـال الحروب الاّ محمد ؟

مَنْ نشّأ العلماء الذين كانوا نبراس الدنيا ، وهداة العقول ، في كل علم معقول أو منقول ، الاّ محمد ؟

مَنْ مدّ للعرب أسباب المجد ، وأعطاهم مفاتيح الخلود الاّ محمد؟

أيّ مفخرة يفخر بها اليوم عربي ، لم تكن من صنع محمد ؟

احذفوا من تاريخ العرب كل شيء اسلامي ، ثم انظروا ماذا يبقى !

انه لن يبقى منه شيء ، الا المعلقات وخطبة قس بن ساعدة ومعارك البسوس وداحس والغبراء ، وقصر الخورنق في الشمال وغمدان في الجنوب .. هذا الذي يبقى ، أما الحضارة التي دنا بها التاريخ ، وأفضلنا بها على الناس ، وهذه الملايين من الكتب التي ألّفناها ، ومئات الالوف من العظماء الذين أنجبناهم ، وعشرات الألوف من المعارك التي خضناها ، ومناقب الحق والخير التي ملأنا بها الدنيا ، فهي كلها من آثار محمد ؟

فاذا احتفلنا اليوم بمولد محمد ، فانما نحتفل بمولد المجد العربي لأنّ تاريخنا الحق انما ولد يوم ولد محمد .

على ان هذا الاحتفـال لا يجدي اذا كان أقصى مداه حفلة مولد تقيمها الأوقاف في الأموي ، وحفلات تدعو اليها الجمعيات تلقى فيهـا الخطب ، وتسمع فيها الأغاني ، ومقالات تنشر في الصحف ، ويبقى كل شيء على ما كان عليه . انّ الاحتفال بالمولد ان يكون لذكراه في حاضرنا مثل ما كان له في ماضينا .

وما كان الاسلام عمامة ولحية ، ولا كان تظاهراً وتفاخراً ، ولا كان قرآنا يتغنى به للطرب ، ولا أحاديث تقرأ للتبرك ، ولا كان في المسلمين مَنْ يكذب أو يغش أو يخون ، بل الاسلام عقيدة تقحم الجبال ، لا

يخشى صاحبها في الحق الفقر ، لأنه يعلم انَّ الرزق مقسوم ، ولا يخاف في الواجب الموت ، لأنه يوقن انَّ الأجل محتوم ، وعبادة اخلاص لا عبادة رياء ، وتدبر للقرآن وعمل به ، وصدق في القول وفي الفعل ، وأمانة في الغيبة وفي الحضور ، وعفاف في الخلوة وفي الملأ ، واتحاد وتعاون على الخير ، وجهاد للنفس وللعدو ، وهذا هو هدي محمد الذي جعل أجدادنا ملوك الدنيا ، وسادة الأرض ، وهذه عاقبة تركنا هدي محمد : ذللنا حتى غلبنا على ديارنا اليهود ...

فاذا أردتم يا أيها العرب أن تحتفلوا بمولد محمد حقاً ، فعودوا الى محمد ، يَعُدْ لكم عزُّكم ، ويرجع مجدكم ، وتسودوا الدنيا مرة أخرى ...

* * *

بتـــرول

قرأت أن أمير (احدى المحميات العربية) سيصير عما قريب أغنى رجل في العالم ، وأن البترول الذي ظهر في أرضه .. سيأتيه كل سنة بـ ... بمبلغ نسيت والله مقداره من ضخامته ...

قرأت هذا الخبر فكدت من العجب أفقد عقلي .

أيأخذ شيخ هذه المحمية وحده ثمن البترول ، ويتصرف فيه على هواه ، ويبيع به أمتـــه ، بأمجادها وكرامتها ، للأجنبي ، ولا يقول له أحد : ماذا صنعت ؟

ومن أعطاه هذا البترول ؟ ومن كتب له به سند التمليـــك ؟ ومتى صبه أبوه وجدُّه في هذه الارض ، وحفظه له ليرثه كما يرث عباءة أبيه ودار جدِّه ؟

في أي عصر نعيش أيها الناس ؟

انه بترول هذه الارض التي أكلت أجساد أجدادنا ، وشربت دماءهم: أرض العرب . فهل ترونها ادخرته في بطنها ثلاثة ملايين سنة ، حتى يأتي في آخر الزمان الشيخ الفلاني فيأخذه وحده ملكاً خالصاً له ، ليعطيـه لأميركا أو لانكلترا ؟

اني لأسأل مرة ثانية : في أي عصر نعيش ؟

وأين هي ديموقراطية اميركا وانكلترا ؟ أمن شرع الديموقراطية انْ نَبَعَ البترول في صحارى كاليفورنيا أن يكون ملكاً لترومان ، ينعم بثمنه هو وأولاده وعبيده (ان كان له عبيد) ، ويسخّر لشهواتهـم ولذاذاتهم ، ويترك الشعب في بلائه وشقائه ؟

الديموقراطية كلمة يونانية الأصل ، جاءت من (ديموس) أي الشعب ، وكل شيء في الديموقراطية للشعب ، وخيرات الوطن وبترول الأرض لأصحاب الأرض .

فلماذا لا يكون بترول أرض العرب للعرب ، يسخر لمصالحهم ويشترى به لهم المجد والقوة ، والحضارة والعلاء ، لماذا لا تصير به أرض العرب جنات فيها من كل الثمرات ؟ وفيها المدن والمصانع والقلاع والمدارس ، وفيها الطرق والجسور وكل ما أنتجت المدنية وأثمر العمران ؟ أليس ملك الشعب ؟

اني لأسأل ، فهل من مجيب ؟ !



دمـوع

رأيت اليوم وأنا على (القوس) طفلاً أشقر جميلا صغيراً جداً ، يتسلق درج القوس ، فحسبته ابن أحد المتداعيات قد أطلقته يعبث في القاعة ، فهممت بزجره ، ولكني رأيته يتقدم مطمئناً ثابت الخطى ، حتى أقبل فوضع خدّه على ظهر كفي ، وجعل يتمسح بي كالقطـة الحلوة الأليفة ، فنظرت اليه واذا هو ابن الأخ الشهيد الذي قتل ظلما : الشيخ عادل العلواني ، فاستعبرت ورقّ قلبي وتركته حيث وقف ، وخالفت لأول مرة من عشرين سنة نظام الجلسات وقواعد المحاكمة ، مع أنّ ابنة لي في مثل سنه جاءت مرة (واحدة) المحكمة مع أمها ، فنادتني وركضت لتصعد القوس فأبكيتها وأنزلتها وأخرجتها ، ولكن الطفل كان متعوداً على ذلك أيام أبيه فلم أشأ أن أكسر قلبه •

وقال لي الطفل فجأة :

ــ صعي مات بابا ؟

فأحسست كأن قد وقع على وجهي سوط من نار ، ونفر الدمع من عيني ، وانعقد لساني فلم أجب •

وسكت هنيهة ثم قال :

ــ وين بابا ؟ طوّل ! ايمتى بدو يزي (يعني : يجي) •

فلم أنطق ، فقال :

ــ ليس (يعني : ليش) كل ما سألت عنه ماما بتبكي ؟ الكبار بيبكو سي ؟ (شي) •

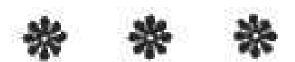
ــ ... ...

ـ ما عاد بابا زاب (جاب) لنا سكر وين بابا ؟

فأعطيته سكاكر كانت في جيبي فاشتغل بها ثم أقبل عليّ ورفع وجهه اليّ ، وقال مهتماً :

ـ عمو ! نزلوا له الدم لبابا ، سفت (شفت) الدم ع الدرز(الدرج) ليس نزلوا له الدم لبابا ؟ سوساوالون ، ليس ما بحبوه لبابا ؟ أنا بحب بابـا ؟

وتعطلت الجلسة ، وتحولت الى مناحة . النساء ينشجن والمحامون والكاتب والمحضر وأنا كلنا غلبنا البكاء !



الاغـاني المكررة

من الدروس القيمة التي تلقيناها عن أساتذتنـا وصرت بفضـل نسيانها من الكتاب ، أن كل موضوع انشائي يجب أن يبـدأ بوصف الزمان والمكان والأشخاص .

وأنا أحب أن أعود اليوم الى الأخذ بهذه الدروس وأمري الى الله .. أنا الآن في ادارة « الايام » ، والوقت صباح الأحد وقد جئت أدفع اليهم كلمة اليوم ، وهي في جيبي ، ولكني تركتها وقعدت أكتب هذه الكلمة .

اني أريد أن أرفع شكاتي الى القراء الكرام ، نزلت من الدارماشياً أفكر ، فما وصلت الى قريب عرنوس ، حتى سمعت الى جنبي من دكان بقال هناك ، امرأة تنادي تؤكد للناس أنها عصفورة : « أنا عصفورة . أنا . أنا . أنا عصفورة » فأسرعت فما خطوت خطوات حتى سمعت من شباك البيت « أنا عصفورة » ، فجاوزته فطلع عليّ الصوت من القهوة « أنا عصفورة » ...

وهذا شيء حلو ، لاشك في حلاوته ، لفظ جميل ، وصوت عذب ، ونغم مقبول ، ولكن المصيبة أننا سمعنا أمس الأول أيضاً «أنا عصفورة» ، وقبل ذلك بيوم « أنا عصفورة » ، ومن أسبوع « أنا عصفورة » ، وقد أحصيت على الاذاعة الى الآن ستاً وستين مرة بالعدد « أنا عصفورة ... أنا ... أنا ... أنا عصفورة » .

فهل هذا شيء يحتمل ، سألتكم بالله !

يسمع الانسان الأغنية أول مرة فيطرب لها ، ويسمعها الثانيـة فيستحسنها ، ويسمعها الثالثة فلا يكرهها ، أما اذا أعدتها عليه الصبح

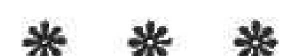
والمساء ، وألقيتها في أذنه في البيت وفي الطريق فانها تصير عذاباً وبلاء.

أمسك رجلا فقيراً ، لا يزال يشتهي البقلاوة ، فأطعمه قطعة بقلاوة يلتهمها ويشكرك ، أما اذا حبسته ثلاثة أيام لا تطعمه الا البقـلاوة ، تدسها في فمه راضياً وكارهاً ، جوعان وشبعان ، فانه يرى البقلاوة سماً ناقعـاً .

فماذا تقول مديرية الاذاعة ؟

هل تنوي أن تسمعنا غداً « أنا عصفورة » ؟!

هل تصر على أن تعيد على اسماعنا كل أغنية مائة مرة حتى تكره الينا الفن ، وتنغص علينا لذة الطرب ؟



عصفور من الشرق

تأليف الاستاذ توفيق الحكيم

الاستاذ توفيق الحكيم من أكبر أدبائنا القصصيين . لايكاد ينازع في ذلك أحد ، ومن أكثر الأدباء انتاجاً وأخصبهم قريحة . عالج أنواعاً من القصة فوفق فيهـا وأتى بالمعجب المطرب ، ومن ذلك قصته الأخيرة « عصفور من الشرق » التي فرغت من قراءتها الآن ، فأحسست كأني كنت في جنة سحـرية ، ثم هبطت الى الأرض ، وتمنيت لو طال نفس الأستاذ فيها حتى ما تنتهي . وأكبر ما أعجبني فيها هذه النظرة الى الغرب وماديته ، وهذه القولة الجريئة في بيان حقيقة الغرب وتخلفه في ميدان الروح ، على سبقه في مجال المادة ، تلك التي لو قالها غير الأستاذ توفيق الحكيم لأتهمه هؤلاء المفتونون بالغرب من شباننـا بالجمود والرجعية وما الى ذلك من الالفـاظ التي حفظوها حفظ الببغاوات ، وما فتئوا يرددونها ترديد الحاكي ، فلما قالها الأستاذ الحكيم وهو الذي يعترفون بأدبه ، ويقرون بسمو منزلته ، ويتمثلون بأقواله ، سكتوا ولكن على مضض . وهذه ميزة كبيرة للقصة ترتفع فيها الى صف القصص العالمية التي لم تنشأ لمجرد اللهو ، ولامتاع القـارىء بالجمـال الفني ، وانما جمعت الى الجمال الفني نظرة تحليلية اصلاحية عميقة ، غير أني آخذت على القصة أشياء ، منها ما يتصل بالفن ، ومنها ما يمس الدين ، ومنها ما يعود الى اللغة . أسأل عنها الأستاذ الحكيم ، ليوضح منها ما خفي ، ويفتح ما استغلق .

أولها : ان القصة تكاد تكون مؤلفة من حلقات ثلاث لا صلة بينها الا صلة محسن الذي يمر فيهـا جميعاً ، أندوه وأمه العجوز وزوجها الهرم ، ودارهم التي وصفهـا المؤلف وبيَّن أنه لا مورد لشيخي الدار الا ما يأتي من محسن ، وبدا للقارىء أن بين محسن وأهل الدار أكثر مما يكون بين مستأجر وبين أصحاب المنزل • فلمـا انتقل محسن الى المنزل ، انقطع الحديث عن والدي أندريه وعن منزلهمـا ، على حين أن القارىء يتشوف للعودة الى حديثهما ، وما كان من أمرهما بعد انتقال محسن •

والحلقة الثانية : سوزي التي أحبها محسن وشغف بهـا ثم انتهت العلاقة بينهما على هذا الشكل ، ولم يرجع لها في القصة ذكر ، مع أن القارىء يحب أن يسمع شيئاً عنها ويعجب من محسن هذا الذي كان مستهاماً عاشقاً ، لا يفكر الا في هذه التي يحبها ، كيف ينساها أبداً ولا يجري اسمها على لسانه ولا تمر صورتها في جنانه ، ولا يبقى لها أثر في نفسه ؟ ما هكذا عهدنا المحبين يغفلون ، فأي حب هذا ؟

والحلقة الثالثة : ايفان الذي أنطقه المؤلف بأصح الآراء وأثمنها في حضارة الغـرب ومذاهبه الفكرية ، وهي حلقة منفردة عن الحلقتين ، ولكنها حلقة مفرغة ، ليس فيها نقص ولا خرم •

أما ما يتصل بالدين ، فهو أن الأستاذ ينظر الى السيدة زينب نظر المسيحيين الى القديسين والشفعاء ، فيسميها حامية ، وينسب اليها الضر والنفع ، ويطلب منها ويتوسل اليها ، وهذا كله مخالف لروح التوحيد الذي جاء به الاسلام ، فليس في الاسلام حماة ولا وسطاء بين الله وعباده ، ولا ينفع ولا يضر الا الله ، واذا كان الله يقول لرسوله الأعظم : (ليس لك من الأمر شيء) واذا كان النبي يقول لابنته فاطمة : (يا فاطمة بنت

محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً) فماذا تصنع السيدة زينب للأستاذ الحكيم ؟ وكيف تحميه من الله الذي لا يشفع عنده واحـد الا باذنه ، فهل أذن لها الله بحماية الناس ، أم ان من الناس قوماً (شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟

أما ما يعود الى اللغة ، فشيء يعرفه الناس من لغة الأستاذ ، لا حاجة الى بيانه .

هذا واني أهتبل هـذه الفرصة لأرفع الى الأستاذ الحكيم تحياتي واكباري .



في الرياضة

الرياضة ، أربع رياضات :
رياضة للصحة والنشاط وابعاد الامراض .
ورياضة للقوة ولدفع العدوان .
ورياضة لحوز البطولات والفوز بالاعجاب .
ورياضة للنظام وللاستعداد للحياة العسكرية .

أما رياضة الصحة فهي التي لا يستغني عنها أحد ولا بد منها للطفل وللشيخ ، وللرجل وللمرأة ، وللصحيح وللعليل ، وأفضل أنواعها الحركات السويدية ، على نحو ما يجيء في الاذاعات صباحاً ، والمشي والسباحة واستعمال بعض الادوات كالكرات الخفيفة ومطاط ساندو ، على أن يختار كل امريء ما يصلحه وما لا يثقل عليه وما يشير عليه به طبيبه ، وعلى أن يقترن ذلك بالغذاء الموائم ، والهواء النقي ، والمنزل الصحي ، ولو أنّ الموظفين الذين يمضون أعمارهم قاعدين على الكراسي ، وأمثالهم من التجار وممن لا يضطره عمله الى حركة ، اتخذوا لهم نوادي رياضية حقاً ، لا رياضية بالاسم ، وجاؤوا لها بمدرب ، لأغنتهم هذه النوادي عن كثير من الأدوية وكثير من الهموم ولأشعرتهم لذة الحياة .

وأما رياضة القوة فهي للدفاع عن النفس ، ولا يقولن أحد أنا لا أعداء لي ، ولا خصومات ، فانه ليس من أحد منا الا وهو معرض يوماً الى سفيه يسيء اليه ، أو مجرم يعتدي عليه ، وليس ينفع في هذا المقام كلام ، ولا تفيد نصيحة ولا تجدي محاضرة ، ما ينفع الا حيلة من حيل المصارعة اليابانية تقيد المعتدي ، أو لكمة على الفك تقعده ،

وأنا لا أريد أن يتعلم المرء المصارعة والملاكمة ليعدو على النـاس ، بل ليرد بها عن نفسه العدوان .

وأما رياضة البطولات والألقـاب فهي للافذاذ من النـاس الذين خلقهم الله لها وخلقها لهم وليست لنا ولا نحن لها ، لكن علينا أن نشجع القادرين عليها ، وأن نكرمهم وأن نعبد لهم طريق البطولة ، لأن المباريات اليوم كالحروب ، والأمة التي تظفر في حلقة مباراة ، كالامة التي تنتصر في ساحة معركة ، ثم ان في ذلك دعـاية للوطن واعلاء لاسمه ، ودرساً لناشئيه ليسلكوا سبل القوة والرجولة .

وأما الرياضة النظامية ، فلقد كنا نشكو من اقتصار المدارس عليها ، فصرنا نشكو من اهمال المدارس لها ، وميل برامج الرياضة عنهـا الى (البين بون) كرة المنضدة ، والى أمثالها من اللعب التي لا تنكر فائدتها ، ولكنها لا تغني عن الرياضة النظامية التي تعد الطلاب للحياة العسكرية وتجعل منهم جنوداً صغاراً .

وبعـد ، فاني ما كتبت عن الرياضة ، ولست من أبطالهـا ولا من المعروفين بها ، الا لأنها من أعظم أسباب الشفاء من هـذا الداء الذي استعصى على الشفـاء ، وهو داء (المشكلة الجنسية) ، ولأن فيهـا (تسامياً) عن الشهوة ، ومنفذاً لها ، ومنقذاً (موقتاً) من هذا الكبت ، الذي يطوح بالشباب الى مهـاوي الاثم ، أو الى مساوىء الاضطراب العصبي ، ولأنها من مقومات الأخلاق تعلم صاحبها الاعتماد على النفس، وتنفي عنه الغرور عند الظفر ، واليأس عنـد الهزيمة ... وان مـزية الانكليز الكبرى التي مكنت لهم في الارض انما هي (الروح الرياضية).

* * *

موازين الرجال

أصبحت من أيام فوجدت رأسي من ثقله كأنه حجر رحى ركّب بين كتفيّ ، وكأنه من الصداع يدقّ من داخله بالمِداق ، وكأن جفنيّ قد شدّا الى الأرض فما أفتحهما حتى يعودا فينطبقا ، ووجدت في حلقي اذ أبتلع ريقي مثل حزّة الشفرة ، وفي كل مفصل من مفاصلي ألماً ، وفي أعصابي من الخَدَر مثل مشي النّمال ، ووقفت فاصطكت ركبتاي ، ودِير بي ، فعدت الى الفراش ...

ولم يصدق أهل الدار أني مريض ، لأنهم لم يروا عليّ لمرض أثرا ، ولأن المريض عندهم انما هو الشاحب المهزول البادي العظام ، وأكّدت لهم القول فلبثوا مكذّبين ، يعتقدون أني أتدلل عليهم وأني أتكاسل وأوثر الراحة والاستمتاع برعاية المرض ، على ارهاق النفس بمعالجة نسوان المحكمة ، وصبيان المدرسة ... ويئست من اقناعهم بمرضي فأعرضت عنهم وتشاغلت بالتفكير .

* * *

فكرت في هؤلاء الناس اذا كانوا لا يميزون المريض من الصحيح ، والمرض شيء ظاهرة آثاره ، بادية أماراته ، فكيف يميزون الطيب من الخبيث ، والصالح من الطالح ؟ وكيف يقيسون أقدار الناس ، وكيف تكون عندهم موازين الرجال ؟ أو لا يخطئون في أحكامهم على الناس خطأ أهلي في الحكم على مرضي ، اذ يقيسون المرض بالشحوب والهزال ،

وربَّ شاحب هزيل ما فيه الا جلد على عظم وهو الصحيح المعافى الأيِّد القوي ، وربَّ سمين يكاد يَنْفَزِر[1] من كثرة الشحم واللحم ، وهو مَحْمَل أمراض وهو الضعف مجسَّما والعجز ؟

وفكرت فيَّ أنا ، كيف أحكم على الناس ؟ فذكرت أنه يدخل عليَّ الرجل لا أعرفه فأحكم عليه بادي الرأي بثيابه ، فان كان يلبس العمامة والجبة أنزلته من نفسي منازل العلماء ، وان كان بزيِّ الفلاحين أحللته محال الفلاحين ، فاذا تكلم بدلت رأيي فيه وحكمت عليه بكلامه ، فاذا عاملته كان الحكم عليه بمعاملته ، فهذه عدة مقاييس : الثياب والكلام والمعاملة ، فأيها هو الصحيح ؟

ثم ان للناس مقاييس غيرها تعلو وتنخفض، وتتسع وتضيق، وتصح وتفسد ، فهم يقيسون عظمة الرجل بتقاه ، وبعلمه ، وبماله وبجماله ، وبقوته ، وبمنصبه ، بل انَّ فيهم مَن يتخذ مقاييس أعجب وأدنى ، فصبَّاغ الأحذية يقيس عظمة الرجال بلمعان أحذيتهم لا بعلمهم ولا بفضلهم ، والخياط يعتبرهم بطولهم وعرضهم ، ومفتش القطار بدرجات ركوبهم ، ونادل القهوة بحلوانهم[2] وأهل السجن يقيسون عظمة النزيل عليهم بجريمته ، فالقاتل أعظم من السارق ، وكلما عظم الجرم عظم القدرة ، وعامة الناس العظمة عندهم بالشهرة[3] فاذا نزلت بلدهم المغنية أو الرقَّاصة ارتج لها البلد وتسامع بها الناس وتباشروا بمقدمها وهرعوا كلهم اليها ، واذا هبطه الأديب المفرد ، أو العلاَّمة العَلَم ، لم يدر

---

(1) فزره فانفزر ، فهو مفزور من أعرق الكلمات في العامية الشامية والمصرية وهي من الفصيح ، ومن استقرى وجد عامية الشام أفصح اللهجات العامية .

(2) النادل : صبي القهوة ، والحلوان : البقشيش وهو من العامي الفصيح .

(3) الشهرة لا تكون في الاصل الا في القبيح .

بمهمبطه الا" القليل ، ولم يَسنع للسلام عليه الا" الأقل منهم ، وتقرأ على أحدهم المقالة تخبره أنها لرجل مغمور فيوسعها ذماً وقدحاً ، فاذا أخبرته أنها للكاتب المشهور انقلب القدح مدحاً والذم ثناء واكباراً ...

ولو سألت الخاصة ما هي مقـاييس العظمة لوجدتهم مختلفين ، وقديماً قال المثل السائر : « لو قلت للفـرنسي فلان عظيم ، قال لك : ما هي شهاداته ؟ والانجليزي يقول : ما هي معلوماته ؟ والألماني يقول : ما هي أعماله ؟ والأمريكي يقول : ما هي آثاره ؟ » . أما نحن فنقول : مَن هو أبوه ؟ لأن القاعدة عنـدنا اليوم ، أنَّ مَن قصَّر به نسبه أو نشبه ، لم يسرع به علمه ولا أدبه !

فما هو الميزان الصحيح لأقدر الرجال ؟



وظائف الانشاء

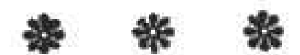
ودخل عليّ الطبيب، وهو ابن عمي ولِدَتي[1] ورفيق فيمدرستي، فرآني أكتب . فقال : ما هذا ؟ أتجبر نفسك على الكتابة وأنت مريض، أهي وظيفة الانشـاء ؟ قبح الله وظائف الانشاء . قلت : ولَمَ ؟ قال : لأني ما أفلحت فيها قط ولا أحسنت كتابتها . قلت : ليس بعجيب وأنت طبيب أنك لم تكن تفلح فيها ، ولكن العجب بي أنا ، اذ لم آخـذ في الانشـاء ما دون الدرجة الوسطى ، ولم يكن معلم يعتقد أني أصلح للكتابة ، وذلك أنهم كانوا يكلفوننا الكتابة في موضوعات لا يُكتب فيها ، ولقد سئلنا مائة مرة هـذا السؤال : (ماذا تحب أن تكون في مستقبلك ؟) كأنَّ الدنيا تمشي على ما أحب وما أكره ، وكانوا يقدرون الدرجة لا على حسن الكتابة بل على بعد المطمح . ولقد أبعدت فتمنيت أن أكون ملكا وحاكما بأمره وشيخ اسلام وقائداً فاتحاً وما شئت من بعيد الآمال فما أعجب المعلم شيء من ذلك ، ولا أعجبه أن أكون معلماً ولا شرطياً ولا تاجراً ولا لصاً . وسئلنا عشرين مرة أن نكتب في(وصف روضة) ، فكنت أكتب وصف بستان أعرفه ، فيه مزبلة وراء البـاب وساقية ماؤها عكر ، وغربان تصيح على الأشجار ، فلا يرضى عنه لأنه يريد روضة ماؤها سلسبيل وحصباؤها درٌ ، وعلى دوحهـا العنـادل والشحارير ، ومن أين أصل الى هـذه الروضة حتى أصفها ؟ وأعجب من هذا أنهم كانوا يكلفوننا انشاء الحوار على ألسنة الحمير والقطط وأنواع البهائم ، وكيف لي بأن أفكر بعقل حمار حتى أتكلم بلسانه ،

(١) اللدة للرجل واللدات كالترب والأتراب للمرأة .

كما يفكر الأستاذ المحترم حين يصحح الأوراق ويميز صادقها من كاذبها !

وما كان المــدرسون ينظرون الى صورة بارعة أو معنى مبتدع ، انما ينظرون الى كلمات جــاءت على غير الفصيح ، أو فعل عدّي بغير الحرف الذي يتعدى به ، هذا لأن المدرسين كانوا لا يفهمون الا النحو والصرف واللغة ، أما اليوم فلم يبق ولا هــذا ، مع الأسف ، لأن أكثر المدرسين تعلموا العربية في باريز على أصمعي العصر الشيخ مارسيه ... والذين نجوا من هذه السبّة بعثوهم الآن ليتعلموا في بلجيكا وسويسرا ، أي والله ، بل ان شيخاً مدرساً في الجــامع الأموي ، سيبعثونه ليتعلم علوم الدين في لندن !

على أن الذين تعلموا من طلابنا في الأزهر وجامعة مصر ، لم يكونوا أقوى ولا أحسن من أولئك ... وهذه كلمة حق قلتها ورزقي على الله !



قيمة الفلسفة والادب

ولعلّ المرض قد جعلني متشائماً أرى كل شيء في الدنيا أسود ... وكذلك الانسان يصيبه صداع يحتاج الى حبة (اسبرين) أو امساك دواؤه شربة (زيت خروع) ، فتبدل نظرته الى الحياة وآراؤه فيها ، فلو كان فيلسوفا لكان متشائماً ، ولو كان شاعراً لكان شاعر أحزان ، ولو كان قصصياً لكان مؤلف مآسٍ وفواجع ..

أفتكون قيمة الفلسفة المتشائمة والأدب الباكي ، قيمة حبة أسبرين وشربة زيت خروع ؟ !

* * *

ثمرات درس الاخلاق

ونظرت من الشباك أتسلى ، وكان تحته كومة رمل أبيض وضعها جارنا ووكّل رجلا وولده بنقلها الى حديقته . فأقبل تلاميذ المدرسة ، فقال عفريت منهم : تعالوا نسرق من هذا الرمل ، فقالوا : ان الولد يرانا . قال : نعمل مثل الراعي الكذاب الذي قال لنا المعلم قصته ، حين نادى: الذئب الذئب ، فجاءوا فلم يروا شيئاً ، وضحك منهم ، فلما طرقه الذئب حقيقة ونادى لم يجئه أحد ، قالوا : وكيف نفعل ؟ قال العفريت : انظروا .

وأقبل كأنه يريد أن يسرق فنادى الولد أباه ، فترك عمله في الحديقة وأقبل ، فلم ير شيئاً ورأى التلاميذ يضحكون فرجع ، وجعل التلاميذ يأخذون من الرمل والولد ينادي فلا يردّ أبوه ولا يصدقه ..

وكانت هذه ثمرة درس الأخلاق في المدرسة !!

* * *

الف جنيه مصري

وتركت الشباك ، وأخذت جرائد عتيقة فجعلت أصفحها ، فوجدت في احـداها اعلانا عن جائزة قدرها ألف جنيه مصري لصاحب أحسن اقتراح يقدم الى المجمع اللغوي لاصلاح الكتابة العربية ... فعجبت من هذه الخرافة التي لا تزال تتردد على الألسنة ، خرافة فساد الكتابة العربية وحاجتها الى الاصلاح ، وكنا نـعظم أن نسمعها من بعض الكتاب المجددين المفسدين ، فانعكس الزمان حتى صرنا نسمعها من ألسنة من أقيموا حراسا للغة القرآن وتراث الجدود ، بل سمعنا من كبير فيهـم قاصمة الظهر التي أنكرناها على الأتراك ، وذاقوهـمْ غصصها ، فلمـا أبَتْها هذه الأمة وأبى لها عقلها ودينها قبولها ، جاؤوهم بهـا في ثوب جديد ، هو اصلاح الكتابة ، وأنا لا أدري والله أيجدّ هؤلاء القوم أم هم يريدون شيئا يعملونه ويتسلون به حتى لا يقال انهم يجتمعون على غير شيء ، ويأخذون المرتبات في غير عمل ، فان كانوا جادين فليعلموا أن كل تبديل في كتابتنا مهما قلّ يقطع صلتنا بماضينا ، ويجعل هـذه الكتب بالنسبة للناشيء الجديد كأنهـا مكتوبة بالكوفي لا يفهمها الا الخاصة ، وهو كما يبدو أقصر طريق لابادة كتب الدين واللغة ، والقضاء على المكتبة العربية حتى تصير من الآثار القديمة ، وتعود كأنهـا اللغة الأجنبية التي لا تفهم الا بترجمة . ثم ما عيب كتابتنا ؟ مالها ؟ أنا أراها كاملة لا تحتاج الى زيادة ، صحيحة لا يعوزها الاصلاح ، بل هي تفضل من جهات كثيرة كتابة الأمم الأخرى .

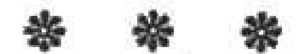
ومن قال لهؤلاء الناس المحترمين، اننا أتباع لهم في كل ما يقررون ، نطيع أوامرهم ، ونمشي على آثارهم ، ونأتم بهـم : نركع ان كبروا ،

ونرفع انحمدوا ، كلا والله ، ولو أن مصر ـ لا سمح الله ـ قبلت بهذا ، ما قبلنـا به نحن ، ولا أقررنا أي تبديل في كتابتنا ، لأننـا نثلج بذلك صدور أعداء الله وأعداء العربية الذين لا يغيظهم منا الا أننا نتمسك بماضينا وعلومنا ، فنتخذ منها دافعاً الى المعالي ، وعاصماً من التردي في هوة الالحاد والضياع .

ألا ان هذه الألف ، وهي تعدل تسعة آلاف ليرة سورية وزيادة ، ربح لمثلي عظيم ، وثروة ما ملكتها قط ، واني أستطيع كما يستطيع كل واحد ، أن يحصر ذهنه ساعة فيتخيل لهـا نوعا من (الاصلاح ...) كما يتخيل اصـلاح رجل من الرجـال بتقصير أنفه ، وترقيق شفتيه ، وتطويل قامته ، ولكنني لا أريد أن آخذ هذا المال حراما وقد جمع من أيدي الفقراء والمساكين ، وربما كان ثمن ألف فراش بيع بالمزاد العلني ، أخذ من تحت المكلف لما عجز عن أداء الضريبة ... فاذا كان يزيد عن حاجتكم ولم يكن من انفاقه بد فردوه على هؤلاء الفقراء ، فما زلنـا نسمع منكم ، وتقول جرائدكم ، ان في مصر المـرض والفقر والجهل ، فهل داويتم هذا كله وأصلحتموه ولم يبق الا اصلاح الكتابة ؟!

يا سادة ، ان الكتابة العربية التي صلحت خمسة عشر قرناً وكتب بها عشرة ملايين كتاب ، تصلح قرناً آخر لتكتبوا بهـا كل سنة خمسة آلاف كتاب ، منهـا كتب الكفر والتضليل والتقليد الأعور والسخف المضحك ككتاب « هذه هي الأغلال » !

فكفوا عنا ، اتركونا ... اننا راضون بما نحن عليـه ، فأريحونا واستريحوا !



هــذه الكلمــات

في أمثال العرب قولهم : « وقف حمار الشيخ في العقبة » ، ولهذا المثل قصة لست أرويها ، لكن أروي قصة الشيخ الذي وقف أمس في العقبة ، وظل واقفاً لا يتقدم خطوة حتى صدرت الجريدة وليس فيها « كلمة صغيرة » .

كان عندهم كلمة معدة لهذا اليوم ، ولكن سبباً سياسياً منع (أو توهموا انه منع) من نشرها ، وكان الرجل لابساً يهم بالخروج من داره الى المحكمة ، حينما هتفوا به (كلموه في الهاتف) يطلبون كلمة .. وكانت الساعة العاشرة ، وليس في ذهنه موضوع ، ولا في رأسه فكرة ، ولا في نفسه حماسة لشيء يقوله ، ولو كان له الخيار لآثر أن يقضي اليوم كله في فراشه ، مرخي الجسم والفكر والاعصاب ...

وقال في نفسه ، انه يوم كيوم الحطيئة ، حين خرج يرجو أن يلقى أحداً فيهجوه فلم يجد غير نفسه فهجاها ، ولابدّ ان أبصر في الطريق غليظاً أكتب عنه ، أو أرى مشهداً أصفه ، أو أسمع قصة أرويها ، فيكون من ذلك كلمة ، نملأ بها الفراغ ، ونشغل بها القراء ، ونأخذ عليها الأجر ...

ولكنه لم يسر الاّ قليلاً حتى لقيه صديق كريم ، حمله في سيارته الى باب « الايام » ، فدخلها خالي اليد من الكلمة ، خالي الرأس من موضوعها ، واستقبلوه بالترحيب ... وأدخلوه غرفة الأستاذ نصوح الأنيقة الهادئة ، وأجلسوه على مكتبه الفخم ، أي وراء المكتب كما هو

مفهوم لا فوقه ، وقدموا اليه الورق الابيض والقلم الثمين ، وقالوا : تفضل ...

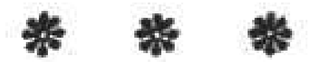
وتفضل فقعد وأمسك بالقلم وشرع يكتب ولكن عمّ ؟ لا يدري ؟ وسود ثلاث ورقات ، ولكن الله لم يفتح عليه بشيء ، واستحيا أن يواجههم فما كان منه الاّ أن استغلّ غفلة منهم ، وخرج على رؤوس أصابعه واستلم الباب هارباً .

هذه هي قصة الشيخ الذي وقف في العقبة ، مثلما وقف حماره من قبل ... لا أرويها ليضحك مني القراء ، فأنا لا أحب أن أضحك مني أحداً ، ولا لأنّ غريباً من مثلي أن يعجز عن كتابة ربع عمود وهو الذي يكتب دأباً منذ ربع قرن ، فقد ارتج (اي اغلق) من قبل على أدباء وخطباء ، كانوا أحدّ لساناً ، وأذكى جناناً ، وأشد بياناً ، وهذا الفرزدق شيخ الشعراء يقول : انها لتمر عليّ أحيان ، لقلع ضرس من أضراسي أهون عليّ فيها من بيت من الشعر ، ولكن ليفهم الناس ، ان الكاتب لا يخرج الكلام من جيبه ، ولا يطلعه من صندوقه ، ولا يملكه كلما أراده ، لأن الكلام يذهب ويجيء ، ويطيع ويأبى ، فليفهم هذه الحقيقة الاخوان الذين يقولون لي : اكتب لنا في موضوع كذا ، اعمل لنا مقالة في أمر كذا ، فاذا لم تجبهم عتبوا عليك ، وظنوا بك البخل عليهم ، والاعراض عنهم ...

وليدركوا صعوبة الكتابة كل يوم ، كل يوم في موضوع ، على كثرة العمل ، وانشغال الذهن ، وضيق الوقت ، فلا يطلبوا من الكاتب أن يجود في كل كلمة ، وأن يجمع فيها جدة الفكر وصفاء الأسلوب وحرارة الايمان ، فربما كتبها في الترام ، أو على مائدة الافطار أو اختلسها من ذهنه ووقته اختلاساً ؟

وأنا لا أنكر ما ربحت من هذه الكلمات الصغار من المال ، ومن الاعجاب ، وما كان لكثير منها من الأثر في الاصلاح ، ولكني لا أكتم القراء مع ذلك ماخسرت فيها ، من الصور الادبية التي أقتلها وليدة في ذهني لأنصرف الى هذه الكلمة ولو اني تركتها تنمو وتكبر لكان منها روائع في الادب ، لعل واحدة منها خير لي ، وأبقى لأسمى في دنيا الأدب من ألف من هذه الكلمات التي لا يعيش أكثرها أطول مما يعيش عدد الجريدة ، وما خسرت من زخرف البيان ، وصفاء الديباجة ، ومختار الكلام ، وما خسرت من أصدقاء كانوا يرضون عني أبداً اذ كنت أكتب في الأدب بعيداً ، بعيداً عنهم ، فلما نزلت الى ميدان الاصلاح واضطررت أن أزيحهم من أمامي لأشق الطريق ، وأعيد الجادة نلت منهم فصاروا أعدائي .

فهل أنا رابح أم خاسر ، وهل أستمر أم أعود الى صومعة الاديب ، وبرجه العاجي ؟ لم أقرر الى الآن .



تكريم الاحيـاء

ذكرت البارحة معروف الارناؤوط الذي وليت تحريـر جريدتـه سنة ١٩٣٠ وكتابة افتتاحياتها ، معروف الذي غنّى للجمـال ، وهتف للحق والخير وخلف في الادب والصحافة أثمن تراث فعجبت من الأدباء، وعتبت على الصحفيين كيف نسوه جميعاً وأهملوه حتى لم تقم له حفلة كيف يأتي يوم ذكراه من كل سنة فلا يكتب عنه كلمة ولا ينشر من أدبه فصل !

ومثله يوسف العيسى مَنْ كان في فن الصحافة اماماً .

وأعجب منهما النابغة العبقري الذي قَصِفَ قَصْفَ الغصن الطري، بعد ما ملأ زهره الأرض عطراً ، شاكر الكرمي ، الذي أعطاه الله ثلاثة اخوة أدباء ، فلم يخطر على بال واحد من الثلاثة أن يفي لأخوة النسب ولا لأخوة الأدب ، فينفض (الميزان) حتى يخرج منهـا آثـاره ، وينفض الأذهان حتى يجمع منها أخباره ، وتركوه ينسى خبره ، ويمحى أثره !

أهكذا أنت يا دمشق ؟

يمضي الأديب أو الصحفي فـلا يذكره كاتب ولا يفي له أخ ولا صديق ؟

والعلماء ؟ هل كان حظ العلماء منك أوفر من حظ الأدباء .

من ألف في سيرة الشيخ بدر الدين علامة الدنيا ونـادرة الفلك ؟ والسيد محمد بن جعفر الكتاني ؟ والشيخ عطا الكسم والشيخ نجيب كيوان والشيخ مصطفى الطنطاوي والشيخ ابي الخير عابدين والشيخ أمين سويد والشيخ مسعود الكواكبي والشيخ محمود ياسين ؟

ومَنْ كتب عن الشيخ عيد السفرجلاني الذي لبث سبعين سنـة كوامل يعلم الناس ، حتى كان من تلاميذه الولد وأبوه من قبله وجده

من قبلهما ، وحتى صار نصف الكهول من المتعلمين اليوم من تلاميذه ؟
والشيخ عبد القادر المبارك أستاذ البلد ، والشيخ محيي الدين الخاني شيخ المعلمين ؟ والذين مضوا من عباقرة الفن والصناعة وأعلام الخلق والنبل والاحسان ، من كل رجل سيرته قصة بارعة من قصص الخير ، ودرس قيّم من دروس الاخلاق ؟

واذا كنا ننسى الاموات لأنهم لا يذكرون ولا يشكرون ، فلمَ لا نكرم الأحياء من العظماء ونقوم بحقهم ، ونكرم جهادهم ؟

لماذا لا يقيم القضاة والمحامون حفلات التكريم لشيخ القضاء مصطفى برمدا واسمحوا لي أن أدع الألقاب فانما أكتب مؤرخاً وربّ اسم مجرد هو أعظم من كل لقب .

ولا يقيم أهل العلم الحفلات للشيخ عبد المحسن الاسطواني ، ولسليمان الجوخدار ، وابي الخير الميداني ، ورجال التعليم لشيوخ التعليم سعيد مراد وعبد الرحمن السفرجلاني ومصطفى تمر ، وأهل الأدب كمحمد كرد علي والمغربي والجندي والبزم .

والجامعيون لشيوخ الجامعة شاكر الحنبلي وعبد القادر العظم وفارس الخوري وجميل الخاني ومصطفى شوقي وسعيد المحاسني[1] .

وأمثالهم وأمثالهم من رجال السياسة والعلم والأدب فما أردت الاستقراء انما أردت التمثيل ـ من كل مَن بذل عمره يعمل لهذه الأمة ، فبنى رجالاً وأحدث نهضة ، وأحيا هذا الوطن .

اني أرجو ألا تذهب هذه الكلمة كما تذهب صيحة على شاطىء البحر الهائج ، لأن الأمة لا تكرم نابغيها ولا تقدر رجالها ، يقل فيها النبوغ ، وتقفر من الرجال .

---

(1) توفي بين نشر هذه الكلمة ، وطبع هذا الكتاب : برمدا والجوخدار ومراد والبزم وكرد علي والحنبلي والخاني والمحاسني ، ولم تقم لواحد منهم حفلة تأبين .

* * *

المذهب الرمزي كما أفهمه

يقف الشاعر على الطـريق فتمرّ به مئة امرأة ، ما فيهن الاّ جميلة فتانة تستهوي القلب وتستميل الفؤاد ، وما واحدة منهن تشبه في جمالها الأخرى ، فلكل (جمال) طعم في الذوق ، وأثر في النفس ، ومعنى في الحسّ . ويسمع مئة صوت ما فيها الاّ مطرب يهز ويثير ، ولكنّ للبيات (طرباً) ليس للرصد ، وفي الصبا ما ليس في النهاوند . ويشمّ عشر زهرات فلا يجد فيهن الاّ طيباً وعطراً ، ولكن أثر الياسمين في النفس غير أثر الورد ، وفي الزنبق ما ليس في البنفسج ، وربما رأى المرأة أو سمع النغمة في حال ، فأثارت في نفسه عواطف لا تثيرها في حال أخرى ، فاذا جاء يصور بالألفاظ هذا العالم الزاخر من (المشاعر) والخواطر لم يجد لهذه الآلاف المؤلفة ، من (المشاعر) المختلفة ، والخواطر المتباينة ، الا ألفاظاً قليلة لا تقوم لهذه الكثرة ، ضيقة لا تتسع لشيء من هذه التفاصيل ، ميتة لا تستطيع أن تجاري هذه القافلة الحية المتوثبـة من الخواطـر والأحلام الانسانية ...

ويقرأ القصة من القصص ، أو الأبيات من الشعر ، فتنقله الى دنيا أخرى يرى فيها ما لا تراه عيون أكثر الناس ، ويدرك من جمالها وسحرها ما لا تدركه قلوبهم ، فاذا عمد الى حصر هذه الدنيا في نطاق من الالفاظ تفلتت منه ومضت ، كما يمضي عبق الزهر اذ ينبثّ في الجو ، وهبط من بعدها الى أرض الحقيقة الصلدة ، كمـا هبط آدم من جنته[1] الى الأرض ...

---

(١) الاصح ان الجنة التـي كان فيهـا آدم في الارض وليست الجنة الموعورة دار الخلد ، وهذا ما عليه اكثر العلماء

ويسمع الأغنية الحالمة تخرج من قلب عاشق مشوق ، فتطفو على وجه النسيم العليل ، في الليل الساجي ، ينادي بها الليل ، والليل معرض لا يجيب ، فتهز الأغنية اذ يسمعها (شاعريته) فتسقط أنضج ثمارها وأحلاها ، فاذا راح يجمعها ليودعها ظروف الألفاظ ، طارت من بين أصابعه كأنها حباب الخمر ، أو خيوط النور ...

ويحلم نائماً أو مستيقظاً فيجد لهذه الرؤى والأحلام متعة وجمالا يملأ جوانب نفسه ، ويصل الى قرارة قلبه ، ويصحو منها ولذتها في حسّه ، وأثرها في نفسه ، وبقاياها في ذاكرته ، فاذا أراد أن يضع وصفها على لسانه ، خانته الألفاظ ساعة الشدة ، وفرّت منه ولم تسعفه ...

فماذا يصنع الشاعر ؟

أيقنع من الشعر بوصف الحالات النفسية الواضحة الدانية ، ويدع كل سام منها رفيع ، أو غامض مقعد ؟ وتصوير مشاهد الطبيعة الجامدة دون أن يفيض عليها أفكاره وأحلامه وذكرياته ؟ انّه ان فعل كان كمن يأخذ الأصداف والديدان من شاطيء البحر مجتزئاً بها عن كل ما في البحر من لآليء وأسماك ، فماذا يصنع ؟

فكّر في ذلك ناس من شعراء أوربة فرأوا أن الخصلة من شعر الحبيب ، تذكر المحب بأيام الغرام ، وتتلو عليه (وهي خرساء لا تنطق) تفاصيل أحداثها حتى كأنه قد رجع اليها ، والنشيد الحربي يقص على الجندي الهرم أنباء معاركه التي خاضها ، وصورة برج ايفل يعيد للباريسي النازح ذكريات بلده الذي فارقه ، وما خصلة من الشعر وما النشيد وما الصورة ؟ انها رموز (Symboles) تستدعى في الذهن صوراً وحقائق على طريق (تداعى الافكار) كما تذكر صورة الكعبة

بالحج ، و (جون بول) بانكلترا ، والاهرام بمصر ... فلماذا لا نرمز لكل حالة نفسية غامضة برمز يذكر القارىء بحالة مثلها كان وجدها ، اعتماداً على (تداعي الافكار) وعلى أن نفوس البشر متشابهات في الجملة في حالاتها الكبرى ؟

وقد حاولوا أن يفعلوا ذلك فنشأ ما ندعوه بالمذهب الرمزي (Symbolisme) ، فليس الشعر عند الرمزيين أن تصف الحبيب بل ما يثير في نفسك الحبيب من عواطف ، ولا أن تصور مشهد الطبيعة بل ما يبعث المشهد فيك من خواطر . واذا كانت هذه العواطف والخواطر غامضة ، فليكن الشعر غامضاً مثلها ، على أن يثير في السامع أمثالها ، ويحضر له نظائرها . وأول شرط للشعر عندهم هو أن يكون وقعه في الأذن جميلا بارعاً ، وأن يكون لألفاظه رنين اللحن الموسيقي . والشرط الثاني هو أن يعلو بسامعه ، ويحمله الى أسمى الحالات النفسية . قال عميد الرمزيين پول ڤرلين (Verlaine) : « الشعر ما انبعث من قرارة النفس ، ورفَع الى ذروة السماء ، وكان موسيقياً قبل كل شيء » .

وهذه غاية ما نظر الى أبعد منها أديب ، ولكن هل بلغ الأدباء الرمزيون هذه الغاية ؟

الجواب : لا ، وان نهاية ما وصلوا اليه أن جاءوا بشعر في ألفاظه موسيقية وجمال ، يلوح من ورائها معنى فيه من (تلك) الحالات النفسية غموضها ، ولكن ليس فيه سموّها ولا عظمتها ، ولا يدني منها ولا يوصل القارىء اليها .

هذا ما عندهم ، فما الذي عندنا ؟

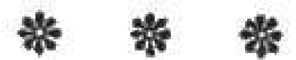
الذي رأيناه عندنا الى الآن : أفكار مهوّشة مضطربة في رؤوس أحب أصحابها التعبير عن أفكارهم بالشعر ، ولم يؤتوا ملكته ، ولا

أعدّوا له عدته ، ولم يعطهم الله (شعور) الشاعر ، ولطف حسّه ، وصفاء نفسه ، فاستعاضوا عن ذلك كله بالانتماء الى المذهب الرمزي .. ولا يكلف ذلك من يريده الا أن يكتب في رأس قصيدته ... أو مصيبته التي يحب أن ينزلها بالقراء ، كلمة (من الشعر الرمزي) وأن يلقى صحفياً أحمق ينشرها له ...

وكل الذي قرأناه الى الآن من هذا الشعر ... الرمزي ، قطع هي أبعد عن الموسيقى من بُعد الارض عن السحاب ، وبُعد اصحابها عن الشعر ، وهي تنزل بقارئها الى أحطّ دركات الاشمئزاز و (القرف...) بدلا من أن ترفعه الى السماء التي ينظر اليها (ڤيرلين) عميد الرمزيين الأصليين لا القردة المقلّدين ...

لا . لا هذه ولا تلك ، فالرمزية الحقيقية حلم جميل ولكنه مناف لطبائع الأشياء فلا يتحقق أبداً ، ورمزية أصحابنا ... (تهريج) ثقيل ، وتقليد بشع ، وعدوان على الفن ، فلا تدخل حرم الشعر أبداً ...

انها رطانة بحروف عربية ، و (شعر ...) ولكن لا شعور فيه ولا موسيقى ولا حياة .



النثر والشعر في المدارس

كنت كلما درّست الأدب العربي أعجب لما أجد من انصراف الطلاب عن نثره الى شعره ، على حين أنهم أميل الى النثر في الأدب الفرنسي منهم الى الشعر ، ففكرت فرأيت أن السبب في ذلك المناهج .

والذي تقرر المناهج تدريسه من النثر العربي في مصر والشام والعراق لا يخرج في جملته عن رسائل ميّتة لا روح فيها ، أو فقرات جامدة مسجّعة أو غير مسجّعة ليس فيها وصف يهز القلب ، أو معنى يوقظ الفكر ، حتى ان ما يختار لمثل الجاحظ وهو في رأيي أحد الخمسة الذين انتهت اليهم امامة النثر العربي (الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والغزالي وابن خلدون ومحيي الدين بن عربي[1]) هو من المملّ المضجر كوصف الكتاب وصفاً هو مجموعة جمل مستقلة تشبه حِكم أكثم بن صيفي ليس بينها ارتباط ، ولا يفسدها التقديم فيها ولا التأخير ، ويصعب استظهارها وحفظها ، مع أن للجاحظ المعجب المطرب ، والمبهج المرقص من القصص والأوصاف ، فكان من ذلك أن رغب الطلاب عن أدبنا وكرهوه ، وآثروا عليه الأدب الفرنسي ، لأنهم وجدوه أقرب الى قلوبهم ، وأدنى الى أفكارهم .

ودواء هذ االداء أن يخرج واضعو المناهج من هذه الزاوية التي حبسوا أنفسهم والطلاب فيها ، الى فضاء الأدب ورحبه ، ويدعوا الصاحب والقاضي الفاضل ، وهذه الرسائل الباردة ، وهذا الأدب الميت الذي لا روح فيه و لاجمال ، ولا يصح أن يكون مثالا يحتذى ، ودليلا يتبع ، ولا يجوز أن يعرض على الطالب الا على أنه لون من ألوان الكتابة ،

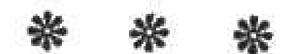
(1) انما أردت اسلوبه لا عقيدته .

فيدرسه دراسة المؤرخ له ، لا دراسة المتأدب به ، ويفتشوا بين العلماء والصوفية والمؤرخين عن ذوي الملكات البيانية ، فيجدوا فيهم من لا يعد معه أدب الصاحب وعبد الرحيم البيساني الا لعب أطفال .

أذكر على سبيل المثال (ابن الجوزي) في كتابه صيد الخاطر وموضوعه ظاهر من اسمه ، وهو خواطر كانت تخطر له فيدونها في هذا الكتاب ، وليس في هذا الكتاب بلاغة الجاحظ وابن قتيبة ، ولا صناعة ابن العميد ، ولا فحولة الجرجاني ، ولكن فيه شيئاً ليس مثله عند أولئك جميعاً ، هو هذه السهولة وهذه السلاسة ، وهذا الصدق في تصوير الخواطر ، وهذا الالمام بالمسائل النفسية والاجتماعية والدينية ، وما فيه من وثبات ذهنية عجيبة ، وما يقوم به من تحبيب الأدب الى الطلاب ، وهذا الكتاب لو نشر اليوم على أنه لبعض الكتاب العصريين ، لقامت له الصحف الادبية وقعدت ، وهللت له وكبرت ، وأحلته الذروة والسنام .

وأذكر (ابن السماك) هذا الرجل الذي تدل الفقرات القليلة التي رويت له على أنه أحد أفراد الدنيا في بلاغة القول ، وصفاء الأسلوب ، وعلو التفكير ، ولم يفكر مع ذلك أحد في استقراء أخباره ، وتتبع آثاره ، و (ابن حزم) في (طوق الحمامة) و (ابن القيم) في (روضة المحبين) وابن داود الظاهري ، والطبري والغزالي ، وابن عربي ، وأبي حيان ، والشافعي ، وأمم لو أحب واضعو المناهج العناية بآدابهم ، لوجدوا شيئاً ينسيهم وينسي الطلاب الصاحب بن عباد وأضرابه .

وأفضل من هذا كله النصوص الكاملة التي جاءت لأخبار السيرة كـ (قصة الافك) على لسان عائشة ، أو (حديث طلاق امهات المؤمنين) على لسان عمر ، وقصة (كعب والثلاثة الذين خلّفوا) .



الكتب المدرسية والكتب الادبية

زرت من سنين أحد (الناشرين) في دمشق ، وكان عنده صديقي الاستاذ التنوخي ، ومعه كتاب (المثنى) لأبي الطيب اللغوي الامام العَلَم قريع ابن خالويه ، وزميله في بلاط سيف الدولة . وقد وقع على النسخة الوحيدة منه التي ليس لها في الارض ثانية ، بدليل أنها ليست في خزانة من الخزائن العامة في الشرق ولا في الغرب ، وأنه أعلن في مجلة المجمع العلمي العربي السؤال عنها فلم يكن عند أحد علم بها . والنسخة صحيحة مقابلة بالأصل (أي بنسخة المؤلف) عليها تعليقات بخطوط كبار العلماء كابن الشحنة وغيره ، فاشتغل بنسخها وتصحيحها ومعارضتها بكتب اللغة أمداً طويلا ... فرأيته يعرض عليه طبعها بشرط واحد : هو أنه لا يشترط شرطاً ... ولا يريد مالا ولا يبتغي على تعبه أجراً . وعند الناشر (معلم) يعرض عليه كتاباً في القراءة والمطالعة كل عمله فيه أنه نسخ من كتب الأدب قصصاً وأحاديث كتبها في أوراق ثم جمعها فخاطها فجعلها باذن الله كتاب مطالعة للصفوف الثانوية ، وهذا المؤلف يأبى الا أن يكون له أربعون في المائة من النسخ المطبوعة ثمن (تعبه ..) !

وقد مرّت الآن سنوات على هذه المقابلة طبع فيها هذا الناشر مائة كتاب مدرسي ، وكتاب المثنى لا يزال مخطوطاً في دار أبي قيس .

* * *

ادبـــاء المجـــالس

من الأدباء مَن كنت أقرأ له فلا أبتغي بلاغة ولا لَسَناً ولا بياناً الا وجدت عنده فوق ما أبتغي ، فأتخيل شخصه ، وأتوهمه على أوفى ما يكون عليه المتفوه اللسن ، ثم ألقاه فألقى الرجل الساكت الصموت ، الذي لا يكاد يتكلم حتى تكون أنت الذي يسأله ويدفعه الى الكلام ، واذا تكلم أخفى صوته ، ولطّف حروفه ، حتى لا يسمع منه ولا يفهم عنه ••• ومن الأدباء من ألقاه في مجلس فأجد المحاضر الفيّاض الذي ينتقل من نكتة الى نكتة ، ومن قصة الى أبيات من الشعر ، فيبتدع لها المناسبات ، ويلقيها بصوت قويّ ، ويتكيء على الحروف ، ويعظّم مخارجها ، فأكبره وأعظمه وأسأله أن يكتب مقالة ، أو ينشيء فصلا ، فيفرّ منه فراراً ، ويسوّف ويعتذر ••• فاذا أحرج وكتب جاء بشيء هو أشبه (بسفرة المسحّر) فيها من كل طعام لقمة ، ولكن الحلو مع الحامض ، والحار مع البارد ، وكل طعام مع كل طعام •

وقد تتبعت أحوال هؤلاء ، فوجدت أكثرهم على غـير علـم ولا اختصاص ، ولا يطالع بجدّ ، ولا يبحث بامعان ، ولا تدع له (المجالس) وقتاً لدرس ولا بحث ، وانما يحفظ الرجل منهم طائفة من الأخبار الأدبية والنوادر فيحملها معه أياماً يعرضها في كل مجلس ، ويعيدها بعينها ، حتى ترثّ وتبلى وتصبح كالثوب الخَلَق ، فيعمد الى غيرها فيصنع به مثلما صنع بها ، ولا يدرك الناس الفرق بينه وبين الأديب المبدع الباحث ، فيطلقون على الاثنين اسم الأديب ••• فمتى يميّز النـاس بين الأديب الحق ، وبين (أديب المجالس) ؟

* * *

مجمع الشريعـة الاسلاميـة

أخبروني أن عالماً في دمشق يفتي النـاس بأن الورق السـوري (البنكنوت) لا تجب فيه الزكاة لأنه ليس بذهب ولا فضة ، ويقول بأن هذا هو الحكم في المذهب الشافعي مع أن النقد في سورية كله من هذا الورق ، وأن الفضة فقدت خلال الحرب ، وأن التعامل بالذهب ممنوع ، فتكون فتوى هذا العالم الفقيه ... انما هي فتوى بمنع الزكاة ، وهذه الفتوى على فسادها وضلالها وأنه لا يقول بها مذهب شافعي ولا مالكي ولا يقول بها مسلم عاقل ، وأن هذا الشيخ الفاضل الذي ينكر أن يكون الورق السوري مالاً يقبض في آخر الشهر راتبه ورقاً سورياً ، ويشتري به خبزه وجبّته ، ويقاتل ان منع عنه ... انها على هذا كله قد وجدت من يأخذ بها ليتخلص من الزكاة ومن يردّ عليها .

وخبروني أن عالماً آخر أفتى بسقوط فريضة الحج في هذه الأيام ... ونسب الفتوى الى مذهب الشافعية ، ورحم الله الشافعي كم ينسب اليه .

وخبروني بأن المناقشات قائمة بشأن الربا ، وهل تعـد المعامـلات المصرفية منه أولا تعدّ ؟ ! وبشأن رؤية الهلال وكيف يثبت دخول الشهر ، وبشأن التوسل ، وكرامات الأولياء ، وبشأن الطلاق ... الى غير ذلك من المشاكل الفقهية التي تحتاج الى مرجع يرجع اليه فيها .

وكنت قد سمعت من الاستاذ القاضي العالم الشيخ فرج السنهوري

لما زرت مصر أن الملك ، كان عازماً على انشاء مجمع للشريعة على نحو مجمع اللغة العربية ، يكون من عمله ردّ الشبهات ، وحل المشكلات ، والافتاء ، ووضع مشروعات القوانين ، فلماذا لا يقوم بذلك الجامع الازهر فيضم هذه المنقبة الى مناقبه الكثيرة ، فيرضي بذلك الله ، ويحقق رغبة المصلحين ، ويجدد للمسلمين دينهم ، ويسنّ سنة في الاصلاح يكون له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، وينقذنا من هذه المناقشات ، وهذه المجادلات ، وهذه الجرأة على الافتاء ؟



الدين والسياسة

أثنى (اندره موروا) على (بول فاليري) لأنه يبدأ أبحاثه بتحديد معاني ألفاظ العنوان ، فاذا كان الحديث في علاقة الدين بالسياسة وبالعلم بدأ بتعريف معنى الدين والعلم والسياسة .

وهذه هي بذاتها طريقة علمائنا الذين قرروا في علم أدب البحث (وهو علم ترك الناس الاشتغال به مع الاسف) ان أساس كل مناظرة هو تحديد معاني الالفاظ حتى يكون كلام المتناظرين عن شيء واحد معروف متفق عليه .

ونحن نسلك اليوم هذه الطريقة فما هو الدين ؟

ان الدين كما عرفته دائرة المعارف الفرنسية وكما هو متعارف بين الناس (هو ما يحدد صلة الانسان بالله وبالمغيبات عقيدة وعبادة) .

أما العلم فان أحسن تعريف رأيته له هو تعريف (سارتون) وهو ان العلم مجموعة معارف محققة ومنظمة .

وأما السياسة فانه من الصعب وضع تعريف لها جامع مانع ، لأن معناها غير محدد في أذهان الناس ولا ثابت ، ولكنها لا تخرج في الجملة عن أنها ما يحدد صلات الشعب بالحكومة ، وصلات الحكومات ببعضها ، وهذا تقريب لها وليس بالتعريف .

ولا شك أن من الواجب فصل الدين بهذا المعنى عن السياسة وعن العلم هذا متفق عليه ــ ولكن تعالوا نفتح كتاباً (أي كتاب) من كتب الفقه الاسلامي ، ونقرأ فهرسه ــ اننا نجد ان فيه :

قسما للعبادات : الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وقسما للحقوق المدنية : البيع والاجارة والكفالة والوكالة والرهن الخ ...

وقسما للاحوال الشخصية : الزواج والطلاق والنسب والحضانة والوصية والميراث .

وقسما للحقوق الجزائية : الحدود والتعازير .

وقسما لأصول المحاكمات : الدعوى والخصومة والبينات والقاضي وحقوقه والواجبات عليه .

وقسما لأصول الحكم : الخلافة والولاية وحقوق الولاة وواجباتهم .

وقسما للحقوق الدولية الخاصة : حقوق غير المسلمين من ذميين ومعاهدين ومستأمنين ومحاربين .

وقسما للدولية العامة وصلات الدول الاسلامية بالدول الاخرى في السلم وفي الحرب .

وقسما للاخلاق .

هذا كله موجود في كل كتاب فقه ، وتحت كل عنوان من هذه العناوين نظريات ومبادىء وآراء ومناقشات ، لا تختلف أبداً عما كتب في الحقوق الرومانية قديماً والفرنسية والانكليزية وغيرها حديثاً ، بل هي أعمق منها وأصح وأوسع ، وهذا كله يسمى بـ (الاسلام) .

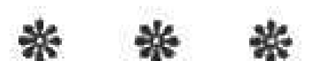
فالاسلام اذن ليس ديناً فقط ، ولكن فيه ما هو دين (العقائد والعبادات) ، وفيه ما هو علم (النظريات والابحاث الحقوقية) ، وفيه ما هو تشريع وما هو سياسة فما كان منه ديناً لا صلة له بالسياسة .

ولكن ما بال سائر الابواب ، ولماذا يكون كتاب الحقوق المدنية الذي يدرس في كلية الحقوق علماً ولا يكون الجزء الخاص بالحقوق المدنية من حاشية ابن عابدين علماً ؟ هل عيبها أنها تؤيد النظرية الحقوقية

بقول الله وقول رسوله ؟ ولماذا تقتبس القانون المدني من كل قانون أو كتاب حقوقي في الدنيا الا من كتب الفقه مع أنها أغزر مادة ، وأمس بنا وبحياتنا وأوضاعنا ، لماذا ؟ هل يعلل ذلك الا بأنه تقليد وفقدان للشخصية واضاعة للكرامة ؟

فقاعدة فصل الدين عن السياسة تصح في الاسلام (بهذا الاعتبار) كما تصح في غيره ، والفرق بين الاسلام وغيره انه دين وسياسة وعلم وتشريع في الوقت نفسه ، فهل يعاب الاسلام بهذا ؟

والذي يقول بأن السياسة أو الحقوق ليست من الاسلام ، فعليه أن يمحو من القرآن براءة ، والانفال ، ومئات الآيات التي تبحث في الاحكام والتي أفردها الجصاص وغيره من العلماء بالتأليف فيها .



عبد الله الصـــادق

كتبت مدة في الايــام بامضاء مستعــار هو (عبد الله الصادق) ومدة في النصر بامضاء (أديب عادل) فسال الناس من (عبدالله الصادق) فكتبت هذه الكلمة :

جئت اشتكي من ظلم الأيام ، أيام نصوح بابيل لا أيام الدهر ، لأنها لم يكفها أن أعطت زاويتي أمس لغـيري ، حتى سلطت النــاس عليّ يزعجونني •

انني لم أخط أمس خطوة ، ولم أركب تراماً ، ولم أقعد في مكان الا وجدت مَنْ يسألني : مَنْ هو عبد الله الصادق ؟

فيا أيها القراء ، مالكم وماله ؟ هل لكم عليه دين تطالبونه بدينكم ؟ هل بينكم وبينه ثأر تقتلونه بثأركم ؟ هل أنتم عاشقون له تسعون وراءه تبلون به صدى قلوبكم ؟

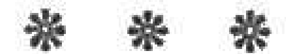
فلماذا الحرص على معرفة أصله وفصله ، ونسبه وحسبه ، وماضيه وحاضره ومتى ولد ، وأين يقيم ؟ لماذا لا تأخذون ما قيل وتدعون مَنْ قال ؟

ولما تسألونني أنا عنه ؟ مَنْ قال لكم أني كنت صديقه وصفيه ، وخليله ونجيه ؟ أو تحسبون اني (مأمور النفوس) عنــدي سجـلات الخلائق وأسماؤها وكناها ، وآباؤها وأمهاتها ؟ أو (شــرطي تحري) لدي أنباء الناس ، وصفاتهم ونعوتهم ، وما يصنعون في منــازلهـم وأسواقهم ؟

وماذا رأيتم في الرجل من عجيب حتى ذهبتم تستقرون عنه هـذا الاستقراء ؟ ألأنّ له هذا الأسلوب ، ولا يكتب ولا سمعتم باسمه ؟ أم لأنه عبد الله الصادق وقدمات عباد الله الصادقون من دهر طويل ، وعاش في الناس بعدهم الكذب ، فنحن نكذب في أقوالنا وأفعالنا ، ونكذب في أسواقنا وبيوتنا ، في مجاملاتنا ومخاصماتنا ، تقول للصديق مشتاقون اليك ، وما بنا اليه من شوق ، ونهدد العدو بأننا سنبطش به ، وما نقوى على بطش ، صار الكذب لنا ديناً ، فالسائل يكذب اذ يدّعي الحاجة والفقر ، والتاجر يكذب اذ يدّعي الجودة والرخص ، والموظف يكذب اذ يشتكي الشغل ويعد الى غد ، وفي غد الى ما بعد غد ، والخبير يكذب اذ يقدّر الدار بكذا ويحلف أنه ما قال الا ما يراه حقاً ، وهو ما قال الا ليرضي الخصم الذي اتفق معه في الليل على أن يكون معه في النهـار ، والخياط يكذب اذ يقول لك ، القياس الخميس ، وهو يعلم أنه لن يكون الا الاحد ، والمرشح يكذب اذ يعد الناس ويمنيهم ، وما يعدهـم الا غروراً ، والحكومات كلها تنسج برامجها الوزارية من خيوط الأكاذيب ، ثم لا تحقق منها شيئاً ، والدول الكبرى تكذب اذ تؤكد أنها تدافع عن السلام باثارة الحرب !

فلذلك عجب الناس ، اذ سمعوا انه لا يزال في الدنيا عبد صادق ، وانطلقوا يفتشون عنه بمصباح ديوجين ، ويزعجون عباد الله بالسؤال عنـه .

فيا جريدة « الايام » دلّيهم عليه ، أرجوك وأريحيني !



طيـور وبشـر

أظن أن أكثر القراء قد مروا بهذا الخبر العجيب الذي وقـع من اسبوعين مرور الكرام باللغو ولم يقفوا عنده ولم يفكروا فيه : خبـر الطيور التي أقبلت بأسراب هائلة العدد فتكاثرت على الطيارة الضخمة في طريق العراق حتى كادت تؤذيها وتودي بها •

أمّا أنا فقد وقفت عنده مفكرا متعجبـاً كيف استطـاعت الطيور العجماوات التي لا عقل لها ولا لسان أن تتحد وتجتمع حتى كان لهـا باجتماعها القوة التي جعلتها تقتحم بأجنحة صغيرة من الريش جناحين كبيرين من الفولاذ ، وتهاجم بأجسادها اللطيفة ، ومناقيرها الضعيفة ، هذه الطيارة المخيفة ••• ونحن العرب الذين يعدون ثمانين مليوناً ولهم عقول ، ولهم دول ، ولدولهم جامعة ولجامعتهم أمين مقوال ، له لسان يفلّ الجيوش ويثل العروش ••• لم نستطع أن نتحدكمايكون الاتحاد، ولم نقدر أن نحطم بجيوشنا الستة عصابات الدولة المزعومة ؟••

وكيف ذهبت فلسطين ولا يزال الاختلاف باقياً بين أهلها ، بين الحاج أمين مفتي فلسطين (التي صارت لليهود) وخصوم الحاج أمين؟ ولا يزال الاختلاف بين دول العرب على القدس (تدويلها) وتقسيمها ، وعلى••• غير القدس ؟!

وكيف يكون لعشرة آلاف طائر هذه القدرة وهذا المضاء ، ولا تكون لثمانين مليون عربي • ولخمسمئة مليون مسلم •   خمسمئة مليون ؟!

لو أنهم غنم لما استطاعت دولة في الدنيا أن تذبحهم ، ولو ذبحتهم لأغرقتها دماؤهم ولو أنهم قطط وجـاؤوا مجتمعين لما قـدر جيش في الارض عليهم !

فمالنا ؟ ماذا كتب علينا ! أفقدنا سلائقنا ، وأضعنا ارث ماضينا ؟ أم أن بلاءنا من رؤسائنا ، وشقاءنا من ملوكنا ؟

بل من ملوكنا ورؤسائنا[1] ؟

---

(١) وقد ذهب الآن اولئك الملوك والرؤساء .

حفــلة

ان هذا التفاوت بين الناس في (بعض البلدان) الذي هو أصـــل بلائها ، وسر شقائها ، والذي بحثت من الشكوى منه ألسنة أهلهـا ودوابها وأرضها وسمائها وذلك التبذير الجنوني يقابله الحرمان المميت، وأن يشقى ألف فلاح شهراً ليسعد بالاثم مالك واحد ليلة ، وأن ينفق واحد ألف جنيه على الشهوة الدنسة ، ويبقى ألف من الناس بلا جنيه واحد.

كل هذا سيكون فينا ، قد بدت بوادره في دمشق وفي المهاجرين على التخصيص ، فأسرعوا يا أيها العقلاء ، ويا أيها المصلحون ، ويا رجال الحكم ويا رجال القلم ، فادفعوه قبل أن يتمكن ويستعصي على العلاج.

واشهدوا لي عند الله اني قد بلغت .

ان حي المهاجرين الذي فيه الفقراء ينامون في مغارات الجبل وفيه اللاجئون يأوون الى حرم الجامع ، وفيه الأرامل والفقــراء والشيوخ العجز من بقايا الاتراك الاولين ، ان هذا الحي شهد منذ ليال حفلة داعرة فاجرة لعنتها الاخلاق ، ولعنتها المدنية ، ولعنتها العدالة الاجتماعية ، ولم يباركها الا هؤلاء النفر الذين هم في ذواتهم لعنة مجسمة على هذا البلد، وهم سبب أذى الكثرة الكاثرة من أبنائه ، يدفعونهم دفعاً الى النقمة على الحياة والكفر بعدالتها ، ويحثونهم على النجاة ولو بالالتجاء الى جهنم الحمراء ... أو الى الشيوعية الحمراء مثل جهنم ...

حفلة لا أدري ما ذا أقول عنها ، عرس ؟ ان العرس يكون للنساء وحدهن . مرقص ؟ ان المراقص لا تكون بين البيوت الشريفة ، اذن فماذا هي ؟ انه اجتمع فيها عشرات وعشرات من الجنسين بدأت الساعة العاشرة ساعة ينام الكادحون العاملون الذين يشقون لينالوا لقمتهم ، فنغصت عليهم نومهم وكرهت اليهم عيشهم وعرضت في الحديقة المكشوفة على الطريق ، تسطع فيها الانوار على أكسية المساء (الســواريه) والحلي والجواهر ، وتعلو فيها الأصوات فتصل الى آخر الشارع والى الجادة

الثالثة : « شمبانيا للستات وويسكي للرجال» وتدور القناني والكؤوس، ويدور بعدها الراقصون فتلتف السيقان وتتدانى الرؤوس ، حتى اذا اقترب الفجر و (اختمرت) الحفلة . وتمكنت الخمرة، وتملكت النشوة، نسي هؤلاء السوقة مظاهر التمدن التي ظنوا أنهم تعلموها وعادوا الى سوقيتهم والى ... غريزتهم ... وعلا العياط والزياط [1] والشخير والنخير ، والشهيق والنهيق وأطفئت الانوار غير مرة ، كما يكون ليلة عيد الميلاد ، اي والله العظيم .

لا الخلق منعهم من هذه الدعارة المعلنة وسط الأسر الشريفة ، ولا الذوق وزعهم عن ازعاج الناس ساعة المنام ، ولا الانسانية ذكّرتهم أنّ ها هنا بشراً مثلهم « ان كانوا هم بشراً » يحتاجون الى ثمن قنينة واحدة من هذه القناني التي تبلغ المئات ، ليشتروا بها الخبز لمعدهم ، أو الكتاب لولدهم ، أو الدواء لمريضهم ..

وما أقيمت هذه الحفلة الا بما أخذه أصحابها من اليهود لأنهم كانوا أول من باع أرضه لهم ، انّ هذا المال ثمن أرض الوطن التي أقيمت عليها دولة اسرائيل ، انّ هذه الخمر عرق الفلاحين الذين يشقون سنة ويذوقون الحرمان ، ليشرب « السيد » وضيوفه عرقهم خمراً ... لقد أنفق في هذه الحفلة مايعيش به أهل المهاجرين كلهم اسبوعاً كاملا على التأكيد!

انّ هذه الحفلة نذير من القدر لأهل الشام ، ليتنبهوا .

ان هذا التبذير هو الذي يصنع الشيوعية فان أردتم أن تحاربوها فحاربوه أوّلاً . انها تقليد سخيف للحفلات الاوربية ، ولكن كتقليد القردة لبني آدم . انها حفلة قرود .

فان كانت هذه هي ثمرة الارستقراطية ... فلعنة الله والخلق على هذه الارستقراطية !

❃ ❃ ❃

---

(1) العياط والزياط من الفصيح .

نحن وطلاب اليــوم

الى الآنسة التي كتبت اليّ يوم الخميس .

يا بنتي ، ان سنة واحدة لا تنسي التلميذة الذكية خلائق أستاذها ، فكيف نسيتني ؟ ومتى عهدتني منافقاً متزلفاً أقول ما لا أعتقد ، وأظهر ما لا أضمر ، وأشتري رضا الناس عني بسخط الله عليّ ؟ وَمَنْ قال لك أني أخاف أحداً في الدنيا ، فأقول من أجله غير الحق ؟ حرام اذن أن أتشرف بالقضاء ، أو أنتسب الى الأدب .

فكيف تطلبين مني أن أعين أخاك واخوانه في المدرسة على مايريدون من نقص ساعات الدرس ، مع ما أعرف من ضعف الطلاب في العربية التي كنت أدرسها ، وأسمع عن ضعفهم في الدروس الأخرى من مدرسيها ، حتى أمسينا نخشى انتشار الجهالة المركبة فينا ؟ وهل تعرفين ما الجهل المركب يا آنسة ؟ هو أن يكون المرء جاهلا ويظن أنه عالم ، كالحكيم توما الذي كان حماره أعلم منه ، لأنه كان يعلم جهله ، وصاحبه يجهل أنه جاهل !

وأحلف لك يا بنتي انه كان معنا من قرأ العقد والبيان والأغاني كله وتاريخ الطبري كله وحماستي الطائيين وخزانتي البغدادي والحموي والمفضليات والجمهرة والمثل السائر والعمدة وكتباً اخرى قرأناها قبل أن نبلغ في الثانوية الصف الذي كنت فيه تلميذتي ، واننا كنا نتناظر في معضلات النحو والصرف واللغة والبلاغة ونتذاكر مسائل الحـديث والتفسير والفروع والأصول ووجوه القراءات ، ويحفظ أحدنا اكثر من خمسة آلاف بيت من جياد أشعار العرب ونحن طلاب في التجهيز ، وانه

نبغ من رفاقنا طائفة هم اليوم من أعلام هذا البلد ، ولولا الاطالة لسردت أسماء عشرات منهم ... فأريني يا آنسة كم هم الذين نبغوا من عشر سنين الى اليوم ؟ وقد كثرت المـدارس وزادت الكتب وتقدم الزمان ؟ وكم من الطلاب (وكدت لولا الحيـاء أقول : من الاساتذة ...) من يستطيع أن يقـرأ صفحة من الكامل أو الأمالي بلا لحن ؟ وكم منهم من يفهم أربعة أبيات من ديوان الفرزدق ويدرك أسرارها البيانية ، ودقائقها اللغوية ، واشاراتها التاريخية ؟ وكم هم الذين عرفوا (الصناعتـين) وفتحوا (الخزانتين) ووعوا (الحماستين) ؟

أوَ ما سمعت اللحن في حفلة المولد في الجامعة أمس القريب ؟ أقسم أن دكاتير في الأدب منهم من نصب الفاعل ، وخالف في التابع ، ولحن في التصريف فممن بعدهم نطلب الصواب ؟ لا يا آنسة لن أقول أكثر من هذا ، فما كل ما يعلم يقال ، فانصحي أخاك يتعلم ، ويدع ماسوى ذلك ، فانه انْ لم يقبل هو ورفاقه على العلم كما كنا نقبل نحن عليه ، أوشكت هذه الامة أن تعود الى ما كانت عليه قبل عصر النهضة فتفشو العامية ويذيع اللحن ، وتعمّ الجهالة وتذهب الرواية ، وينسى العرب لسـان العرب ونعود من خسارة هذا كله بربح شيء واحد ، هو الشهادات .

ومن شهادات المدارس ، ما هو زور ، كشهادات الزور في المحاكم ، ومنها ما هو دليل على الجهل المركب تركيباً مزجياً كـ (حضر موت) لا يشفي منه الاّ الموت والعياذ بالله ، وتسأله السلامة !

والسلام على مَنْ قرأ فوعى !

***

فلاح فلوريدا

قرأت في كتاب (ديل كارنيجي) (دع القلق [1] وابدأ الحياة) قصة فلاح من « فلوريدا » اشترى أرضاً وضع فيها ماله كله وأمله ، فلما صارت له وذهب ليراها ، أصابته أشد ضربة من ضربات الدهر فتركته مضعضعاً مشرفاً على الانهيار : رآها قفرة مهجورة ، لا تصلح للزراعة ولا تنفع للرعي ، وليس فيها الا أعشاب تعيش عليها مئات من الحيات والثعابين ، لا سبيل الى مكافحتها واستئصالها ، وكاد يصاب بالجنون ، لولا أن خطرت له فكرة عجيبة هي أن يربي هذه الحيات ويستفيد منها، وفعل ذلك ، فنجح نجاحاً منقطع النظير ، كان يخرج سموم هذه الحيات فيبعث بها الى معامل الادوية فتستخلص منها الترياق الذي يشفي من هذه السموم ، ويبيع جلودها لتجار الأحذية بأغلى الأثمان ، ويحفظ لحومها ... في علب يبعث بها الى من يحب أكل لحوم الحيّات ، ويظهر أنهم كثيرون .. وكان يقصده السياح من كل مكان ينظرون الى أول مزرعة في الدنيا انشئت لتربية الحيّات والثعابين ...

قرأت هذه القصة الواقعة فأحسست كأني كنت أسير في طريق مظلم لا أعرف موطيء قدمي فيه ، فسطع أمامي نور وهاج ، لقد علمتني هذه القصة ألا أفزع بعد اليوم من فشل أو أجزع من خيبة ، بل أن أحاول استثمار الفشل ، والاستفادة من الخيبة ، وليس في الدنيا خير مطلق ، وليس فيها شر مطلق . ولكن في كل خير شر قليل ، وفي كل شر خير قليل . والخمر والميسر فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، ولكن اثمهما أكبر

[1] أخطأ المترجم ، وكان ينبغي أن يقول (الهم) لا (القلق) .

من نفعهما ، والموت الذي نفر منه قد يكون في حالات مُنْيَة تتمناها ، وابليس الذي هو الشر المجسم ، لا يخلو من خير ، فهو ذكي ، خبير بالطرق التي تصل به الى غاياته ، ثابت على مبدئه [٢] فلماذا أبكي وأيأس ان أصابني شر ما دمت أستطيع أن أستخلص الخير القليل الذي يكمن فيه ، لماذا أترك الحيات تلدغني بسمها ، ما دمت أقدر أن أربيها وأستفيد من سمها .

هذا هو الدرس الذي تعلمته من قصة (فلاح فلوريدا) .

* * *

الزائد أخو الناقص

أعرف أخوين حادا عن السبيل السوي في الغذاء ، هذا الى طريق النقص ، وهذا الى طريق الزيادة ، وما عن حاجة نقص الاول غذاءه ولكن تقشفاً وتزهداً واهمالا لحق جسده عليه ، فكان لا يأكل المقدار الكافي ولا يختار الغذاء الوافي ، وكان الثاني يبالغ في التخير ، وضبط أوقات الطعام ، وتتبع كتب الصحة ، وجمع جداول الغذاء ، وحساب ما يكون في كل طعام من (الزلال) ومن (النشاء) ومن (الدهن) وما يشتمل عليه من (آزوت) و (فسفور) و (ماء الفحم) وما فيه من (الاملاح) وما فيه من (أنواع الفيتامين) وهو يعرف لها بضعة عشر نوعاً ، وكم حرة (كالوري) يكون منه الى آخر هذا الكلام ...

---

(٢) ولست امدح ابليس لعن الله ابليس واعوانه جميعاً من الجن والانس .

أما الأول فعراه مرض كاد لولا لطف الله يودي به الى خطر ، وأما الثاني فقد أصابه رمل في الكلى انقلب الى حصوات ، في كل كلية حصاة ، وآلام في المفاصل اذا مستها نسمة من هواء بارد ، جعلت فيها مثل وخز الابر أحياناً ، وحيناً مثل طعن السكاكين ، وذلك على جودة في الصحة ، ونماء في الجسم ، وضخامة في العضل .

* * *

رأيتهما فقلت : لا اله الا الله ، ما أجلّ حكمته وأبدع صنعه انه لو كان يمرض الناس من نقص الغذاء فقط لكان المرض وقفاً على الفقراء ، ولكان الأغنياء في منجى من المرض ، لا يقرع أبوابهم ، ولا يعرف الطريق اليهم ، ولكانوا يأكلون فلا يشبعون ، يأكلون الأطايب كلها يشترونها بأموالهم ، فلا يدعون للفقراء شيئاً ، فقالت لهم الطبيعة التي طبعها الله : قفوا ، هذا يكفي ، فاذا زدتم عليه فانّ عقوبتكم أمامكم .

فلماذا لاتستجيبون يا أيها الاغنياء لنداء الطبيعة ، فتقللوا طعامكم ، ولا تأكلوا الا ما يقيم أصلابكم ، ويصلح أجسادكم ، وتفعلوا ذلك بدلالة العلم ، وارشاد الاطباء ، وتدفعوا ما يفضل عنكم ، وما يتوفر لديكم مما كنتم تبعثون به من أموال الى أميركا وأوربا تشترون به أدوية جربت أنا أكثرها فوجدته يسكن ولا يشفي ، تدفعوا ذلك الى الفقراء فتخلصوا أنتم من هذه العلل التي تقض مضاجعكم ، وتذهب لذائذكم ، وتنغص عيشكم ، ويخلصوا هم من السل ومن فقر الدم ومن الهزال ؟

ان فعلتم ذلك كان ثوابكم في الدنيا صحة الجسم ، وراحة البال ، وفي الآخرة الجنة .

فهل تفعلون ؟

* * *

يبيع الجـرائد(١)

أعرف أبناء أسرة في بغداد ، لا أعرف أكثر غروراً ، وأشد كبراً ، وأشمخ أنفاً منهم . يملكون مثـل أموال قارون وكانوا من نحو ثلاثين سنة فقراء مثل ابي الشمقمق ، خـرج عليهم كنز من الأرض : كان لهم بستان رحيب لايساوي شيئاً فامتد اليه العمران ، حتى صار يباع بالشبر، وغـدا حياً عامراً ، كحي الحلبوني الذين كان لهم بستان الأعجام وحي السبكي والحبوبي في الشام ...

وما قلت هذا في وصفهم ، مدحاً ولا قدحاً ، ولكن ليتصور القاريء شـابا من هـذه الأسرة ، نشأ في الدلال ، وتقلب في الترف ، وأكل في صحاف الذهب ونام على سرر الفضة ، وكان صورة لابن النعمة المحدثة ، يذهب الى أميركة ليدرس فيكتب الى أهله أنه يشتغل في عطلة الصيف بـ ... هل تتصورون بماذا يشتغل ؟ ببيع الجرائد ..

هذا الشاب المدلل المرفه ابن الترف والسرف ، يشتغل بياع جرائد لا عن حاجة للمـال ، ولا عن رغبة في العمل ، بل لأن من نظام المدرسة الاميركية التي يدرس فيها الزام الطلاب بأن يشتغلوا في أيام العطلة ؟ تلزمهم ذلك الزاماً لأن في ذلك درسـاً لهم خيراً من كل الدروس التي يتعلمونها في المدرسة ، وقد حـدثني طبيب ذهب الى أميركة للاخصاء (أي التخصص) ، ان من المشاهد المألوفة أن تدخل مطعما في الصيف فترى النادل (الكرسون) من طلبة الأقسام العليا في الجامعة ، أو تشتري جريدة من طالب في قسم الاجازة (الليسانس) أو يصبغ حذاءك طالب بكالوريا ..

---

(١) اقرأ كلمة « صناعات الأشراف » صفحة ٢٣٣

يعلمونهم بذلك طريق تكسب المال ، وعلم الحياة ، والاعتماد على النفس ، والترفع عن صغائر الكبر والغرور ، وأن يكون المرء كبيراً في عينه وفي عيون الناس ، حتى لا تصغره أحط الأعمال .

فلماذا لا نأخذ ذلك عنهم ؟

ولمـاذا نقلد الجامعيين الاميركيين في الاختلاط وحفـلات السمر والرحلات ولا نقلدهم فيما يصب الرجولة في الأعصاب ، ويخرج لهذا الوطن جنوداً يتغلبون على أوهام نفوسهم ، ويدفع الطلاب الى مساعدة آبائهم والتخفيف عنهم ، والقيام بنفقاتهم على الاقل ؟ لمـاذا لا ندرس هذا (النظام) ونقر مثله في جامعتنا ؟



الاسـلام الصحيح

حدثني طبيب كبير كان قديماً في الحجاز انه دعي يوماً الى اسعاف جريح ينزف دمه ، وخبر بالهاتف أن الخطر قريب ، والنزيف شديد،وأنه لا يدري أيلحقه حياً أم يسبقه الموت ، فأعدّ عدته وأسرع اليه ، وكان عليه أن يسلك الحرم اختصاراً للطريق واغتناماً للوقت ، فلما كاد يخرج أذن المؤذن فاعترضه واحد من جهلة المتعبدين : فقال له بلهجة منكرة : الى أين تخرج وقد أذّن المؤذن والخروج من المسجد بلا صلاة مكروه لمن سمع الأذان ؟

قال له : وما شأنك أنت ؟

فانضم اليه آخرون يقولون : أتقولون لمن أمرك بالمعروف (ماشأنك) ارجع فصل ۰ .

فقال : يا ناس أنا طبيب ذاهب لاسعاف رجل مشرف على الموت ولعل هذه الدقائق تسبب موته .

قالوا : الخروج من المسجد بلا صلاة مكروه .

قال : ولكن ترك المريض يموت بلا اسعاف حرام .

فلم يسمعوا منه وتكاثروا عليه حتى ردوه الى المسجد ...

فجعلت أفكر في عمل هؤلاء الجاهلين ، الذين يتكلمون باسم الدين عن غير علم ولا فهم وبغير ذوق ولا لطف ، وفي أمثالهم ممن يحاول الدعوة الى الله بالغلظة والفظاظة ، فأراهم علة ما نشكو منه من انصراف الناس عن الدين ، وجهلهم به ، وأرى فيهم تحقيق كلمة الشيخ محمد عبده التي تكاد تكون من جوامع الكلم : (الاسلام محجوب بأهله) يسترونه عن الناظرين اليه ، ويمنعونهم أن يروا يسره ومرونته وصلاحه لكل زمان وكل مكان .

... وأكاد أعذر الشباب ان لم يعرفوا الدين ما داموا لا يجدون كتاباً مختصراً سهلا يعرفهم بالاسلام السهل (البسيط [1]) الذي كان الأعرابي يفد على الرسول فيتعلمه منه في أيام ويعود الى قومه مرشداً هادياً ، ويصير فيهم اماماً ، ولا يجدون من العلماء من يقترب منهم ، ويقرب الاسلام الى أذهانهم ، ويعرفهم به بلسانهم ، وما داموا يجدون من غلاظة بعض أدعياء العلم وجهلهم مثل ما وجد هذا الطبيب ، مع أن الاسلام يوجب انقاذ رجل مشرف على الموت ولو بترك الفريضة ، كما يجوز انقاذ الحياة بأكل الميتة ، ودفع الغصة بشرب الخمر ، ولا يوجب

(١) أفضل كتاب في هذا الباب (موعظة المؤمنين للقاسمي) وأفضل منه (مختصر منهاج القاصدين) .

على أحد أن يكره أحـداً على الصلاة في أول الوقت اكراهاً ما دام في الوقت فسحة ..

وفي الذي ينكره الشباب من بعض المشايخ والمتمشيخين أشيـاء كثيرة ، ينسبونها الى الاسلام والاسلام لا يقرّها .

فلماذا يسكت العلماء حتى يتكلم هؤلاء الأدعياء ، ولماذا لا يؤلفون الكتب للشباب ، ويلقون المحاضرات في مجامع الشباب ، تعريفاً بالاسلام وتبيانا لحقائقه ؟ وما لبعض الخطباء يتكلمون كل جمعة في موضوعات ميتة بلهجة باردة ، كلاماً يهرب منه المصلون فلا يأتون حتى تنتهي الخطبة أو ينامون عند سماعه ، مع أن خطبة الجمعة لو أحكم أمرها وجاءت على وجهها ، لحققت انقلاباً في الاخلاق والعادات في ثلاثة أشهر ، وما لبعض المدرسين يأخذون الرواتب من أموال الأمة ، ولا يدرسون ولا يراهم أحد الا عند قبض الراتب ؟ ومالهم يسعون الآن سعي مَن لا يكلّ ولا يملّ لتعديل ملاكهم وزيادة رواتبهم ، ولا يفكرون أن يقوموا قبـل ذلك بما يوجبه الشرع والقانون عليهم ؟ وكيف يستحلون أن يأخذوا راتباً بلا عمل ؟ وما لدائرة الافتاء ومديرية الأوقاف لا تلاحقانهم وتعاقبان المهمل منهم ؟ ان هؤلاء المدرسين لو نظموا دروسهم ، وأحسنوا القاءها لا في المساجد العامة فقط ، بل في النوادي والجماعات بل وفي القهوات ـ ولِمَ لا يكون الوعظ في القهوات ؟ وما دام الناس لا يلحقون الشيخ الى الجامع فيلحقهم هو الى القهوة ـ لو فعلوا ذلك لأنشؤوا أمة جديدة في خلائقها وعاداتها في بضع سنين ...

* * *

كلنـا نمـوت

هل رأى أحد منكم يوماً جنازة ؟ هل تعرفون رجلا كان ان مشى رج الارض ، وان تكلم ملأ الاسماع ، وان غضب راع القلوب ، جاءت عليه لحظة فاذا هو جسد بلا روح ، واذا هو لا يدفع عن نفسه ذبابـة ولا يمتنع من جرو كلب ؟

هل سمعتم بفتاة كانت فتنة القلب وبهجة النظر ، تفيض بالجمـال والشباب وتنثر السحر والفتون ، تبذل الأموال في قبلة من شفتيهـا المطبقتين كزر ورد أحمر ، وتراق الكبرياء على ساقيها القائمين كعمودين من المرمر ، جاءت عليها لحظة ، فاذا هي قد آلت الى النتن والبلى ، ورتع الدود في هذا الجسد الذي كان قبلة عباد الجمال ، وأكل ذلك الثغر الذي كانت القبلة منه تشترى بكنوز الاموال ؟

هل قرأتم في كتب التاريخ عن جبار كانت ترتجف من خوفه قلوب الابطال ، ويرتاع من هيبته فحول الرجال ، لا يجسر أحد على رفع النظر اليه أو تأمل بياض عينيه ، قوله ان قال شرع ، وأمره ان أمر قضـاء ، صار جسده تراباً تطؤه الاقدام وصار قبره ملعباً للاطفال ، أو مثابـة لـ ... (قضاء الحاجات) ؟!

هل مررتم على هذه الاماكن ، التي فيها النباتات الصغيرة تقـوم عليها شواهد من الحجر ، تلك التي يقال لها المقابر ؟

فلماذا لا تصدقون بعد هذا كله ، ان في الدنيا موتاً ؟

لماذا تقرؤون المواعظ وتسمعون النذر فتظنون أنها لغيركم ؟ وترون الجنائز وتمشون فيها ، فتتحدثون حديث الدنيا وتفتحون سير الآمال والأماني كأنكم لن تموتوا كما مات هؤلاء الذين تمشون في جنائزهم،

وكأن هؤلاء الأموات ما كانوا يوماً أحياء مثلكم ، في قلوبهم آمالأكبر من آمالكم ، ومطامع أبعد من مطامعكم ؟

لماذا يطغي بسلطانه صاحب السلطان ويتكبر ويتجبر يحسب أنها تدوم له ؟ انها لا تدوم الدنيا لأحد ، ولو دامت لأحد قبله ماوصلت اليه؟

ولقد وطيء ظهر هذه الأرض مَنْ هم أشد بطشاً ، وأقوى قـوة وأعظم سلطاناً ، فما هي ... حتى واراهم بطنها فنسي الناسأسماءهم !

يغتر بغناه الغني ، وبقوته القوي ، وبشبابـه الشاب ، وبصحتـه الصحيح ، يظن ان ذلك يبقى له .. وهيهات ...

وهل في الوجود شيء لا يدركه الموت ؟

البناء العظيم يأتي عليه يوم يتخرب فيه ، ويرجع ترابا ، والدوحة الباسقة يأتي عليها يوم تيبس فيه وتعود حطباً ، والأسد الكاسر يأتي عليه يوم تأكل فيه من لحمه الكلاب ، وسيأتي على الدنيا كلها يـوم تغدو فيه الجبال هباء ، وتشقق السماء وتتفجر الكواكب ، ويفنى كل شيء الا وجهه .

يوم ينادي المنادي : لمن الملك اليوم ؟

فيجيب المجيب : لله الواحد القهار .

* * *

لقد أمر رسول الله بالاكثار من ذكر الموت .

فاذكروا الموت لتستعينوا بذكره على مطامع نفوسكم ، وقسـوة قلوبكم اذكروه لتكونوا أرق قلباً ، وأكرم يداً ، وأقبل للموعظة ، وأدنى الى الايمان ، اذكروه لتستعدوا له ، فان الدنيا كفندق نزلت فيه ، أنت في كل لحظة مدعو للسفر ، لا تدري متى تدعى ، فان كنت مستعداً : حقائبك مغلقة ، وأشياؤك مربوطة ، لَبَّيْتَ وسرت ، وان كانت ثيابك مفرقة ، وحقائبك مفتوحة ، ذهبت بلا زادولاثياب ـ فاستعدوا للموت

بالتوبة التي تصفي حسابكم مع الله،وأداء الحقوق ، ودفع المظالم لتصفوا حسابكم مع الناس .

ولا تقل أنا شاب .

ولا تقل أنا عظيم .

ولا تقل أنـا غني .

فان عزرائيل ان جاء بمهمته لا يعرف شاباً ولا شيخاً ، ولا عظيماً ولا حقيراً ، ولا غنياً ولا فقيراً .

ولا تدري متى يطرق بابك بمهمته .

* * *

مجنــون

رجل ورّثه أبوه قصراً عظيماً يزرى بقصور الملوك ، اجتمع فيـه سحر الطبيعة وعبقرية الفن ، فكان ظاهره قصيدة كلماتها الرخام المجزع وأشطارها وقوافيها الأساطين الدقاق والأقواس الحواني ، وفيهـا من بلاغة النقش وفصاحة (المقرنصات) ما لا تبلغه بلاغة الكلام ، وفي باطنه من رائع الأثاث وبارع الرياش ، وعجيب التحف وغريب اللطف ، مـا يقصر عن بيانه البيان ، تطيف به الجنان الفواتن ، فيها من ألوان الزهر وأنواع الثمر ، ما هو غذاء للجسد وللروح ، وفي السواقي تجري على عجل ، تريد أن تلحق الزمان لتتلو عليه من خريرها حديث الخلود ، وفيها البرك تتفجر نوافيرها راقصة فيرقص معهـا النور ، ويضحك لرائيهـا الوجود ، وفيه الخزائن مترعات بالذهب الوهّاج ، والتخوت زاخرات

بالثياب الغوالي ، والموائد حافلات بالطعام الهنيء .

... فترك ذلك كله وراح يقرع الابواب ، يسأل الناس احساناً : رغيفاً يتبلغ به ، وكوخاً يأوي اليه ، وحصيراً ينام عليه .

... ماذا تقولون في هذا الرجل ؟

مجنون ؟! لا . لا تقولوها أرجوكم ، لأنّ هذا مثالنا نحن ، فهل نحن جميعاً مجانين ؟!

نحن الذين ورّثنا آباؤنا أجمل بقاع الأرض ، فأهملناها حتى جعلنا جنانها الساحرات صحاري ، وأوديتها الحالمات مفاوز ، وتركنا عيونها الصافيات تضحك في رؤوس الجبال للمعزى وللضباع ، وورودها الباسمات تنشر عطرها في السفوح للرياح ، ورحنا نؤمّ وادي البردوني ، ونقصد مصايف لبنان وأين واديه من وادي الشاذروان لو كسته أيدينا مثل تلك القهوات ، وهاتيك المطاعم ، حاشا الخمور والفسوق والضلالات ؟ وأين مصايف لبنان من مصايف الشام لو كان في الشام رجال ؟

نبئت لبنان جنات الخلود وما نبئت أنّ طريقَ الخلد لبنان

نحن الذي ورثنا أعظم لغة نطق بها لسان بشري لا أستثني ولا أبالغ، فهجرناها وحقّرناها ، ورحنا نلتقط فتات موائد اللغات ، نحن الذين ورثنا أكبر ارث من نظريات التشريع وقواعده وأحكامه فرميناه ، ورحنا نسأل الناس شيئاً لله ، من قوانينهم ونظرياتهم صدقة واحساناً . نحن الذين ورثنا أشرف العادات وأفضلها فرغبنا عنها ، ورحنا نأخذ من كل أمة شرّ ما عندها ، نحن الذين ورثنا المجد والعزة وملكاً أظلت راياته الشرق والغرب ، وسامت النجم ومست السماء فهدمنا ذلك المجد ، وأضعنا ذلك الملك ، وتركنا اليهود أذل البشر يفتحون بلادنا ، وقد فتح أجدادنا العالم وأذلّوا جبابرة الارض ...

فان كان ذلك الرجل مجنوناً فنحن جميعاً مجانين ! !

❋ ❋ ❋

مكرمـــات

من سنن المكارم التي سنّها رسول الله صلى الله عليه أنه اذا كان موعد جداد النخل ، واقتطاف ثمره ، جاء كل جاد بقنو (أي بعنقود) يعلق في المسجد ، ليأكل منه الفقراء والمساكين ومن ليس له نخل ، وقد مرّ يوماً بقنو حشف (أي تمر رديء) فأنكر على مَنْ علّقه وعلّــم الناس أنّ الصدقة لا تكون الاّ بالطيّب .

وقد رأى السلطان نور الدين أن الأغنياء من أهل دمشق يؤمّون الربوة في الصيف ، ولهم فيها البيوت العامرة والمغــاني ، فأقام للفقراء قصراً على سفح قاسيون ، تحته (تورا) وفوقه (يزيد) ، ووضع فيه من كل شيء وفتح بابه للفقراء .

وكان في دمشق جرن من الحجر على باب كل بستان يملأ بالثمار كل صباح ليأكل منه المارة والفقراء ، وآخر ما كان من ذلك بستانان ، يعرف كل واحد منهما بـ (بستان الجرن) ، أحدهما في منحدر كيوان مــن المهاجرين ، والآخر في القصاع تحت جسر تورا .

وكان في حماه دار فخمة ، مفروشة بأجمل الفرش ، وفيها أغلى الاثاث، وفيها الآلة الكاملة ، معدة للأفراح ، فمن كان عنده فرح من الفقــراء عرس أو ختان ، ولم يكن له دار أعير هذه الدار أيام الفرح مجاناً .
وكان في قرى الكروم (داريا وغيرها) عادة حلوة ، هي أن الفلاح اذا أنزل صناديق العنب (السحاحير) الى السوق ، حمل معه سلة مملوءة

عنباً ، فلا يلقى أحداً الا" أعطاه عنقوداً ، وهذه العادة باقية الى اليوم في النبك لم أرها في غيرها .

هذا مثال من المكارم التي أمر بهـا الرسول ، وأكثر منها الملوك ، وتعارفها النـاس ، وهـذا مظهر من مظاهر الاشتراكية الانسانية التي لا منّ فيها ولا أذى ، وصورة من صور الصدقات النبيلة التي يعطيها الغني راضياً مسروراً ، ويأخذها الفقير عزيزاً كريماً ، فلماذا اختفت من حياتنا هذه المظاهر ، وطمست هذه الصور ؟

ولماذا لا نجد في الحكومات ولا نلقى في الأغنياء ، مَنْ يحاول أن يعيدها ويحييها ؟

* * *

رجـل وامـرأة

غمزني جاري في الترام بيده ، وهمس في أذني :

ــ انظر ، هل هذا رأس شاب أم فتاة ؟

فنظرت فاذا رأس يبدو من وراء الحاجز ، الوجه فيه وضيء مصقول يصلح للجنسين ، والشعر مرجل مصفوف ، مقصوص ، ولم أستطع أن أعرف (جنسية) صاحبه : هل هو من دولة الجنس اللطيف ، أو من دولة الجنس الخشن الذي لطف في هذه الأيام !

ــ فقلت : لا أدري والله !

فضحك ونادى صاحب الرأس باسم من أسماء الرجال ، فأجابه صوت رقيق منغوم ، وبرز جسده يستر أعلاه قميص ذو خطوط متقاطعة ومربعات مما يلبس النساء ، وهو مزموم من عند الخصر وله عقدة ، وأسفله في وسط (بنطال) من (بنطالونات) الرجال .

ـ قال : ما تقول فيه الآن ؟

فأنعمت النظر فاذا هذا الانسان يقف متثنياً متخلعاً يكاد ينهدم ، كأنه خلق بغير عظام ، أو كأنّ عظامه من شكلاطة ، فلذلك ألبسوه هذا القميص ، الذي يشبه غطاء علب الشكلاطة ، وحاولت أن أعرف حقيقته هل هو شاب متأنث ، أم فتاة مسترجلة ، فلم أدر ما هو .

وركبت امرأة (صالحانية) سمراء الوجه ، تتقد عيناها ، ويجلجل صوتها ، ومرت تزاحم وتصادم ، وتدفع بيديها ، وتسب بلسانها ، حتى شقت لها طريقاً ، ووصلت الى هذا (الانسان) ، فدفعته دفعة هوى منها في حضن أحد الركاب .

فانزعج وقال بصوته الأغن الناعم :

ـ شو هالغلاظة .

فعادت المرأة تتأمله كما يتأمل زائر الحديقة حيواناً غريباً ، ثم وضعت كفها في خصرها ، وصاحت :

ـ (ايه يامو تقبرني وقعت ؟ ولي على قامتي ، آل شبـاب ، تعو شوفوا شباب آخر زمان) .

وانفجر الناس بالضحك .

فقلت لجاري :

ـ الآن عرفت .

هــذه (هذه الصالحانية) رجل متخفٍّ في ملاءة امـرأة ، وذلك (الشاب ...) فتاة مدللة مستترة في ثوب رجل !

صناعات الاشراف

غضب قوم من كلمتي أمس (يبيع الجرائد)

وقالوا : عجباً ! يشتغل ببيع الجرائد ؟

ولماذا لا يشتغلون ؟

ما الذي يمنع طالب الجامعة أن يعمل في الصيف ؟

ما الذي يمنعه أن يتعلم طريق الكسب ، وأن يقوم بنفقات مدرسته ونفسه ؟ وأن يساعد أباه وأهله ؟ وأن يعرف تعب تحصيل المـال حتى يعرف لذة توفيره ، ويشفى من مرض تبذيره ؟

ما الذي يمنعه أن يتعلم في المدارس الخاصة ، أو يعطي دروساً فـي بيته ، أو يشتغل محرراً أو مصححاً في جريدة ، أو حاسباً في (متجر) ان لم يشأ أن يبيع الجرائد ، أو يخدم في المطاعم ؟

هل يحسن بطالب الجامعة أن يكون كلاًّ على أبيه ، وعالة على أهله، وهو شاب طويل عريض ، لو كان قبل أربعين سنة لكان له في هذه السن أربعة أولاد ، وكان له دكان ..؟

هل ينبغي لطالب الجامعة أن يمضي الصيف كله ، لا يعرف الا لبس آنق الثياب ، وشراء أغلى الكتب ، واضاعة الوقت في المطالعة الخفيفة والتسلية البريئة ... وأبوه يكدح ويشقى ويموت كل يوم عشر موتات ليعوله ويعول أهله ؟

لقد قرأت أنا صغير كتاب (التربية الحديثة) لادمون ديمولاند ، فكنت أتمنى لو كان في بلادنا مثل هذه المدارس ، فلماذا لا تحقق هذه الأمنية ؟ ولماذا لا تفتح وزارة المعارف مثل هذه المدارس ، التي تعلـم العلم والعمل ، وتشغل يد التلميذ وعقله ، وتدرب الطالب على استعمال آلة النجارة ، وأداة الحدادة ، كما تدربه على اعراب بيت من الشعر ، وحل مسألة في الجبر ، واستعمال آلة الموسيقى ؟

أريد المدرسة التي تضع في أذهان التلاميذ هذه الحقيقة التي نسيت،

وهي أنه ليس في العمل عيب .

لا ، لا أريد أن تلقى في ذلك المحاضرات والخطب والكلام الفارغ ، بل بالعمل ، بأن يشتغل المعلم والتلاميذ معاً بعد الظهر ، يلبسون ثياب العمل ، ويبنون في رحبة المدرسة بيتاً للدجاج ، ويحفرون الارض ، ويصلحون المقعد الذي انكسر ، ويربون الدجاج والنحل ، ويصنعون كل ما يصنع في المدرسة الانكليزية الحديثة ، أما الخطب يلقيها في ضرورة العمل استاذ واقف في الصف ، أنيق الثياب ، ناعم الكف ، فلا تصنع شيئاً ، وعمر لما جاء القدس ورأى موضع الحرم مغطى بالاوساخ لم يلق محاضرة ، بل قام يعمل بنفسه فتبعه الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم عمل بيده مع صحبه في بناء المسجد وحفر الخندق ، وكثير من علمائنا كانوا تجاراً وعمالا ، فأبو حنيفة كان بزّازاً ، وابن المبارك كان تاجراً ، وأحمد بن حنبل كان يعيش من بيوت له يؤجرها ويصلحها بيده ان تخرب شيء منها ، وعمر بن عبد العزيز اشتغل بيده في تطيين داره وهو أمير المؤمنين ، وملك ملوك الارض ، حتى ألّف فيها كتاب اسمه (صناعات الاشراف) .

وكان علماء الشام الى عهد قريب يشتغل بعضهم بالتجارة ولهم دكاكين يستغنون بها عن صدقات الناس ، ورواتب الدولة ، وممن بقي من هؤلاء الشيخ صالح العقاد كبير فقهاء الشافعية في الشام .

ليس في العمل عيب ، ولقد قرأت مرة أنّ وزيراً أميركياً عيروه بأنه كان صباغ أحذية (بويه‌جي) ، فقال : نعم . ولكني ما صبغت حذاء الاّ أخرجته يلمع كالمرايا .

اننا نحتاج الى هذه الاخلاق !

* * *

آداب الاحسان

رأيت (البنت) البارحة قد أخذت شيئاً من الفاصولياء وشيئاً من الرز وضعتهما في طبق كبير من النحاس ووضعت عليهما قليلا من الباذنجان ورمت في الطبق (خيارة) وحبات من المشمش •• وذهبت به

فقلت : لمن هذا يا بنت ؟ قالت للحارس أمرتني ستي أن أدفعه اليه •

ـ قلت : ارجعي يا قليلة الذوق ، هاتي صينية ، واربعة صحون صغار ، وملعقة وسكيناً وكأس ماء ـ وضعي كل جنس من الطعام في صحن نظيف ، فوضعت ذلك كله في الصينية ، مع الملعقة والسكين والكأس •

ـ وقلت : الآن اذهبي به اليه •

فذهبت وهي ساخطة تبربر وتقول كلاما لا يفهم •

ـ فقلت : ويحك هل خسرت شيئاً ؟ ان هذا الترتيب أفضل من الطعام ، لأن الطعام صدقة بالمال ، وهذه صدقة بالعاطفة وذلك يملأ البطن ، وهذا يملأ القلب ، وذلك يذل الحارس ويشعره أنه شحاد منّ عليه ببقايا الطعام ، وهذا يشعره أنه صديق عزيز ، أو ضيف كريم •

وتلك (يا أيها القراء) الصدقة بالمادة وهذه هي الصدقة بالروح ، وهذه أعظم عند الله وأكبر عند الفقير ، لأنّ الفرنك تعطيه السائل وأنت مبتسم له أندى على قلبه من نصف الليرة تدفعها اليه متنكرا له متكبرا عليه • والكلمة الحلوة تباسط فيها الخادم أبرد على كبده من العطية الجزيلة مع النظرة القاسية • وأن تستقبل يا أيها الموظف الكبير رفيقك في المدرسة ، مرحبا مؤنسا طارحا الكلفة مظهرا الالفة ثم تقضي له بعض حاجته أبرّ به وأسرّ الى نفسه من أن تقضي له حاجته كلها وانت متجهم له مترفع عنه تعامله كما يعامل الموظف الكبير (المراجع) لا يعرفه ••

فيا أيها المحسنون اعطوا من نفوسكم كما تعطون من أموالكم ، وأشعروا الفقراء أنكم اخوانهم ، وأنكم مثلهم وانزلوا الى مكانتهم لتدفعوا اليهم الصدقة يدا بيد لا تلقوها عليهم من فوق فان صرة الذهب ان وضعت في يد الفقير أغنته وان القيت على رأسه من الطبقة السادسة قتلته !

وداع

يا قــرائي !

السلام عليكم . سلام وداع لا سلام لقــاء .

وداعاً يا قراء ، وشكراً لكم على ما أفضلتم علي ، فلقد عشت عمري أغني للحب ، وأهتف للجمال ، وأناجي معاني الخلود في سكرة الاحلام ، وأناغي الطبيعة في هدأة السحر ، وروعة الأصيل ، وفي نهد الجبل ، وفي جزع الوادي ، وأترجم للناس حديث السواقي في أذن الزمان ، وآهات قلوب العاشقين ، ووشوشة النجوى ووسوسة القبل ، وأتغلغل في ظلام الماضي وأستشف حجب المستقبل ، أرسم صور المجد وتهاويل الأماني ...

... فأنزلتموني من سماء الأحلام الى أرض الواقع . وغمستم هذا القلم في مشاكل الطحّانة ، والخبّازة ، واللصوص ، والأشرار ، وأوحال الطرق ، بعد ما عاش دهراً لا يعرف الا مشاكل القلوب .

ووهبتموني آلاف الأعادي من كل موتور يتمنى هلاكي ، ويرجو أذاي ، وأرخصتم في سوق الصحافة أسلوبي ، فاختفى ذاك البريق مـن بياني ، وجفّ الماء الذي كان يتسلسل على لساني .

أفليس لي بعد هذا كله أن أستريح ؟

بلى أو سيتنفس أقوام الصعداء على أن خلا مكاني ، وستفرح قلوب كنت عليها غماً ، وتنام عيون كنت أحرمها لذيذ المنام .

والسلام عليكم يا قرائي ولا (كلمة صغيرة) بعد اليوم !

* * *

الفهـرس

* * *

تصويب

وقعت اخطاء طفيفة يدركها القارىء اهمها كلمة « **ما دون الدرجة الوسطى** » وقد وقعت في السطر السادس من الصفحة (١٨٨) وصوابها : « **ما فوق الدرجة الوسطى** » .

٢١/ ٦/ ١٣٧٩ هـ

٢٢/ ١٢/ ١٩٥٩ م